أنبياء الله



فضيلة الشيخ الإمام

محمد متولي الشعراوي

رئيس مجلس الإدارة : إبراهيم سعده

مطبوعات مايو

المدير العام
علوى عامر

■ دار مايو الوطنية للنشر ■

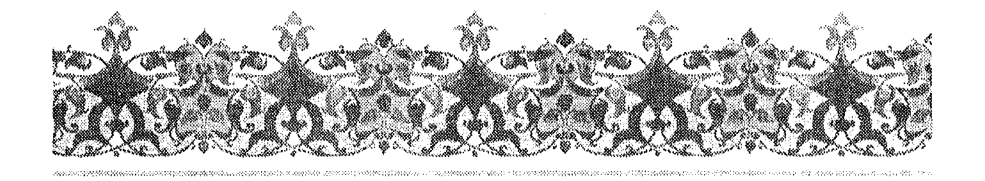
١٦ شارع المنتزة - الزمالك - القاهرة
ت: ٣٤٠٩٩٠٠ / ٣٤٠٩٩٠٩/٣٤٠٩٩٠٧
ص.ب: ١٢٥ الجيزة FAX: 3409046

تصميم الغلاف : اسامة أحمد نجيب



فضيلة الشيخ الإمام

محمد متولى الشعراوى



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن اللَّه سبحانه وتعالى حتى يهدى الناس ويعرفهم المهمة التى خلقوا من أجلها كان لا بد أن يرسل إليهم رسلًا بالمنهج الذى يريده وبغير هذه الطريقة ، وبدون الرسل لم يكن من الممكن للعقل البشرى أن يهتدى إلى مرادات اللَّه من خلقه فجاءت قصص القرآن الكريم لا تتناول أشخاصًا بذاتهم وإنما هى عبرة عامة وموعظة تتكرر ، ففرعون هو كل شخص يريد أن يجعل نفسه إلهًا يعبد فى الأرض ، وذو القرنين مثلًا هو من يريد إصلاحًا فى الأرض ، وصاحب الجنة فى سورة الكهف هو كل من ينسى اللَّه وينسب الفضل لنفسه لذلك فإنه من العبث أن يجهدوا أنفسهم فى البحث عمن هو فرعون موسى ، أو من هو ذو القرنين ذلك علم لا ينفع وجهلًا لا يضر ، فما الذى يتغير فى قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا إن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثانى أو الثالث ، ليس هذا هو المهم ، ولكن المهم أن نعرف العظة مما يتعرض له أى إنسان ينصب نفسه إلهًا من دون اللَّه فى الأرض ، وما يتعرض له الذين يتبعون بغير علم ، فإننا يجب أن نستخلص العبرة والعظة من القرآن الكريم .

وحين يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

هذا القول إنما هو لإيضاح مهمة القصص فى الحياة : أن يثبت بها الفؤاد على منطق ينفع حركة الحياة ، لا على منطق يضر حركة الحياة وتثبيت الفؤاد هو المهمة التى من أجلها جاءت بعض لقطات سور القرآن وهى تحتوى على ما يظنه السطحيون تكرارًا لكنه ليس تكراراً ، إنما هو تثبيت للفؤاد ؛ ذلك أن

الفؤاد عرضة لأن يهتز بالأحداث فيأتى قصص القرآن لتثبيته ، لقد كانت الرسالة المحمدية تمر بمواقف عجيبة وصعبة ، وكان لا بد من استخدام قصص الأنبياء كلقطات متفرقة شاء الحق أن يضرب بها المثل ويوضح للمؤمنين أن طريق نشر الحق يحتاج إلى صبر وكفاح فكان الهدف شد أزر المؤمنين وإيضاح المعلومات التى كتمها الذين عرفوا الكتب السماوية وأخفوا بعضًا منها وحرفوا فيها ؛ لذلك كانت الآيات الكريمة لتصحيح ما أفسد الآخرون ولتثبيت قلوب المؤمنين فإذا ما ذكر الله فى القرآن الكريم أنباء الرسل والصعاب التى تعرضوا لها والأحداث التى مروا بها تهون عليهم مصائبهم ؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

والفؤاد هو القلب وهو وعاء العقائد ، فالفؤاد هو الوعاء القابل للمعلومات .

وفى قضايا الحق لا بد أن يكون الفؤاد ثابتًا لا يهتز ، إذن .. لا بد أن يأتى الحق قبل الموعظة .

والله سبحانه وتعالى هو الحق الثابت الذى لا يتغير فما جاء منه من تكليف فعليك تنفيذه لأنه صادر من الله وإذا أردنا أن نضرب مثلًا - ولله المثل الأعلى - إنك إذا مرضت تبحث عن أمهر الأطباء فى معالجة هذا المرض وبعد أن تستقر عليه وتثق به تنتهى مهمة عقلك فما قاله الطبيب تنفذه . فإذا سألك أحد : لماذا ؟ تقول : الطبيب قال ذلك . فيسكت الجميع ، فإذا كان ذلك يحدث بالنسبة لبشر فما بالك بالحق تبارك وتعالى !!

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦٢] .

إن قول الحق : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ يلفتنا أن ما يرويه الحق لنا ليس حكاية أو حدوته ، أو مزج خيال بواقع ، كما حدث فى العصر الحديث

عندما أخذت كلمة القصة فى العرف الأدبى الحديث القادم من حضارة الغرب ، فالقصة فى مفهومهم يلعب فيه الخيال دوراً كبيراً لكن لو فهمنا اشتقاق كلمة « قصة » نجد أنها مأخوذة من قص الأثر أى تتبع الأثر ، والقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا تخيلات .

فقصص الأنبياء فى القرآن هى قصص واقعية لأنها من كلام الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يقوله الحق لخلقه ليسيروا على المنهج ، وبين ما يرويه الخلق لبعضهم للتسلية والتى تزدحم فى كثير من الأحيان بخيال البشر كروايات جورجى زيدان عن الإسلام ، ولو سئل لماذا أضاف من عنده إلى الوقائع ؟ أجاب بقوله : « فعلت ذلك من أجل الحبكة القصصية » وبذلك نعرف الفرق الشاسع بين قصص الخلق وقصص الحق .

قال جلّ وعلا : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] . لماذا يقص الحق على رسوله أحسن القصص ؟ لأن رسول الله ﷺ سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل ، وكان لا بد أن يقول الحق سبحانه للرسول ﷺ ولأمته من خلاله .

لقد حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثًا إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت داءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا ، ولأن الرسول محمد ﷺ موكول إليه علاج كل أجناس البشر ، وكذلك أمته من بعده لذلك كان لا بد أن يعرفوا أخبار الأمم السابقة ، وموقفهم من رسلهم .

إذن .. القصص القرآنى جاء ليوضح لنا التطبيق العملى للجانب النظرى من الدين ، وقد طبقه الرسل ومن تبعهم ، وأنتم يا أمة الإسلام خير أمة أخرجت

للناس ، لذلك عليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ولسائل أن يسأل : ما الفرق بين الرسول والنبى : نقول : الأنبياء أرسلهم اللّٰه ليكونوا نموذجًا تطبيقيًا للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله اللّٰه بشرع جديد ليعمل به وأمره سبحانه بتبليغه .

إذن .. إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل سبحانه الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسلت به الرسل .

○ ○ ○

نبى الله آدم عليه السلام

قصة آدم عليه السلام جاءت أول ما جاءت فى سورة البقرة وهى ثانى سورة ترتيبية فى القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة] .

إن اللقطات التى ترويها سورة البقرة عن آدم عليه السلام تتحدث عنه بما يلى :

○ أول بلاغ من الله عنه قبل أن يخلقه .

○ الحوار الذى بين الملائكة وبين الله سبحانه وتعالى بشأن خلق الخليفة .
○ أن آدم هو خليفة عن الله فى الحكم بين خلقه فى الأرض .
○ أن الله علم آدم الأسماء كلها ليسوس حركة الحياة .
○ أن إبليس أبى واستكبر على السجود فكان من الكافرين .
○ أن آدم سكن الجنة للتدريب على مهمة الخلافة فى الأرض .
○ أن الشيطان توعد آدم وذريته بالانتقام منهم .
○ أن آدم بمعصيته خرج من الجنة وتلقى كلمات من ربه ليتوب عليه .

وعلى ذلك فالإنسان عندما يريد أن يؤرخ لقصة آدم لا بد أن يستوعب كل تلك اللقطات واللقطات التى جاءت فى السور الأخرى .

ولنرى كيف جاءت اللقطات عن آدم عليه السلام فى سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا

سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة] الأعراف

- بداية الآيات تتضمن خطاباً للبشر جميعاً فالأصل فى الخلق هو آدم ، وآدم مطمور فيه كل نسمات المخلوقين إلى أن تقوم الساعة .
- نتعرف على جنسية الشيطان أنه من نار وأن الإنسان من طين .
- أن الشيطان سيقف للبشر على الصراط المستقيم وحددت السورة الجهات التى يأتى منها الشيطان ليهاجم الإنسان من الأمام والخلف والشمال واليمين ولم يقل الأعلى أو الأسفل .
- تحدد كيفية الإغواء الأول لآدم وزوجه عن طريق الحرص على نعمة الحياة وهى الخلود والسيادة والإستمتاع عن طريق الأكل من الشجرة المحرمة .
- خروج الشيطان مذءوماً مدحورا من رحاب الله ، وأنه هو وسلالته سوف يقدرون على رؤية البشر بخاصية خلقهم .
- تحدد كيفية توبة آدم وزوجه بعد أن غرر بهما الشيطان فرأى كل منهما سوءات نفسه .

○ تحدد لقطات سورة الأعراف كيف خلق الله للإنسان من الوسائل ليوارى سوءاته ويحذرنا الخالق أن الشياطين هم أولياء الذين لا يؤمنون وأن التقوى هى لباس المؤمنين .

وهكذا نرى أن اللقطات التى جاءت فى سورة « الأعراف » اختلفت عن لقطات سورة « البقرة » ، أضافت لنا معرفة أكثر بتفاصيل قصة آدم . وهكذا نجد أن التكرار يتضمن مغزى ومعنى وهدفاً .

وعندما نتأمل اللقطات التى تأتى فى سورة « طه » عن خلق آدم نجدها توضح المزيد من سلوك آدم وذريته . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه] .

والمتأمل لتلك الآيات التى تصور بعضاً من لقطات قصة آدم يجد ما يلى :

- أن القرآن كمنهج مهيمن على حياة الإنسان فى ذلك الكون يوضح له بالبيان مافى الأخرة من الوعد والوعيد لعل الأنسان يجد فيه العظة والعبرة .
- أن الخالق منزه عن التشبيه بالخلق فهو سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وهو سبحانه المالك لكل أسباب الخلق .
- أن آدم قد تلقى من ربه الوصية بألا ينسى وألا يخالف أومر الحق تبارك وتعالى . ولكنها غفلة أصابتة فنسى ما عاهد عليه اللّٰه ولم ينتبه الى التحذير الواضح بأن العداوة سابقة بينه وبين الشيطان ، ذلك الشيطان الذى رفض السجود لآدم بعد أن أتم اللّٰه خلقه .
- لقد كان التحذير واضحاً وجلياً لآدم بأن الشيطان عدو لهما لكنه وسوس لهما فكان سببًا لخروج آدم من الجنة .
- أن منهج اللّٰه يهدى الى الرشاد فمن اتبع المنهج فلا خوف عليه من الضلال أومن الشقاء .
- أن من يبتعد عن منهج الحق فسوف يجد الضنك فى حياته، ولا يرى بالبصيرة ما أعطاه اللّٰه له من نعم الحياة ، ثم العذاب فى الآخرة .

ولنقرأ لقطات جديدة فى قصة آدم عليه السلام ، والتى وردت فى فول اللّٰه تعالى فى « سورة الحجر » يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجر] .

وبهذا القول الكريم عن قصة خلق آدم تكتمل اللقطات وتخبرنا هذه الآيات :

- أن الإنسان خلق من حمأ مسنون بينما الشيطان خلق من نار السموم .
- أن الشيطان ملعون ورجيم إلى يوم الدين ، وأنه توعد آدم وذريته بالغواية ليكون مصيرهم باب من أبواب جهنم السبعة .
- أن عباد الله المخلصين لن يجرؤ الشيطان على غوايتهم ، وتقواهم تفتح لهم أبواب الجنة .
- أن إبليس بعدم سجوده يكون رد الأمر على الآمر سبحانه وذلك الكفر فى قمته ، لذلك فهو إمام الغاوين .

إن آدم خُلق بيد الله مباشرة ، وذريته خلقت بقانون الخلق ، وهو أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقاً لسنة الله فى خلقه وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ص : ٧٢] .

إذن .. فالتسوية من عند الله والروح من عند الله ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥]

أى : أن آدم ليس مخلوقاً كغيره من البشر ولكنه مخلوق بيد اللّه مباشرة وكان أول تكليف له من اللّه فى الجنة التى عاش فيها . وهو أن يأكل من كل شيء ما عدا شجرة معينة أى أن المباح كثيراً جداً .

إذن .. فالتكليف : أمر بفعل ، ونهى عن فعل ، وبما أن آدم مخلوق بيد اللّه فهو مكلف تكليفاً مباشراً من اللّه ، وكان التكليف بأمر واحد فقط وليس بأشياء كثيرة حتى ينسى هذا ويتذكر هذا .

اللّه سبحانه وتعالى حين ينثر الأدلة على عظمة خلقه وحكمته فى الكون لا يعطيك الأدلة من خارج نفسك فقط ولكنه يعطيها لك اولاً من داخل نفسك حتى لو كنت معرضاً عن آيات الكون فإنك لا تعرض عما فى داخل نفسك ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

أى انظر إلى الآيات التى فى نفسك . فالروح هى التى تعطى الحياة للجسد ولا يستطيع أحد أن ينكر وجود الروح لأنها دليل الحياة فمتى خرجت جاء الموت وانتهت الحياة . ومع أنك تدرك يقيناً أن الروح فى جسدك فإنك لا تستطيع أن تدركها ... أين هى الروح ؟ هل هى فى العقل الذى يفكر ؟ هل هى فى الدم الذى يتدفق فى الشرايين ؟ أم هى فى القلب الذى يدق ؟ إنها داخل جسدك ولكنك لا تعرف عنها شيئاً .

فإذا كان سر الحياة الذى وصفه اللّه سبحانه وتعالى داخل جسدك لا تدركه مع أنك تعرف يقيناً أنه موجود فلا تتعجب إذا كان هناك خلق خارج جسدك لا تدركه وإذا حدثك اللّه سبحانه وتعالى عن هذا الخلق فآمن أنه موجود والدليل من داخل نفسك والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

اللّٰه سبحانه وتعالى أخبرنا بأننا خلقنا من آدم ، ونحن جميعاً ذرية آدم ، وآدم خلقه اللّٰه تعالى من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وقال للملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : ٧٢] هؤلاء الملائكة الذين شملهم أمر السجود هم المخصصون لخدمة آدم على الأرض منهم المدبرات أمرا ومنهم الحفظة وغيرهم ، الحق تبارك وتعالى أراهم الإنسان الذى سيكونون فى خدمته وعرفوا منزلته العالية عند اللّٰه ، واللّٰه جل جلاله خلق الإنسان من تراب ووضع عليه ماءً فصار طيناً ، ثم تركه فصار صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح .

هذه هى قصة خلق الإنسان الأول فإذا أراد اللّٰه سبحانه أن يهدم هذا الإنسان بالموت فأول ما ينقض منه هى الروح أخر ما دخل فى الجسم فتكون أول ما يخرج لأن نقض الشىء يكون على عكس بنائه . فأنت حين تبدأ بالبناء تبدأ بالدور الأول ثم تعلو حتى تصل إلى الأخير . فإذا أردت أن تهدم هذا البناء تبدأ بالدور الأخير أخر ما وصلت اليه فى بنائك .

كذلك الموت وهو نقض للحياة فإن آخر ما دخل فى الجسد هو الروح لذلك تكون أول ما يخرج منه ، ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصبح كالفخار ثم يتعفن فيصبح كالحمأ المسنون ثم يُرم فيصير طيناً ثم يخرج منه الماء فيصير تراباً ليرجع إلى الأرض مرة أخرى . إذن فالموت دليل على مراحل الخلق التى أخبرنا بها اللّٰه سبحانه وتعالى ونحن لم نشهد الخلق ولكن نشهد الموت كل يوم فعندما أرى الموت أمامى عكس بناء الحياة أقول صدقت يا ربى فيما أخبرتنا عن الخلق .

○ ○ ○

خلق البشرية مع آدم

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] فكل واحد منا فيه جزىء من آدم ما زال حياً لم يصبه الفناء ولو أننا أعطينا العلم والخبرة ساعة خلق آدم وأخذنا من الحيوان المنوى الموجود فى ظهره ثم كبرناه ملايين المرات وعرفنا سر الشفرة فيه لأستطعنا أن نعرف كل من سيأتى من البشر بعد آدم وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١] .

معناه : أنه قدر خلق كل واحد فينا وتكوينه وأودعه فى هذه الحيوانات المنوية التى خلقت من ظهر آدم وكل عملية بعد ذلك هى تكبير لهذه الجزئيات الصغيرة حتى تصل إلى الحجم الذى يمكنها من إيجاد الحياة ولذلك فإن الخلق أمور اللّه يبديها ولا يبتديها بمعنى أنها كانت مطمورة فى ظهر آدم ثم بعد ذلك يبدأ اللّه يظهرها فقط . ولذلك عندما يخاطب اللّه آدم فهو يخاطب معه ذريته الموجودة فى ظهره . وهكذا نكون قد عرفنا لماذا استخدم الحق سبحانه صيغة الجمع فى قوله : ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ .

○○○

تعليم آدم الأسماء

يقول الحق : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة] .

البعض يتسائل هل تعلم آدم الأسماء فقط أم تعلم الأفعال والحروف أيضاً ؟ وللإجابة على ذلك نقول : إن آدم تعلم الأسماء لأن كل تعلم يبدأ من الإسم فكلمة الإسم تطلق على مضمون الفعل ومضمون الحرف . إن الإسم هو الموجود حتى على الحرف ، فالتعليم يبدأ بالنسبة للإنسان عن طريق معرفة مطابقة الكلمات على الأشياء أى أن التعليم فى كل اللغات يبدأ من تعلم الأسماء .

وهكذا كانت اللغة إعانة لآدم ولذريته من بعده ليستخدموا اللغة والمسميات ويتعرفوا على بديع صنع اللّه فى الكون .

إن اللغة التى علمها اللّه للإنسان هى التى جعلته يتحرك ويتقدم ويكتشف ، واللغة هى التى تجعل الوليد يحاكى أباه ويتعلم منه .

وهكذا نعرف أن المعلم الأول لآدم عليه السلام هو الخالق الأكرم .

○○○

جنـــة آدم

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] كثير من العلماء وهم جمهور المفسرين قالوا : إن المقصود بالجنة هى جنة الخلد فى الآخرة وهنا حدثت إعتراضات ، كيف يمكن أن يدخل إبليس جنة الطائعين للّه وهو عاص ؟ وكيف يمكن أن يدخل جنة الخلود ثم يخرج منها ؟ مع أن اللّه قد كتب أن كل من يدخلها خالد فيها .

يجب أن نتنبه إلى أن الجنة التى عاش فيها آدم ليست هى جنة الخلد ، لأن الحياة فى جنة الخلد لا تأتى إلا بعد التكليف فهى جزاء لإتباع منهج اللّه وليست سابقة على هذا المنهج كما أن جنة الآخرة هى جنة الخلد من يدخلها لا يخرج منها أبداً وآدم مخلوق للأرض ، إذن .. فالجنة التى عاش فيها آدم هى مكان أعده اللّه سبحانه وتعالى له ليتم تدريبه فيه على المنهج .

○ ○ ○

التكليف

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ رمز لنواهى التكليف بألا نفعل . وذلك بألا نقترب مما حرمه اللّٰه فتميل النفس اليه وتقع فى الإغراء والمعصية . ويلاحظ فى قمة العقيدة أن اللّٰه سبحانه وتعالى يطالبنا ألا نقترب منها فيقول : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] ولم يقل لا تعبدوا الأوثان ، فلو قالها لكان مباحاً لنا أن نذهب إلى الأماكن التى تُعبد فيها الأصنام وأن نجلس فيها وربما أوقعنا هذا والعياذ باللّٰه فى عبادة الأصنام ولذلك قال الحق : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ﴾ أى إبتعدوا عنها تماماً .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . الظلم هو تجاوز الحد أو تجاوز الحق فكأن اللّٰه سبحانه وتعالى قال لآدم وزوجه : أنا لم أجعل لكما حقا فى أن تقربا هذه الشجرة ، فإذا أقتربتما منها تكونان من الظالمين لأن اللّٰه لا يظلم أحدا . ولكن الإنسان هو الذى يظلم نفسه بأن يعطيها شهوه عاجلة فى زمن محدود ليصيبها بعد ذلك عذاب أليم فى زمن بلا حدود . وبذلك يكون الإنسان قد ظلم نفسه بحرمانها من نعيم خالد بتحقيق شهوة عاجلة .

○ ○ ○

غــواية الشيطان لآدم وزوجه

وقال اللّٰه تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ كلمة : « وسوس » تدل على الهمس ، فالذى يتكلم ويأمر بخير لا يخشى أن يسمعه الناس . والذى يتكلم فى شر يتحدث فيه بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد .

والوسوسة : هى : رنين الذهب والحلى ، والإغراء هنا ملازم للوسوسة . لأن اللّٰه حين يأمر بشىء ثم يأتى إنسان ويحاول أن يجعلك تفعل مالم يأمر به اللّٰه فلابد أن تكون هناك إغراءت ، هذه الإغراءت لازمة ليخرج الناس عن منهج اللّٰه ، فكيف تم إغواء آدم ؟ وما هى طريقة الشيطان فى الغواية ؟ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

إذن .. حاول الشيطان أن يأتى من الجانب الضعيف للإنسان ، فالإنسان يريد أن يخلد ويكره الموت .. يريد أن يحيا بلا نهاية ؛ ولذلك كان مدخل إبليس اللعين أن قال لهما – لآدم وحواء – : إذا أكلتما من هذه الشجرة ستصبحان ملكيْن خالديْن .

ولأمر قدره اللّٰه تعالى دخلت الغفلة على قلبى آدم وحواء لأنه لو كان هذا صحيحاً لأكل الشيطان من الشجرة و أصبح خالداً ولم يقل للّٰه : ﴿ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وكان مما خدع آدم وحواء أن أقسم باللّٰه كذباً ، قال تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

فكأن إبليس قد أقسم لآدم وحواء ليصدقاه . أى أن ما أقوله لكما هو نصح لخيركما وكان لابد ألاتكون هناك غفلة من آدم فينخدع لهذا القسم لأن اللّٰه

أمره ألا يقرب هذه الشجرة فإذا جاء إبليس وأغراه بمخالفة أمر اللّه فلا يأخذ هذا على أنه نُصح لصالحه إنما يقارن بين الآمر هنا والذى يدعى النصيحة وحينئذ سيكتشف أن هذه ليست نصيحة ويكتشف أنها تزيين لمعصية .

○○○

كفـــر إبليس

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] . هذا القول دليل على أن أمر السجود يشمل إبليس . فجاء الرد من إبليس : كبراً ومعانده لأن اللّٰه هو الذى خلق ، وهو سبحانه وتعالى الذى يعرف من هو خير ممن . ولكن إبليس أراد أن يعدل الأمر على اللّٰه ويرد الأمر على الخالق بينما هو مخلوق فكأنه والعياذ باللّٰه يخطىء سبحانه وتعالى فى أمره ويقول له كيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى . وكان لابد لإبليس أن يفهم أن النار ليست خيراً من الطين والطين ليس خيراً من النار وأن الذى يؤدى مهمته هو الأعلى .

○ ○ ○

مكان جنة آدم

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ الهبوط معناه : الإنتقال من منزلة أعلى إلى منزلة أدنى . وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك بأن الجنة التى وجد فيها آدم وإبليس كانت فى أعلى عليين ولكننا نقول : إن الهبوط لا يستدعى مكاناً أعلى ومكاناً أسفل فهناك فرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة . لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ [البقرة : ٦١] لم يكن بنو اسرائيل يعيشون فى مكان ما فى السماء بل كانوا فوق الأرض . فالهبوط هنا هبوط مكان ومكانة .

○○○

تــوبة آدم

ماذا قال آدم وحواء حينما إعترفا أمام الله بأنهما ارتكبا المعصية وخالفا أوامر الله هل أصرا على المعصية ؟ هل حاولا أن يردا الأمر على الآمر ويقولا يا ربنا حكمك ليس عدلاً كما فعل الشيطان ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ لم يفعلا ذلك ولكنهما إعترفا بذنبهما وطلبا المغفرة والرحمة من الله وقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

تلك هى الكلمات التى جاءت فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] .

وهذه الكلمات هى اعتراف بالذنب ، واعترف بأن الله حق وقوله حق ، وأنهما لم يستطيعا أن يحملا نفسيهما على إتباع المنهج فظلما نفسيهما ثم طلبا من الله المغفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين .

وهكذا تأبّى إبليس على أوامر الله فكان جزاؤه الطرد من رحمة الله ، وآدم وحواء إعترفا بذنبهما وأنهما ظلماً نفسيهما فتقبلت توبتهما ؛ لذلك فإننا ننبه الناس الذين تضطرهم ظروف حياتهم إلى اقتراف بعض المعاصى نقول لهم : لا تحاولوا أن تبرروا المعصية برد الأمر على الله وأن تقولوا : تغيرت الظروف أو هذا هو النظام الآن أو أن الوقت غير الوقت .

فمثلاً .. الذين يقولون إن الربا ليس حراماً وأنه نظام عالمى وأن الدنيا كلها تتعامل به نقول لهم : لا تخرجوا أنفسكم من منطقة رحمة الله إلى منطقة الطرد من رحمته . قولوا : نحن نسلم يا رب أنه حرام ولكننا لا نقدر على

أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا ، وفى هذه الحالة تكون قد اتهمت نفسك بالضعف والغفلة والظلم ، وتصبح أهلاً للتوبة والمغفرة ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إن الربا ليس حراماً ، هنا تكون قد خرجت من منطقة الإيمان إلى منطقة الكفر ولذلك فخيرٌ للإنسان إذا ارتكب معصية ألا يدافع عنها وألا يدعى أنها حلال بل يعترف أنها حرام ولكن الظروف اضطرته اليها وهو غير قادر على نفسه ويسارع إلى طلب المغفرة من الله تعالى ويندم على معصيته فى هذه الحالة يقبل الله توبته .

يقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

إذن .. لا وجود لواسطة بين الله وبين البشر ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم . فخطأ آدم تم تصويبه أما الخطيئة التى يرتكبها أى كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها وما فعله آدم ليس خطيئة إنما خطأ أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدس بين الناس وإثارة الوقيعة بينهم فالعقاب عنها إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

○ ○ ○

مداخل الشيطان

مداخل الشيطان التى يدخل منها الشيطان للإنسان قد بينها اللّه لنا فى القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] .

وهذه الجهات الأربع هى مداخل الشيطان فقوله : ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أى : من أمامهم ، والشىء الذى أمامنا هو ما نحن سائرون إليه ، أى : الدار الآخرة ، فيأتى الشيطان ليشككنا فى الآخرة ويقول هل تصدقون أنكم ستبعثون أو انكم ستحاسبون وما دام الإنسان قد شك فى الآخرة فهو يطلق لشهواته العنان .

وقوله : ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ فما يتركه الإنسان خلفه هو ذريته يأتى الشيطان ليخيفك على ذريتك ويقول لك : ستترك أولادك يضيعون ، اسرق وانهب وارتش وأرتكب كل ما حرمه اللّه لتترك لأولادك ما يحفظهم من الضياع ومعظم فساد الناس يأتى من هذه الناحية وتكون النتيجة أن نلقى اللّه عاصين ونترك المال الحرام لأولادنا فيفنى فى المعصية نعوذ باللّه تعالى من الشيطان وحبائله .

أما قوله : ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ فاليمين رمز العمل الحسن والعمل الصالح ولذلك يأتى لهم عن أيمانهم ليكرههم فى صالح الأعمال فى الكسب الحلال بالجد والعرق وفى الطاعات .

وقوله : ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ أى : يأتى لهم ليزين لهم طريق المعصية ويرغبهم فيها ؛

وبعض الناس يتساءل : لماذا الأَمام ، والخلف ، واليمين ، واليسار ؟! ولماذا ترك الشيطان ما فوق الرءوس وما تحت الأقدام ؟ ولقد سئل بعض الورعين عن هذا فقال لقد سمعنا أن اللّه قال : إن عبداً يرفع إليَّ يداه بالدعاء ويسجد لى على الأرض فحق عليَّ ألا أسلط عليه شيطاناً . فالمكان الأعلى هو مكان صعود الدعاء والمكان الأسفل هو مكان السجود وكلاهما لا يستطيع الشيطان أن يقترب منه .

○ ○ ○

قربان إبنى آدم

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة] .

وهنا يثور تساؤل رده فى هذه الآيات هل آدم رسول اللّه أم لا ؟ بعض الناس يقول : لا .. إن أول الرسل نوح عليه السلام . نقول لهم : وهل اللّه يترك خلقه من عهد آدم إلى عهد نوح بدون رسول ؟ وبدون منهج ؟ لماذا يبعث اللّه لخلقه بعد نوح رسولاً ؟ ولا يبعث لهم منذ عهد أدم إلى عهد نوح منهجاً ورسولاً ؟ وهو القائل جل جلاله : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤]

وذلك يعنى أنه ما دام هناك خلق فلا بد أن يكون هناك نذير .

إذن .. فولدا آدم عرفا منهج اللّه وكانا يقدمان له القرابين .. من أين عرفا هذا المنهج ؟ من أدم وعرفا كيف يتقربان إلى اللّه وكيف يبتعدان عما يوجب عقابه .

من أين كان سيأتى هذا الكلام لو لم يكن هناك رسول مبلغ عن اللّه بأن هناك ثواباً وعقاباً ؟ ومن أين عرف ابنا آدم أن اللّه يتقبل من المتقين ويعاقب الظالمين إلا إذا كان هناك منهج من اللّه نقله أدم إلى أبنائه ؟!

○○○

نبى الله إدريس عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾ [مريم] .

إدريس عليه السلام هو أول نبى بعد آدم عليه السلام ، وهو إدريس ابن برث ابن شيث بن أدم وجاء بعده من الأنبياء نوح ثم الخليل إبراهيم ومنه سلسلة النبوات بعد ذلك عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والصديق هو الذى يبالغ فى تصديق كل ما يجىء به الحق ، ويجعل الله له فرقاناً ، بحيث إذا سمع الحق يصدقه ، لأن الكلام إذا كان موافقاً للحق ومن الحق فلا يتصادم معه شيطان فى الدخول على العقل ، فالشيطان يدخل بين الناس ولكن الشىء الوارد من الحق سبحانه لايستطيع الشيطان أن يدخل فيه .

ومعنى ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ يقصد به مكاناً فى السماء ، أو رفعة معنوية ، أو حسية لأن الذى خلقه أخبرنا بذلك ، فإياك أن تسأل عن ماهية الرفعة لأن هذه الرفعة رفعة عند من رفعه سبحانه وتعالى(١) .

---

(١) وفى حديث أبى ذر الطويل الذى صححه إبن حبان أن إدريس كان نبياً رسولاً وأنه أول من خط بالقلم . وحكى ابن الأزهر عن وهب بن منبه ، أن إدريس أول من أتخذ السلاح وجاهد فى سبيل الله وسبى ، ولبس الثياب وإنما كانوا يلبسون الجلود ، وأول من وضع الأوزان والكيول وأقام علم النجوم ، والله أعلم .

روى فى الصحيح أن النبى ﷺ مر به فى ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة : « ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بإدريس وقد رفعه الله مكانًا عليًا فسلمت عليه فسلم علّى » .

=

○ ○ ○

= وروى الإمام ابن جرير عن كعب أن اللّه تعالى أوحى إلى أدريس عليه السلام أنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع نبنى آدم فأحب أن يزداد عملًا ، فأتاه خليل له من الملائكة فقال له : إن اللّه أوحى إلىّ كذا وكذا فكلم لى ملك الموت فليؤخرنى حتى أزداد عملًا فحمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء فلما كان فى السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدرًا فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس فقال : وأين إدريس ؟

فقال : هو ذا على ظهرى .

قال ملك الموت : العجب بعثت لقبض روحه فى السماء الرابعة فجعلت أقول : كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول اللّه : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

وإدريس هو الجيل الخامس من آدم وهو الذى قال عنه بعض العلماء إنه «أوزوريس» الذى تحدثت عنه الأساطير الفرعونية .

ولكن نحن لا نعرف ذلك ، ولكن السير علمتنا أن أدريس هو أول من علمه اللّه أن يخيط الملابس بعد أن كانوا يسترون عوراتهم بجلود الحيوانات ، وهو أول من علمه اللّه غزل الصوف ، وأول من استخدم النجوم فى الاهتداء بها فى ظلام الليل ، كما أنه أول من خط بالقلم هذه الأشياء كلها تسمى أوليات إدريس .

نبى الله نوح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس : ٧١] والنبأ هو الخبر الهام الذى يلفت العقل وليس مجرد الخبر ، قوله تعالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ ﴾ إذن .. فكان هناك قوم وهؤلاء القوم ابتعدوا عن منهج الله ، وضلوا وجاء نوح عليه السلام ليعيدهم إلى المنهج الحق مره أخرى وإلى عبادة الله ، وكلمة : ﴿ لِقَوْمِهِۦ ﴾ القوم لا تطلق فى اللغه إلا على الرجال ، لأنهم أهل القيام على الأشياء الذين تعتمد عليهم حركة الحياة ، لأن المرأة مبنية على الستر والقرآن الكريم يوضح لنا هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] . فالرجال هم المواجهون بالرسالات السماويه والمرأة محتجبة مستترة تسمع إما من أبيها وإما من أخيها وإما من زوجها .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] تأتى هذه الآية بأحكام ثلاثة متعاقبة وهى : أنه لا إله إلا الله ، وما دام لا إله إلا الله ، ولا إله غيره فهو واجب العبادة ، وعبادته تكون فى طاعة ما أمر به واجتناب ما نهى عنه فإن لم نفعل فهناك عذاب عظيم . من هذه الأحكام الثلاثة الذى يفزع ؛ وأول من يتصدى لمثل هذه الدعوات : الطغاة والجبابرة لأن لهم السيادة ، والباقون عبيد يطيعون أوامرهم . فإذا جاء هذا الدين ليسوى بينهم فى عبادة إله واحد ، تجدهم أول من يفزع لذلك .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] والملأ هم سادة قومه وأشرافهم هؤلاء خافوا على هيبتهم وعلى سلطانهم فماذا يفعلون ؟ قلبوا الميزان وقالوا عن منهج الحق أنه ﴿ ضَلَٰلٍ ﴾ غير الحق ، وقوله : ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أى محيط بحيث لا تستطيع أن تبتعد ولا أن تفلت منه . ماذا قال نوح عليه السلام لقومه ؟ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ ولم يرد نوح بقوله ليس بى ضلال فهم يقولون لنوح : أنت ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فيرد عليهم : ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ [الأعراف : ٦١] لماذا ؟ لأن الضلال يشمل ضلالات كثيرة .

فهو ينفى مجرد وجود ضلاله واحده عنده ونفى الأقل يعنى نفى الأكثر . وهذا النفى القاطع فى قوله : ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ أن منهج الله لم يأتى به نوح من عنده فالله سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج ، وما دام المنهج من عند الله فلا يمكن أن تكون فيه ضلاله واحده ولا شبهة ضلاله وحيثيات ذلك ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فنوح رسول ، وما دام رسول فهو مبلغ عن الله والله منهجه هو الهدى .

وتأكيدًا لأن نوح عليه السلام مبلغ عن ربه حدد مهمته فى قوله : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] ومعنى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ أى : أنهى إليكم ما حملنى الحق سبحانه وتعالى من منهج هداية لحركة حياتكم .

أما قوله : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ فذلك إستكمال لبلاغ كل رسول ، فالبلاغ يقتضى أن يبلغ الرسول قومه بمنهج الله ومطلوبه منهم ، ثم بعد ذلك ينصحهم أن يعملوا بهذا المنهج لينالوا رضا الله وينجوا من عذابه ، والنصح : أن تبين للإنسان المصلحه فى العمل وتبين نيتك أمامه بأنها نية حسنة ،

وعندما تنصح إنساناً بأن يفعل كذا ، فإنك إما أن تنصحه بعمل يعود نفعه عليك أو يعود النفع عليه هو ، فإذا كانت النصيحه بأمر يعود عليك فهى لا تخلو من الغرض وإذا كانت النصيحه فى أمر يعود عليه هو بالنفع ، ففى هذه الحاله تكون نصيحه خالصه بنية صادقه ، ولذلك لم يقل نوح : « أنصحكم » ولكن قال : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ ليبين أن هذه النصيحه لصالح القوم ، وأنه كرسول لا يستفيد منها شيئاً ، فما دام قد بلغ فهو قد أدى الأمانه ، ولكن النصيحه زيادة فى هداية الناس إلى الطريق المستقيم وترغيبهم فيه .

ثم يبين لهم حيثيات النصح فقال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : أن نوحاً عليه السلام يقول لقومه : إننى أعلم من اللّه أشياء لا تعلمونها ، ولذلك فخوفى عليكم مما ينتظركم من اللّه لأنكم كفرتم بآياته قد جعلنى أنصحكم ، ليست نصيحة أداء واجب ، ولكنها نصيحة من يعلم مما علمه اللّه سبحانه وتعالى . والمقصود بقوله هنا : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أن اللّه أعلم نوحاً بالطوفان الذى سيأخذ به الكفار والمكذبين من قومه .

ثم يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٣] وهنا نقف عند قوله سبحانه : ﴿ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فالذكر فى القرآن له معان كثيرة وعلى قمة هذه المعانى أن الذكر يراد به القرآن وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقوله جل جلاله : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] . إذن .. فالذكر يطلق ويراد به القرآن ، ويطلق أيضاً فيراد به الشهرة والشرف العظيم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤]

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

أى فيه شرفكم وهذا الشرف للعرب لأن القرآن نزل باللغة العربية وسيظل باللغة العربية فالشرف يأتى من إنتساب هؤلاء الناس للأمة التى نزل فيها القرآن واللغه التى نزل بها القرآن . ويطلق الذكر أيضاً على ما أنزل على جميع الرسل من منهج الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] ويقول جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ومرة يطلق الذكر ويراد به الاعتبار والتذكير والتذكر ، وفى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ [المائدة : ٩١] ومرة يراد بالذكر التسبيح والتحميد فى قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ ﴾ [النور] .

هذه أنواع الذكر فى القرآن الكريم فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٣] فأى معانى الذكر فيها وجه العجب ، إن العجب هو إظهار الدهشة من حدوث شيء على غير ما تقتضيه مقدمات الأمور حينئذ تتعجب كيف حدث هذا ؟ ولكن إذا كانت الأمور تسير بطريقة منطقية بمعنى : أن المقدمات تدل على النتائج فلا توجد دهشة ولا يوجد عجب ، لذلك إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] إن قول هؤلاء الناس فيه غباء ، لأن كون الرسول بشر فإن ذلك أدعى للتصديق والإيمان ، فالرسول بشر منكم تعرفون ماضيه قبل أن يكلف بالرساله ، فلو كان له إنحرافات قبل أن يكلف بالرساله لما جرؤ أن ينهاكم عن شيء يستحله لنفسه ، ولذلك فلابد أن يكون الرسول معروفاً بالاستقامة والسلوك الحسن عند قومه قبل أن يكلف بالرسالة ، فإذا كان لم يكذب فى أمور الدنيا ولم يكذب على خلق اللّٰه ، أيكذب على اللّٰه ؟ ثم الرسول قدوة فهو مطبق للمنهج بقدرات البشر حتى لا يدعى أحد أن المنهج فوق طاقة البشر وأن اللّٰه كلفنا فوق ما نطيق .

الحق سبحانه يقول : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٣] .

إذن .. فمهمة الرسول ثلاث مراحل :

الإنذار .. وهو إخبار بما هو قادم حتى تستعد له .

والبشاره .. وهى إخبار بشيء سار لم يأت زمنه بعد ، حتى يجند الإنسان كل قوته للحصول على هذا الشيء السار الذى بشر به الرسول ، أى أن مهمة الرسول أن ينبهنا لنتقى الشر ونأخذ الخير ثم بعد ذلك يرشدنا إلى التقوى التى تؤدى بنا إلى الرحمة . إذن .. فهناك إنذار يؤدى إلى التقوى ، وتقوى تؤدى إلى الرحمة .

أى إن مهمة الرسول ثلاث مراحل : فهو ينذر هذه هى المرحلة الأولى . والنفوس تتقى هذه هى المرحلة الثانية والتقوى تأتى برحمة اللّٰه فى الدنيا والآخرة هذه هى المرحلة الثالثة .

ولكن القوم كذبوا نوح ورفضوا الإيمان معه ، قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الأعراف : ٦٤] والحق لم يتكلم فى هذه الآية عن مراحل الإنجاء وكيف أن نوحاً تعلم النجارة وصنع السفينة وكيف أن قومه كانوا يسخرون منه وهو يصنع السفينه ثم الطوفان الذى حدث ، كل هذا لم يأت فى هذه الآية وإن كان قد جاء فى سور أخرى ، ولكن الحق أعطانا النتيجه مرة واحدة دون الدخول فى تفاصيل ؛ قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [الأعراف : ٦٤] وكان هذا الأغراق هو أول عقوبة حدثت فى تاريخ الرسالات . ذلك أن نوحاً كان أول رسول تعرض لمثل هذا التكذيب والعناء ، وكان اللّه سبحانه فى بدء الأمر هو الذى يتولى تأديب الكافرين ، فكان الرسل عليهم البلاغ فقط وليس عليهم أن يدخلوا فى أى نوع من التأديب كالحروب مثلاً أو غيرها ، ولكن عندما أرسل اللّه محمداً ﷺ كانت الإنسانية قد بلغت رشدها ، وعهد اللّه تعالى إلى محمد ﷺ وأمته من بعده أن يقوموا بنشر رسالة اللّه .

فى هذه الآية لم يخبرنا الحق سبحانه مِنْ ماذا أنجى نوحاً ولا كيف أغرق الكافرين بالطوفان ، ولكنه سبحانه وتعالى أعطانا حيثية الإغراق فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ . ومعنى : ﴿ عَمِينَ ﴾ هناك أعمى ، وهناك عمى ، فأعمى للبصر ، وعمى للبصيرة ، أى إنهم كانوا قوماً قد عميت بصيرتهم فلم يروا الحق رغم طول المدة التى قضاها نوح بينهم يعظهم ويدعوهم إلى منهج اللّه !

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

قوم نوح كذبوا نوحاً فقط ، فلماذا قال تعالى إنهم كذبوا المرسلين ؟ قالوا لأن رسل الله جميعاً إنما جاءوا بأصول ثابتة تتصل بالعقيدة والأخلاق لا تتغير من رسول إلى رسول . فالأخلاق والعقائد وأصول الأحكام كلها أمور ثابتة ، فمن كذب رسولاً ، فقد كذب كل الرسل ولذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] والإختلاف فى مناهج الرسل هو اختلاف فى التشريعات التى تقتضيها تطورات المجتمعات ، لكن العقيدة والأخلاق وأصول الأحكام أمور ثابته لا تتغير فالذى يكذب رسولاً فى هذه الأشياء كأنه كذب كل الرسل .

وكلمة : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ معناها : أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهم يعرفون نشأته وسلوكه وأخلاقه فإذا كان الرسول جاء إلى قومه وهو واحد منهم يعرفون ماضيه وسيرته فيهم وإستقامته بينهم ، كان يجب عليهم أن يسمعوا له ويعطوا عقولهم فرصة أن تسمع وتفهم ما يدعوهم إليه بعيداً عن الهوى لأن الذى يتعب الناس فى استقبال الحق أن جوفهم وقلبهم مشغول بالباطل وما دام القلب مشغولاً بالباطل فلا يمكن للحق أن يدخله . فأنت قبل أن تُدخل الحق إلى القلب لا بد أن تُخرج منه الهوى والزيغ . فكلمة : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ جاءت لتحنن قلوبهم وتعرفهم أن لهم به ماضياً يعرفونه ، ويعرفون أخلاقه وسلوكه ، وهذا أدعى أن يؤمنوا به ويصدقوه .

وقوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ معناها : اتقوا الله ، مثلما تقول لإبنك المهمل : ألا تستذكر ، معناها : استذكر وهذا الأسلوب من الحض على الفعل ، مثل :

لولا تكرم أباك ، ألا تستقبل أخاك بالبشاشه ، كل هذه أساليب تحث على فعل الشيء .

إذن .. معنى : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أنكر عليكم أن تكونوا غير متقين ، لذا أطلب منكم أن تتقوا اللّٰه . وقول الرسول لقومه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١١٠] هو طاعة للّٰه وليست طاعة ذاتية للرسول ، ولكن يطيعونه لأنه رسول من عند اللّٰه ، وطاعته من طاعة اللّٰه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٠] كلمة : ﴿ أَجْرِيَ ﴾ الأجر هو : ثمن المنفعة ، والأثمان عادة إما تكون ثمناً لعين وإما ثمناً لمنفعة ، كأن يكون إنسان يملك بيتاً وأنت تريد أن تشتريه .

إذن .. فأنت تشترى العين . ولنفرض أن إنساناً لا يريد أن يبيعه فتستأجره فأنت أخذت حق الإنتفاع مقابل ما تدفعه من مال وهو الإيجار والإنسان حين يأخذ أو يدفع أجراً فإنه يفعل ذلك طلباً للمنفعة ومنفعة ملحة .

نبى اللّٰه نوح عليه السلام جاء بمنهج الحق ، واتباع المنهج هو منفعة لمن يؤمن وليس منفعة للّٰه ، فاللّٰه غنى عن العالمين ومنهجه جل جلاله منفعة لمن يؤمن به ، وما دام نوح عليه السلام يهدى قومه إلى الحق فهو يهديهم إلى ما ينفعهم ، ولذلك كان المفروض أن يأخذ أجراً منهم على هذه الهداية ما دام يقدم لهم النفع ولكن نوحاً عليه السلام يلفتهم إلى أنه لا يطلب منهم أجراً ، وإن كان يجب أن يكون هناك أجر على الدعوة فإن الأجر ليس منهم ، ولكن من اللّٰه سبحانه وتعالى .

ومن العجيب أنك تجد فى كل مواكب الرسل حين تخاطب أقوامها تخاطبهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ إلا فى قصتى إبراهيم

وموسى عليهما السلام ، يقول الحق سبحانه فى سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ أى أنهما دخلا فى موضوع الرسالة ولم يقولا : « ولا نسألكم عليه أجراً » .

وفى قصة إبراهيم عليه السلام يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء] لم يرد كذلك فى قصة إبراهيم : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ .

ولكن لو استعرضنا قصص الأنبياء غير إبراهيم وموسى صلوات الله وسلامه على الجميع ؛ نجد أن قوله : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ وردت فى كل قصص الأنبياء .

ففى قصة نبى الله نوح عليه السلام ورد قول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] .

وفى قصة نبى الله هود عليه السلام ، ورد قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

وفى قصة نبى اللّه صالح عليه السلام ورد قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الشعراء] .

وفى قصة نبى اللّه شعيب عليه السلام ، ورد قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

إذن .. كل رسول من رسل اللّه تعالى قال لقومه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عدا نبى اللّه إبراهيم ونبى اللّه موسى عليهما السلام ، ومن هنا كان يجب على الناس أن يفهموا أن الرسل حين يبلغون رسالة اللّه إلى الأرض فإنهم يقدمون منفعة للناس يستحقون عليها أجراً وأجرًا كبيرًا ، ولكنهم يريدون الأجر من اللّه لأنه هو الذى يعطى ويجزل العطاء وعطاؤه سبحانه بلا حدود .

لكن لماذا جاءت هذه الآية الكريمة فى قصص كل الرسل ما عدا قصة إبراهيم وموسى عليهم جميعًا صلوات اللّه وسلامه ؟ لأنك حين تأخذ أجراً على منفعة تقدمها لغيرك فلابد ألا يكون للغير معك منفعة ، ولنفرض مثلاً أنك تتعامل مع أحد التجار ، تبيعه أشياء ويبيعك أشياء ، المنفعة هنا متبادلة

فلا يوجد أجر . بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ، هو أول من دعا للإيمان فدعا عمه ، وعمه شارك فى تربيته ، أيمكن أن يقول إنه يريد أجراً على هذه الدعوة ؟ لا يمكن أن يقول ذلك لأن هناك منفعة متبادلة ، وموسى رباه فرعون حتى إن فرعون عيره بهذه المسألة وقال كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨] وهذا من وجهة نظرنا ؛ والله تعالى أعلم سبب فى عدم ورود طلب الأجر فى قصتى إبراهيم وموسى عليهما السلام .

ولذلك يعجب الله من الكفار حين دعاهم رسوله ﷺ للإيمان فلم يؤمنوا ، قال تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : ٤٠] ومعنى ذلك : هل طلبت منهم أجراً على الإيمان فلم يجدوا ما يدفعونه ، ولذلك لم يؤمنوا ؟ أجر الرسول على الله ؛ لأنه هو الذى يستطيع أن يكافىء على هذا العمل .

بعد أن خاطب نبى الله نوح عليه السلام قومه ودعاهم إلى طاعة الله ، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم أجراً ، ماذا كان ردهم عليه ؟ : ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] الأرذلون جمع رذل : والرذل هو الردىء من الشىء . فهم يقولون له كيف نؤمن بك وقد أتبعك ضعاف الناس وفقراؤهم ؟ وفى أية أخرى قالوا له : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] وهم يقصدون بالأراذل ، الناس الفقراء الضعفاء الذين لا يؤبه لهم ، وهؤلاء دائماً هم جنود الرسالة فى البداية لأنهم المطحونون من المجتمع الفاسد فيكونون متلهفين على واحد يأتى ليعدل موازين المجتمع .

وانظروا إلى عدم فهم القوم لدعوة نبى الله نوح عليه السلام حيث قالوا له : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ مع إنه يدعوهم إلى الإيمان بالله وليس به هو لأنه مجرد رسول

يحمل منهج اللّه ودعوته ، وقد يكون معنى ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ بمعنى نصدقك ، لأن كلمة « آمن » تستخدم فى معان متعددة مثل : ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٤] وقوله : ﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] بمعنى : صدقه ، قال تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس : ٨٣] وفى سورة يوسف يقول القرآن على لسان نبى اللّه يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : ٦٤] وإخوة يوسف حينما سألوا أباهم قالوا : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ [يوسف : ١١] .

قول اللّه تعالى : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] دلالة على عظمة هذا الدين والتى تكمن فى هذه النقطة بالذات . لأنه لو انتصر دين بأصحاب النفوذ والجاه والسلطان لقالوا : اعتمد الدين على نفوذ الدنيا ، ولو كان الدين قد نزل على هؤلاء الذين لهم النفوذ والسلطان فى الأرض لاعتنق الناس الدين نفاقاً وتقرباً لأصحاب النفوذ وليس تقرباً إلى اللّه ولكان الدين اتبع نفوذ هؤلاء الناس ، فإذا زاد نفوذهم ضاع دين اللّه فى الأرض ، ولكن الحق يريد قلوباً تتحمل المشقة لأنها تحب اللّه ، قلوباً تتحمل الاضطهاد والإيذاء طلباً لرضا اللّه ، قلوباً لا تطلب جاه الدنيا ولكنها تطلب حب اللّه فى الآخرة ، وهذا لا يأتى أبداً من الذى يؤمن بدين اللّه نفاقاً وطمعاً فى أن يكون قريب من أصحاب النفوذ والجاه ، ولا يتم مراد اللّه إلا إذا كان الإيمان باللّه خالصًا له سبحانه .

نبى اللّه نوح عليه السلام رد عليهم قائلًا : ﴿ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الشعراء] .

أى أن الإيمان لا دخل له بالغنى والفقر والقوة والضعف لأن الإيمان سلوك وعمل . وربنا هو الذى يحاسب الناس على أعمالهم وما دام الحساب أمر يختص به اللّه وهؤلاء عجلوا بالإيمان فلابد أن اللّه سيجزيهم خير الجزاء ، كما أننى لا يمكن أن أطرد المؤمنين باللّه لأنى نذير من عند اللّه ؛ ومهمة النذير هى البلاغ عمن أرسله لا طرد الذين آمنوا به .

نفس هذا الموقف طلبه الكفار من الرسول ﷺ فنزل عليه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

إجابة نوح عليه السلام لم تعجب كفار قومه ، فما كان منهم إلا أن : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] أى : أنه لا فائده من الكلام معك يا نوح ولكن هذا إنذار لك : لئن لم تنته عما تدعيه من دعوتك إلى عبادة اللّه وتقريبك للأراذل من الناس لنرجمنك . وهذا التهديد يعنى أنهم قوم أقوياء لهم بطش وجبروت وطغيان . ولكن ماذا يفعل نوح عليه السلام ؟ لابد أن يلجأ إلى ربه وقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ انظر إلى أدب النبوة ، إنه شكا لربه من تكذيبهم ولم يشك من تهديدهم له بالرجم لأن ما يهمه هو دعوته ، وأن يصدقه قومه ويؤمنوا بما جاء به .

والفتح : إما أن يكون حسياً أو معنوياً قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ فهذا فتح حسى بإزالة الرباط الموجود على البضاعة .

وقد يكون الفتح معنوياً مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ومثل قوله : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر : ٢] فالفتح هنا بمعنى الخير .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٦] الفتح هنا بمعنى علمكم من علم لم يعلموه .

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم مثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

وقول نوح عليه السلام هنا : ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٩] معناه يارب احكم بينى وبينهم ونجنى أنا والمؤمنين معى من كيدهم ، فاستجاب اللّٰه دعاءه ونجاه من شرهم ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الشعراء] .

والفلك : السفينة التى صنعها نوح . فاللّٰه أمره بصنع السفينه وأرشده إلى طريقة صنعها . ويبدو أن صناعة الفلك لم تكن معروفه للناس فى ذلك الزمان بدليل أنهم كانوا يسخرون من نوح كلما مروا عليه وهو يقوم بصناعتها ، قال تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ تدل على أن نوحاً عليه السلام كان معه عدد كبير من الأتباع لأن السفينه ما دامت مشحونه فهذا يعنى أنها كانت مكتظة بالناس وغيرهم من الأنواع الأخرى من الحيوانات والطيور وغيرها .

○ ○ ○

وقال الحق تعالى : ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ والصنعة هى التى توجد من موجود . فالإنسان يوجد أشياء من موجود ، والله وحده هو الذى يوجد من عدم . فالحق سبحانه ألهم نوحاً بوحيه كيف يصنع السفينه ، وعلمه كيفية صناعتها .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَحۡيِنَا ﴾ أى : أن نوحاً وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة السفن ولكن الله هو الذى أوحى إلى نوح بكيفية صناعة السفينه أى ألقى فى قلبه وفى عقله الخواطر التى تتيح له حسن صناعة السفينه بوحى منه سبحانه وعلم بدليل .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ ﴾ [هود:٣٨] قالوا بعد أن كان نبياً أصبح نجاراً ولو كان نبياً حقاً ما لجأ إلى هذا ، لقد قالوا إن هذه السفينه بعيدة عن البحر فكيف سينقلها ؟ ولم يعرفوا أن الماء هو الذى سيأتيها وهو الذى سيرفعها ، لم يعرفوا أن طوفاناً قادماً وأنهم مغرقون . ولذلك سخر منه كبار قومه الذين لم يؤمنوا به ولم يدركوا قوله تعالى : ﴿ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [هود : ٣٩] أى أنكم لا تعرفون سر بناء السفينه الآن ولكنكم ستعرفونها فى المستقبل ، وستعلمون ﴿ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٩] .

إذن .. الطوفان الذى سيأتى سيخزى هؤلاء الكفار لأنهم كانوا يسخرون يقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

وقوله : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يعنى : عذاب دائم لا يتركهم أبداً يقيم معهم إقامة دائمة ، فهو معهم كل الوقت لا يستطيعون دفعه ولا الفرار منه .

نبى اللّه نوح عليه السلام ظل يدعو قومه ألف سنه إلا خمسين عاماً فاعتقدوا أن المسأله كلام فقط وأن العذاب لن يأتيهم وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب ، ولكن العذاب ليس فى يد نبى اللّه نوح عليه السلام فالذى يأتى بالعذاب والذى يمنع العذاب هو اللّه تبارك وتعالى ؛ ولذلك كان قول نوح لهم : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ [هود : ٣٣] ، فاللّه تعالى لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما يريد .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى : لن تعجزوا اللّه ولن تفلتوامنه أبداً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] والكلام هنا لنوح ، والمعنى : إن كان اللّه يريد أن يغويكم فلا ينفع نصحى .

قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ هل اللّه يغوى ؟ إن اللّه يهدى ! أقول : إن معنى « غوى » أى : تاه وضل عن الطريق . واللّه لا يغوى أحداً فأنت لا تسلك طريق الغواية رغماً عن إرادة اللّه ولكنك تسلكه لأن اللّه خلقك مختاراً وهو يهديك إلى الطريق المستقيم أى يبينه لك ويقول هذا هو الطريق المستقيم ويرغبك فى جنته وينذرك بعذابه ثم بعد ذلك يتركك للإختيار الذى وهبه لك فأنت إما أن تختار طريق الهداية ، أو ترغب عنه إلى الغوايه والعياذ باللّه .

وبعد الجهد الجهيد والعمل الدءوب المتواصل لدعوة قومه سرًا وجهرًا ، ترغيبًا وترهيبًا لم يؤمن مع نوح عليه السلام إلا عدد قليل ، أوحى اللَّه تعالى إلى نبيه نوح عليه السلام : ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ فبعد ما يزيد على تسعمائة عاماً من الدعوة ووصل الجدل والعناد من قوم نوح مداه قال اللَّه تعالى لنوح عليه السلام : انتهت مهمتك فمهما فعلت ومهما دعوت فلم يؤمن لك إلا الذين أعلنوا إيمانهم فعلاً . فقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ ﴿ إِلَّا ﴾ هنا معناها : غير ، فيكون المعنى : لن يؤمن معك غير الذى قد آمن من قبل .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] أى لا تحزن عليهم بعد هذه السنوات الطويله التى قضيتها معهم دون أن يسلكوا طريق الإيمان .

○ ○ ○

الطوفان .. دعوة نوح على قومه

بعد أن يئس نبى اللّه نوح عليه السلام من قومه وإعلامه من اللّه تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن ، دعا عليهم قائلًا : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ ﴾ [نوح] .

الحق تبارك وتعالى استجاب لدعاء نبيه ، وضرب له موعدًا بعلامة ، فإذا جاء وعد اللّه تعالى يحمل نوح فى السفينة المؤمنين به ، ومن كل زوج اثنين ضمانًا لاستمرار الحياة ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ تعنى : اثنين ولكنهما متماثلان ؛ فالزوج يطلق على الفرد بشرط أن يكون له شريك يماثله ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة : ٣٩] أى : أن الأنثى زوج والذكر زوج وهما معاً زوجان اثنان . واللّه أراد بذلك إستبقاء الحياة على الأرض وليس هلاكها ولذلك طلب من كل زوجين اثنين لينجيهم بالسفينه من الغرق .

قول الحق تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود : ٤٠] ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ تدل على الغاية ، ﴿ أَمْرُنَا ﴾ أى : الطوفان الذى سيأتيهم ، ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ « فار » يعنى : غلى ، مثلما يقال : الماء فار ، أى : غلى . والغليان هو : أعلى سخونه للماء ، وخروج الماء من التنور أو المخبز معناه : أن الماء يخرج من مكان لا يتوقع خروجه منه ، والتنور أو المخبز هو مكان تشتد فيه الحرارة وتوقد فيه

النار للخبيز وكانت هذه هى العلامة التى أوحى بها اللّٰه إلى نوح عليه السلام ، فعندما يبدأ خروج الماء من المخبز يسرع نوح والذين آمنوا معه ليركبوا السفينة التى صنعها نوح عليه السلام بأمر اللّٰه ، لتجرى بهم بسم اللّٰه ، إلى ما قدره لهم اللّٰه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : ٤١] .

قوله : ﴿ ٱرْكَبُوا۟ ﴾ الركوب هو : أن يكون الراكب مستعلياً على ما يركبه . والحق قال : ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا ﴾ ولم يقل : « أركبوا عليها » ، فالحق سبحانه يلفتنا إلى أن السفينه لم تصنع بطريقة بدائيه على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها ، ولكنها مصنوعه بأحدث نظام لصناعه السفن الآن . لذلك فإنهم يركبون فيها لا يركبون عليها .

وقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ فالذين سيركبون هذه السفينه سبب ركوبهم أنهم آمنوا باللّٰه ، لأن السفينه : للّٰه أمر ، وللرسول صناعة . وكل هذا من اللّٰه . لذلك علمنا اللّٰه أن نستعين به سبحانه وتعالى . وإياك أن تتهيب أن تستعين باللّٰه لأن لك معاصى فاللّٰه سبحانه وتعالى رحمٰن رحيم ، وقد نجى سبحانه من هم فى السفينه لأنه غفور رحيم .

فالذين آمنوا مع نوح عليه السلام ليسوا ملائكة ، بل هم بشر ، منهم من أخطأ واستغفر أو من أذنب وتاب أو من آمن ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة ، واللّٰه تعالى لأنه : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ غفر لهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة التى ارتكبوها ولم يأخذهم بذنوبهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود : ٤٢] تدلنا على أنها مسيرة بقدرة اللّه سبحانه وتعالى . لذلك فإن هذه الأمواج التى وصفها اللّه أنها فى علوها وضخامتها كالجبال ، هذه الجبال لا تضرها شيئًا لأنها تسير بأمر اللّه وعلى هدى من اللّه تبارك وتعالى .

○ ○ ○

لا عاصم من أمر الله

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود : ٤٢] انظر إلى عاطفة الأبوة عندما دخل في السفينة الذين آمنوا ، وأهل نوح ، ومن كل زوجين اثنين ، ولحظ نوح ابنه خارج السفينة ، فناداه وقال له : ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ نصيحة أب يحاول أن ينجي ابنه من الموت ، لكن الكفر الذى ملأ قلب ابن نوح أعماه عن الحقيقه فبدلاً من أن يلبى الدعوة ؛ قال : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود : ٤٣] ظن ابن نوح أن هناك قوة يمكن أن تنجيه من أمر الله ! وهيهات .. فالله غالب على أمره ، ولكن النبى الأب ظل يرغب ابنه ويرشده إلى طريق النجاة الوحيد قائلًا له : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ ، أى : لا تعتقد يا بنى أن هناك شىء فى الكون يمكن أن ينجيك من أمر الله لأن كل ما فى الكون خاضع لإرادة الله قهراً . و ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ .

وهكذا تم الأمر على مراد الله استجابة لدعاء نبى الله ، وأغرق الكافرين جميعاً بما فيهم ابن نوح الذى رفض الإيمان وكما كانت البداية أمرًا من الله تعالى ، كانت النهاية أمرًا من الله سبحانه ، فقال تعالى للأرض : ﴿ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ ، وللسماء ﴿ أَقْلِعِى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ أى : خذى الماء من السطح إلى جوفك ، ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ أى : أمتنعى عن المطر .

ثم يقول جل جلاله : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ قضى أمر الله في إهلاك الكافرين ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ أى استوت السفينه على الجبل ، والجودى هذا جبل قرب الموصل ناحية الكوفة فى العراق .

○○○

بعدًا للقوم الظالمين

قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أى : أن القوم الظالمين فى ذلك الوقت ابتعدوا بعداً نهائياً عن الإفساد فى الأرض ، فهم قد أُغرقوا بالطوفان ، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون فقط .

لما فتحت أبواب السماء وفجرت عيون الأرض ، وفار التنور ، والتقى الماء على أمر قد قدر ، وسارع نوح وأهله والمؤمنون معه إلى داخل السفينة وأبى ابنه الركوب معهم ، ولما تيقن نبى اللّٰه أن ابنه سيغرق لا محالة ، توجه إلى اللّٰه عز وجل سائلًا إياه أن ينجى ابنه الذى هو من أهله ، وكان اللّٰه تعالى وعده بالنجاة فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود : ٤٥] فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ : لفته من الحق سبحانه إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ؛ وإنما أهلية المنهج والاتباع .

إذن .. البنوة بالنسبة للأنبياء بنوة اتباع وليست بنوة نسب .

اللّٰه تعالى أعطى حيثية ذلك فقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ كأن أهل النبى هم الذين يتبعون منهجه ، ويعملون صالحاً ، وما دام ابن نوح لم يعمل صالحاً ، بل كفر باللّٰه تعالى ولم يتبع منهجه فهو ليس من أهل نوح .

ثم قال الحق جل جلاله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، أى : فكر جيداً قبل أن تسأل هذا السؤال .

وحين سمع نبى اللّه نوح عليه السلام بهذا الخطاب من اللّه انزعج وخشى أن يكون أغضب اللّه بهذا القول فبادر قائلًا : ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] استعاذ نوح باللّه سبحانه وتعالى من سؤاله نجاة ابنه لأنه لم يكن يعرف أن أهل النبى هم أتباعه ، وقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ : هذا اعتراف من نوح أن ما قاله هفوة ما كان يصح أن تكون ، والآية الكريمة معناها : يا رب إنى أستعيذك أن تجعلنى أسألك بغير علم ؛ فامنعنى يا رب بقدرتك من أن أسأل مالا أعلم .

وبعد أن تم الأمر وفق ما شاء اللّه تعالى ، وامتنعت السماء عن ارسال المطر ، وابتلعت الأرض الماء ، وهلك الكافرون صدر الأمر الإلهى لبنى اللّه نوح أن : ﴿ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ [هود : ٤٧] .

قوله تعالى : ﴿ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ ﴾ أى : انزل من السفينه لتباشر مهمتك فى الدعوة إلى اللّه تعالى وعمارة الأرض أنت ومن معك .

وقوله تعالى : ﴿ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا ﴾ بأمن واطمئنان ، لأنه لا يوجد على الأرض إلا المؤمنون ولم يعد هناك من الكافرين من ينغص عليك أمرك .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَكَٰتٍ ﴾ أى أن البركة ستكون لك فى العطاء ، لأن معنى البركة : أن يعطى الشيء أكثر مما هو متوقع منه ، ونوح معه من كل زوجين إثنين سيتكاثرون بسرعة ويملأون المكان .

ooo

امرأة نوح

يقول الحق سبحانه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] ليس المقصود بالخيانه فعل الفاحشة فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء ولكن ذلك لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولاً ليس له من القدرة على أن يقهر المرأة فى العقيدة حتى وإن ادعى الألوهية كفرعون ، فها هى امرأة فرعون تدعو الله تعالى قائلة : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التحريم : ١١] هذه اللقطات هى التى تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج . والحق لا يحب الإنسان لذاته ولكن لعمله الصالح لذلك قال : ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] .

○ ○ ○

نحن ذرية من كانوا مع نوح

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسرا : ٣] إن بقاءكم الآن من بقاء آبائكم وهذا البقاء راجع إلى الذرية التى كانت مع نوح حين نجاهم الله من الغرق فى الطوفان فكأنه يمن عليهم بهذه النعمة . كما تبين الآية الكريمة أن الله أكرم ذرية نوح لأنه كان عبداً شكوراً .

إذن .. فالعمل الصالح ينفع الذرية فكأنه يقول لهم إنه سيكرم ذرية نوح لأنه كان عبداً شكوراً .

فإذا كنت تخشى على أولادك من بعدك فاتركهم للذى لا يضعف ولا يموت قال تعالى ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] .

فصلاح الآباء ينفع الأبناء ، لذا يقول الحق : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فمن تكريم الله للآباء الصالحين أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة مع عدم إنقاص أجر عمل الآباء .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كان من شكره لا يتناول شيئاً من مقومات حياته ومن ترفها إلا حمد الله عليه فيحمده فى الأكل والشرب والكسوة وعند ركوب الدابة وفى كل شىء . فما أكثر ما غفل الإنسان عن حمد الله فى نعمه .

فالحمد لله على كل نعمة أنعمت بها عليَّ يارب ونسيت أن أحمدك عليها . والحمد لله فى نعمة أنعمت بها على عبد ولم يحمدك عليها .

والشكر دائماً شكر للمنعم وللمعطى وثناء عليه ولكنه تجارة للشاكر أيضاً لأن الحق يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] فربنا ليس محتاجاً لشكر خلقه ولكن خلقه محتاجون إليه وهناك شاكر وشكور وصابر وصبور فالشاكر يشكر مرة أما الشكور فهو الذى يداوم على الشكر .

○ ○ ○

نبى الله هود عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود : ٥٠] .

رسول جديد جاء بعد أن عم فساد ذرية الذين نجَّاهم اللَّه مع نوح فانحرفوا عن المنهج . لأن الرسول لا يأتى إلا عندما يعم الفساد ولا يوجد من يُصلح . لأن المناعة الإيمانية قد توجد مناعة ذاتية لمن تحدثه نفسه بالإنحراف فيعود إلى ربه وهذه هى النفس اللوامة . لكن إذا لم توجد مناعة فى المجتمع فلا بد أن تقوم حجة اللَّه على الناس برسول جديد وبرهان سديد .

فبعد نوح عليه السلام حدث الإنحراف عن المنهج وغرق المجتمع فى شهواته ، وحاد عن طريق الإيمان فأرسل اللَّه تعالى هوداً إلى قومه ليعيدهم إلى الإيمان باللَّه . وقول الحق تعالى : ﴿ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ﴾ وما دام أخاهم فهو لا يريد لهم إلا خيرا . وما دام أخاهم يكون مأموناً على ما يقول . ماذا قال هود لقومه ؟ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ ولم يقل هود هذا الكلام إلا لأن الفساد قد عم ، وجعلوا اللَّه شركاء ، وافتروا على اللَّه الكذب أى : تعمدوا الكذب على اللَّه . وما دام أنه لا إله إلا اللَّه ، فالإفتراء الذى إفتروه أنهم اتخذوا غير اللَّه إلهاً .

ويقول هود عليه السلام مرغبًا فهم فى الإيمان بالدعوة أنه لا يطلب منهم شيئًا مقابل دعوته لهم وأنه لا يريد منهم إلا عبادة اللَّه وحده ، وأن أجره على اللَّه تعالى ، جاء فى القرآن الكريم على لسانه : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود : ٥١] ، قوله :

﴿ فَطَرَنِيٓ ﴾ أى : خلقنى معداً للرسالة ، فالفطرة هنا تعنى التكوين الأساسى لنبى اللّه هود عليه السلام ، وبأنه سيكون رسولاً وأنه معد لما سيُكلف به .

وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أى : ألا تستخدمون عقولكم ، فأنا لا أطلب أجراً مقابل انتفاعكم بالدعوة لأن اللّه وحده هو القادر على أن يعطينى الأجر ، أما أنتم فلا تقدرون على الأجر الذى أستحقه .

ثم يقول : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ الإستغفار طلب المغفرة من ذنب وقع ، والتوبة هى الرجوع إلى اللّه تعالى والندم على ما سلف من ذنوب ومعاصى .

الإنسان حين يطلب المغفرة من اللّه ويتوب ويبتعد عن الذنوب يغفر له اللّه ويتقبل توبته . ولكن الإنسان يعيش حياة رتيبة كل شيء مسخر لخدمته ، الأرض تنبت له الزرع ، والسماء تمطر له ، والحيوان يخدمه فى الكون ، هذه النعم العظيمة تُنسى الإنسان قد واهب النعم مع الأسباب ، وينسى المسبب سبحانه وتعالى .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾ استغنى بماذا ؟ بالأسباب . ولذلك نجد الناس حين تكون حياتهم بسيطة تلفتهم إلى اللّه سبحانه وتعالى ، وكلما تقدمت حياتهم وارتقت كثر بعدهم عن اللّه ... كيف ؟ فى الماضى كانوا يذهبون للبئر ليشربوا وعندما لا يجدون ماء فى البئر يفزعون إلى اللّه بالدعاء طالبين المطر ، والآن عند انقطاع المياه بالتليفون تتصل بشركة المياه لتعيد لك الماء !!

إذن .. كلما تزداد الحياة رقيًا يبتعد الإنسان عن اللّه ، لأن الأسباب تعطيه ظاهراً فينسى المسبب ويعيش الأسباب .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ ﴾ [هود : ٩٠] أى : لا تفعلوا ذنوباً جديدة وطهروا قلوبكم من الكفر والشرك واعبدوا اللّه وحده ، اللّه تبارك وتعالى حينئذًا ﴿ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ ﴾ المدرار : هو الذى يدُر بتتابع لا ضرر فيه ، فمثلاً فى الطوفان قال اللّه تعالى : ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ⑪ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ⑫ ﴾ لذلك كان الرسول ﷺ يقول : « اللّهم حوالينا ولا علينا » حتى لا يُغرق الماء القوم ولكن ينزل على زرعهم .

إذن .. قوله : ﴿ مِّدۡرَارٗا ﴾ معناها : متتابعاً تتابع إصلاح فتخضر الأرض ويخرج الزرع فيزيد مالنا وتزيد قوتنا .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ فنحن إذا تولينا نكون قد أجرمنا فى حق أنفسنا لأن إجرام العبد يعود على نفسه فهو الذى يشقى فى الدنيا ويخلد فى العذاب فى الآخرة .

والحق تعالى يقول : ﴿ ... وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ⑬ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ ... ⑭ ﴾ [هود] فهم يسمون الإفك الذى يعبدونه آلهة وهذا مردود عليهم بالقياس والمنطق لأنها مادامت آلهة فلا بد أن يكون لها منهج عبادة تقول أفعل كذا ولا تفعل كذا . فما هو منهج الأصنام ؟ بالطبع لا شيء ! إذن .. فهى آلهة بدون منهج ولا توجد عبادة بلا منهج . فالآلهة التى ليسى لها أوامر تكليفية تتركك لتتبع شهواتك كما تشاء ، وهذا هو الذى يتمناه الكفار فلا يرغبون فى التكاليف

التى هى بمثابة قيد على شهواتهم وأهوائهم . وفى نفس الوقت يزعمون أنهم مؤمنون ولهم آلهة ، ولذلك فإن كثيراً من الذين اعتنقوا البابية والبهائية والقاديانية وغير ذلك من الدعوات الهدامة المنتشرة فى صفوف المتعالمين والجهلانيين لا يقيدون شهواتهم بل يتركون لها العنان لتفعل ما تشاء .

وقولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أى : أننا لن نترك آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ نجد هنا : ﴿ إن ﴾ بمعنى : النفى و ﴿ إِلَّا ﴾ أداة إستثناء . أى : ما نقول إلا هذا القول لأنك سفهت آلهتنا وأبطلت ألوهيتهم فغضبوا عليك وأصابوك بالسوء والجنون .

قال لهم نبى اللّه هو عليه السلام : ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [هود] إذن .. نوح أشهد اللّه ، وأشهدهم بأنه برىء مما يشركون من دون اللّه ثم تحداهم فقال : ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ وهذه هى معجزة هود أنه تحداهم وهو واحد وهم كثرة طاغية متجبرة وقال لهم : ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ وأنا معى قلة قليلة ضعيفة وأنتم أقوياء جبابرة ورغم هذا فلن تستطيعوا أن تمسونى بسوء . هذه معجزة هود فى أنه تحدى ولا يوجد أحد يجازف بحياته وحياة المؤمنين كاملة ، ولكنه قال لهم اقتلونى ولا تنتظروا إن كنتم تستطيعون . وهود فى هذا مستند إلى قوة اللّه فهو سبحانه الذى أرسله إليهم ، وهو الذى سيعصمه منهم إن أرادوا به سوء .

ولذلك قال هود : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ ﴾ [هود : ٥٦] ثقة منه باللّه تعالى خالقه ومرسله ، وإذا كان

ذلك كذلك فلن يمكن الكفار مهما كانت قوتهم وطغيانهم منه ، لأنه ما من دابة إلا هو سبحانه آخذ بناصيتها . والناصية هى مقدم الرأس ، وعندما تريد أن تهين أحدا تمسكه من مقدم رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن : ٤١] فالناصية التى هى مكان الفكر والشرف فى الرأس . وذلك حتى يعرف الكفار أنهم لن يقدروا على هود لا بقوتهم ولا بقوة مخلوقات اللّه الأخرى . كأن يسلطوا عليه الحيوانات المتوحشة أوغير ذلك حتى يقتلوه لأن كل ما يدب على الأرض خاضع للّه لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا بإذن اللّه ومشيئته .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] ولم يقل إن ربى وربكم على صراط مستقيم لماذا اختلف السياق ؟ فعندما ذكرت السبيطرة قال : ﴿ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود : ٥٦] أى : أن اللّه تعالى مسيطر على الكون كله ، لذلك قال : ﴿ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ لأنكم وإن كنتم كافرين لا تستطيعون أن تخالفوا مراد اللّه فى كونه فى القهر والقدرة فهو سبحانه لا يفلت منه شيء .

أما قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لأن الصراط المستقيم هو طريق اللّه وحده .

أما آلهتهم المزعومة فليس لها صراط ولا إستقامة ولا منهج .

يقول الحق تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود : ٥٧] .

قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ : خطاب للكافرين جميعاً بأن ما على الرسل إلا البلاغ إنذارًا وأعذارًا ، وقد أبلغهم نبى اللّه هو عليه السلام رسالة اللّه إليهم .

وقوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [هود : ٥٧] الخلفة هنا أن يأتى قومًا خلفًا لقوم ؛ أى بعدهم . أى : أن اللّٰه سبحانه وتعالى سيهلكهم ويأتى بقوم غيرهم مؤمنين .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود : ٥٧] أى رقيب على كل أمور كونه لأنه قيوم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود : ٥٧] ساعة تسمع ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ تعرف أن هناك أمراً وآمراً مطاعاً سينفذ والآن حانت ساعة التنفيذ مجرد صدور الأمر من اللّٰه يعنى حانت ساعة التنفيذ لأن الكون يأتمر بأمره . ولكن هل العذاب عندما يأتى بشكل عام يشمل المكذب والمصدق؟ فكيف يفرق بين المؤمن والكافر ؟ كيف يذهب للكافرين ويترك المؤمنين ؟

نقول : عندما تأتى الصيحة الشديدة فإنها تخرق آذان الكافرين ولا تخرق آذان المؤمنين ، لأن الذى أرسل الصيحة سبحانه أعطاها أوامره بأن تصيب فلاناً ولا تصيب فلاناً .

إذن .. فالصيحة موجهة تذهب إلى من شمله العذاب ، وتترك الناجين من المؤمنين .

واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ [الفيل] ، والعجيب أن يأتى المتفلسفون كأنما يريدون أن يسهلوا المسألة على اللّٰه فيقولون : أصابهم بالطاعون أو سلط عليه الجراثيم ! نقول لهم : إن الجراثيم تحتاج لحضانة وأن

تبقى فى الجسد مدة طويلة ، والميكروب ليس بمجرد أن يلامس الجسد يجعله كعصف مأكول ! ثم كيف يأتى الطاعون أو الميكروب لجماعة أبرهة وتنجو منه قريش ؟ نقول لهم : إن من عظمة الإله أن ينجى المؤمنين ويهلك الكافرين بالشيء نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أى : أن الداء لا يمس المؤمنين برحمة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هناك نجاتان :

النجاة الأولى : من عذاب الريح الصرصر .

والنجاة الثانية : من العذاب الغليظ الذى ينتظرهم فى الآخرة .

ولكن لماذا غليظ ؟ لأن الغلظة تعطينا مفهوم المتانة والقوة . والعذاب فى الدنيا موقوت بقدرات الدنيا وزمنها وعمرنا فيها ولكن عذاب الآخرة بلا نهاية .

إذن .. فعندما جاء أمر الله نجى هوداً والذين معه برحمة منه سبحانه ، ثم نجاهم من العذاب الغليظ فى الآخرة . وكان نجاتهم من عذاب الدنيا الموقوت بشارة ومقدمة أنهم سينجون أيضاً من العذاب الغليظ فى الآخرة .

○○○

دعوة هود عليه السلام

فى أمر هود قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

وإذا عدنا إلى قصة نوح نجد أنها متفقة مع قصة هود ، ففى البداية يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ وهذا أول اتفاق : نوح إلى قومه .. وهود إلى قومه ، ماذا قال نوح لقومه ؟ : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وماذا قال هود لقومه ؟ :﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ فنجد اتفاق الأسس الثابتة فى الدعوة إلى اللّٰه ومنهجه ، أولها : « لا إله إلا اللّٰه » فكل الرسل جاءوا ليبلغوا البشرية بهذه الحقيقة .

ولكن هوداً عليه السلام لم يقل : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ولكنه قال : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

نقول : أن نوح كان أول الرسل بعد آدم لذلك أعلمه اللّٰه بما ينتظر الكافرين من عذاب ، وبأن اللّٰه سيهلكهم بعذاب سيأتيهم ، لأنه لم تكن هناك سابقة عذاب من اللّٰه لتأديب الكافرين والمعاندين . لكن هود جاء بعد نوح وكان الطوفان قد حدث وكان الناس عندهم سابقة علم بما حدث لمن سبقهم لذلك قال هود لقومه : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : أجعلوا بينكم وبين عذاب اللّٰه وقاية ، ولكم فيما حدث لقوم نوح عظة وعبرة .

فى قصة نوح ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠]

وفى قصة هود : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : ٦٦]

الضلال هو البعد عن الحق . والسفاهة هى الطيش والخفة .

وأضاف قوم هود : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أى : أننا نرجح أنك من الكاذبين لأن الظن هنا بمعنى اليقين .

فماذا كان رد نوح وهود عليهما السلام ؟ نوح : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦١] .

وهود ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

ونوح قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهود قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨] .

الفرق هنا أن نوح قال : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ .

وهود قال : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ما هو الفرق ؟

نقول : إن الفعل يدل على التجدد والإسم يدل على الثبوت . ونوح فى إلحاحه على قومه ليلاً ونهاراً وجهراً كان متجدد الدعوة . وهود كان ثابت الدعوة ولذلك استخدم مع نوح الفعل ﴿ وَأَنصَحُ ﴾ ومع هود الإسم ﴿ نَاصِحٌ ﴾ على أننا نلاحظ أن ﴿ لَكُمْ ﴾ موجودة فى كلا القولين وهذا يفيد أن كل رسالات الأنبياء هى لصالح البشر .

ثم بعد ذلك ذكّر هود قومه برحمه اللّه عليهم وفى هذا يقول الحق : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] أى : أن اللّه سبحانه أعطاهم أجساماً فارهة قوية ، وأعطاهم من النعم والخيرالكثير ، فكان يجب

أن يشكروا الله على كل هذه النعم ولكنهم بدلاً من الشكر واجهوا هوداً بموقف عجيب ! موقف يدل على سفاهتهم وضلالهم ، فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ [الأعراف : ٧٠] لقد رفضوا حقيقة الوحدانية لله وهى أساس رسالات الله إلى أنبيائه .

وكان ذلك سبب إنهيار حضارتهم ، التى قال الحق سبحانه عنها : ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ [الفجر : ٨] ومعنى هذا أنها كانت حضارة أقوى وأعظم حتى من حضارة قدماء المصريين ، فهى حضارة بلغت القمة فى فن النحت والعمارة ورغم ذلك لم تستطع أن تصون نفسها من الهلاك والدمار لأنها ليست مبنية على قيم ثابتة ، لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق ، فأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، وانتهت حضارتهم دون أن يعرف الناس حتى أسرارها وأسرار قوتها ، قال الله تعالى : ﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النمل : ٥٢] فعليكم أيها الناس أن تأخذوا عبرة وعظة وأن تنتبهوا وتعودوا إلى الله ، خاصة وأنكم أقل منهم حضارة وقوة حتى لا يكون مصيركم كمصيرهم .

ومن الصفات المذمومة فى قوم هود ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ ﴾ [الشعراء] وكل هذه الصفات تخدم صفة واحدة هى : الكبر والتعالى ، لأنهم يريدون علواً واستبقاء خلود ، يريدون التفرد على الغير ! وهذا مخالف لما يريده الحق سبحانه من عباده فى الدنيا ، قال تعالى : ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] فإن كنت يا أخى المؤمن تريد أن تقدم خدمة

فلا تقدمها للتعالى والتفاخر ، ولكن قدمها لتيسر للناس مصالح الحياة ، وأن يكون فى بالك ربك ، فيظل أجرك ما دام وجد العمل ينتفع به إلى قيام الساعة ، وبهذه وحده تنمى عملك وتحفظه عند اللّٰه تعالى .

○○○

عذاب قوم هود

قال تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف] أفصح قوم هود عن علة شركهم فهم يقولون : أنهم لن يعبدوا الله وحده ويصرون على الشرك ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب ، فأوحى الله تعالى إلى هود بأنه قد وقع عليهم رجس وغضب من الله .

ثم يقول الحق : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

إن وسيلة النجاة فى قوم نوح كانت السفينة . فما هى وسيلة نجاة المؤمنين من قوم هود ؟

لقد كان العرب قديماً إذا أصابهم سوء يذهبون إلى الكعبة ليتضرعوا إلى الله ليذهب عنهم السوء ، وحتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . وعندما بدأ عذاب الله يصيب قوم هود أصابهم الجدب فلم تنبت الأرض ، فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة على رأسهم رجل اسمه : القيس ، ورجل اسمه : مرصد بن سعد ، وكانا لهم إخوان يحكمون مكة من العماليق أولاد عمليق ابن لاوث بن سام فلما قضوا فترة فى مكة انتهوا إلى الكعبة وجلسوا يبتهلون إلى الله أن يمطر أرض عاد ، فسمع داعيهم وهو قيل بن عنز هاتفاً يقول : اختر لقومك : هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء فأى سحابة

تريدها أن تذهب لقومك ؟ فاختار السحابة السوداء لاعتقاده أنها مليئة بالمطر وعاد ومن معه إلى قومهم وأخبروهم بما حدث واختيارهم السحابة السوداء ، فلما رأو السحابة السوداء قادمة عليهم استبشروا وقالوا جاءنا المطر وذلك قول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] هذا كان غاية ما يتمنون ولكن كان لله تعالى أمر آخر ، وهو عقابهم على الشرك به وعدم الإيمان برسوله فقال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ... ﴿٢٥﴾ ﴾ .

هذه قصة عذاب قوم هود أما هود فقد سمع هاتفاً يقول له : « أخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب » فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقى الله عز وجل .

○ ○ ○

نبى الله صالح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [هود : ٦١] ، القوم : يطلق على الرجل عادة ولكنه يشمل المرأة أيضاً لأن المرأة مستورة فى طى الرجل . والقوم من القيام يعنى يا من تقومون بأمور الناس . ومن الخطأ فى الفهم ما يقال فى معنى قوله تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٣٤] ، فالناس تفهمها على أن معناها مسيطرون على النساء ، ولكن ﴿ قَوَّٰمُونَ ﴾ تعنى : قائمين على أمورهن فهى تكليف للرجال بالقيام فى كل أمور النساء فمطلوب منهم توفير المسكن والطعام لزوجته ولأولاده بينما هى فى بيتها متفرغه لزوجها وتربية أولادها وتنشئتهم تنشئة ترضى الله تعالى وتخدم المجتمع ، ومهمة الرجل أن يعمل ويشقى ليوفر لها كل شيء ، ولكن العجيب أن بعض النساء يرفضن ما اختاره لهن رب العالمين ، وما أشرفها من مهمة ، وأثقلها ، ويطلبن المشاركه فى الشقاء الدنيوى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يجنبهن أياه .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [هود : ٦٢] الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون الاستعانه بأحد . والخطاب هنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا خلق الإنسان من الأرض لأن آدم هو الذى خلق من الأرض ونحن ذريته فنحن من الأرض مثله وكل شيء يأتينا من الأرض ، فالطعام يأتينا من الأرض ، والدم يأتى من الطعام فكل شيء مرده إلى الأرض التى خلقنا منها ونموت

فنعود إليها ويقول الحق سبحانه : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] .

لما دعا نبى اللّٰه صالح عليه السلام قومه إلى إفراد اللّٰه تعالى بالعبادة ، وترك ما يعبدون غيره ، وعلل لهم ذلك بأن اللّٰه تعالى هو الذى خلقهم ، وأوجدهم ، قالوا : ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ ، ﴿ كُنتَ ﴾ أى : فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرساله . ﴿ مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ يعنى : نأمل على يديك الخير فما الذى جعلك تقول : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ . ويمضون فى مجادلتهم ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ أى : تقول لنا إن عبادة آبائنا للأصنام أو الشمس أو غيرهما كانت خاطئة وتطلب منا أن نتركها ؟ حجة باطلة تعلل بها كل الذين رفضوا الانصياع لأمر اللّٰه وشرعه والتصديق برسله ، ولو كان هؤلاء يعقلون لسألوا أنفسهم : هل هذه الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشىء أو تنهاهم عن شىء ؟ وسيكون الجواب بالطبع : لا ، إذن .. فلا منهج لها ، وكيف يكون إله بلا منهج ؟!

وقوله : ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود : ٦٢] الشك هو استواء الطرفين : الإثبات والنفى . إذن .. فهم ليسوا على يقين من آلهتهم ، والذى منعهم أن يكذبوا صالحاً تكذيباً قاطعاً فقالوا : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ .

وقوم صالح كانوا أصحاب حضارة ، وكان عندهم فن العمارة ، دليل ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩] فالذين شاهدوا مدائن صالح بجزيرة العرب رأوا كيف استطاع قوم صالح أن

ينحتوا بيوتاً فى الجبال . لم يبنوا بيوتاً فى أرض فضاء وإنما نحتوا بيوتهم فى الجبال ، تمامًا كما نقوم بحفر الأنفاق فى الجبال الآن .

ثم بعد ذلك ارتفعت حدة المجادلة بين قوم صالح ، وصالح عليه السلام ، فأمرهم بتقوى اللّه تعالى ، وأن يطيعوا كلام رسوله الذى أرسله سبحانه إليهم ، ولا يسمعوا لكلام المسرفين ، وذلك قوله : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ﴾ « المسرف » هو : الذى تجاوز الحد . والإسراف فيما شرع اللّه هو أن تتجاوز الحد فى الحلال وتدخل فيه شيئاً من الحرام ، أو تأتى بشىء من الحرام وتدخل فيه شيئاً من الحلال وهؤلاء هم : ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥٢] وذكرت الآية الإفساد وعدم الإصلاح معًا .. لماذا لم تكتف بواحد منهما ؟ لأن الإنسان قد يفسد فى شىء ويصلح فى آخر . لكن هؤلاء المسرفين لا يأتى منهم صلاح أبداً وإنما سائر أعمالهم تحث على الفساد .

هنا صعد قوم صالح من لهجتهم وقالوا له : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾[الشعراء:١٥٣] تناقضت أقوالهم مرة يقولوا أنه ساحر ، ومرة قالوا أنه مسحور ، كيف يكون ساحراً ومسحوراً فى نفس الوقت ؟ إذا كان ساحراً فلا يصح أن يكون مسحوراً لأن الساحر يجعل لنفسه حصانة من السحر وإلا فإنه لا يصلح أن يكون ساحراً إذا لم يستطع حماية نفسه . والآية تعنى أنه أجرى له سحراً متوالياً عدة مرات والذى فعل له السحر شخص آخر . وهذا زعم باطل معناه أنهم يوجهون للنبى إتهاماًبلا دليل لمجرد الا يتبعوه ولا يؤمنوا به .

وبرغبة الرسول فى هداية قومه ، قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : ٦٣] .

أى أخبرونى وكأنه ارتضاهم حكماً إذا كنت أنا على بينة من ربى ويقين أنه أرسلنى و أيدنى فماذا تطلبون منى ؟ هل أترك يقينى بربى إلى ضلالات وخرافات ما أنزل اللّه بها من سلطان ، وقوله : ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ هى : المنهج والنبوة والرساله .

وقوله : ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾ قولوا لى : أين أذهب إن عصيت اللّه ؟ وكيف أتقى عذابه ؟ والجواب الحتمى هنا : لا أحد منا يستطيع أن يفلت من عقاب اللّه .

وقوله : ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ التحسير هو الإهلاك أى أننى لن أزيد بطاعتكم إلا هلاكًا .

ooo

ناقة صـــالح

الحق تعالى يقول : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود : ٦٤] حينما يقال هذه ناقة الله فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة وأن الله أستجاب لرسوله وأعطاه المعجزة التى طلبوها .

قالوا : إن كنت رسولاً حقاً فأت لنا من هذه الصخرة بناقة !!

صالح عليه السلام بعد أن أنذر قومه عذاب الله وبشرهم برحمته طلبوا منه آية دالة على صدقه فى البلاغ عن الله تعالى .

فدعا صالح ربه فانشقت الصخرة أمامهم عن الناقة فلم يستطيعوا أن يقولوا ناقة من هذه ؛ فقالوا : ﴿ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ وهكذا شهدوا بالمعجزة . فقال لهم صالح : ما دامت ﴿ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ فـ ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى : هى تشرب يوماً وإبلكم تشرب يوماً ، فوافقوا على ذلك .

وكانت المياه فى مدائن صالح قليلة ، فكانت ﴿ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائله من اللبن ، فتأتى إبل غير المؤمنين فلا تجد ماء ، أما المؤمنون فقد كان لبن الناقة يكفيهم جميعاً ويزيد بحيث لا يحتاجون إلى شىء . وكانت هناك أمرأتان لهما إبل فلم تجد لها ماء لأن المياه فى الآبار قلت جداً فذهبت إلى رجل اسمه « أحيمر ثمود » وأغريتاه على قتل الناقة فقتلها .

فلما قتلت الناقة صعد فصيلها على صخرة تسمى : « القارة » ورغا ثلاثة أصوات فقال صالح : يا قوم : أدركوا هذا الفصيل لعل الله يرفع عنكم العذاب فذهبوا يبحثون عن الفصيل فلم يجدوه . حينئذ أبلغ الله صالحاً أن العذاب ، سيأتى بعد ثلاثة أيام .

في اليوم الأول : يروا سحابة مصفرة .

واليوم الثانى : سحابة محمرة .

واليوم الثالث : سحابة سوداء ثم يأتيهم العذاب .

والحق تعالى يقول : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ١٤٦] .

ما هى السيئة هنا ؟ وما هى الحسنة هنا ؟ السيئة هى استعجالهم نزول العذاب عليهم عندما دعاهم نبيهم إلى الإيمان فقالوا : ﴿ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] وهذا دأب الكفار فى كل مكان وزمان يستعجلون العذاب ولا يطلبون الهداية .

فهو يلومهم على استعجالهم السيئة قبل الحسنة ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم حين ينزل العذاب عليهم سيستغفرون ويتوبون فيرفع اللّٰه عنهم العذاب !! وهذه هى الحسنة التى أخروها ولكن ذلك لن ينفعهم لأن الاستغفار لا ينفع عند نزول العقاب .

فماذا كان ردهم عليه ؟ قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل : ٤٧] أى تشاءمنا منك ، فقال لهم : هذا التطير ليس منكم ولكن طائركم عند اللّٰه لأنه قضاء مقضى عليكم فهل حركة الطير هى التى ستتحكم فيكم وتحدد عملكم ؟ قال العلماء : لأنه بعد أن أرسله اللّٰه إليهم ودعاهم فلم يستجيبوا له أصابهم قحط شديد وبلاء فقالوا : هذه المصائب بسبب هذا الرجل المشئوم . فلم يرجعوا إلى أنفسهم ويقولوا هذا عقاب لنا على كفرنا وعدم استجابتنا لنبى اللّٰه صالح ولكنهم اتهموا صالحاً بأنه نذير شؤم وجاء بكل المصائب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : ٤٨] والرهط اسم جمع ليس له واحد من لفظه ويطلق على العدد من ثلاثة إلى عشرة . ومعنى : ﴿ يُفْسِدُونَ ﴾ أى : يعمدون إلى الصالح فى ذاته فيفسدونه ، وفوق ذلك فهم لا يعملون أى عمل صالح ، فطبيعتهم الفساد فقط !

هؤلاء التسعة رهط المفسدون ماذا فعلوا ؟ قال تعالى : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل : ٤٩] انظروا القحة وقلة العقل والفساد ، يبيتون لقتل نبى اللّه صالح ويقسمون باللّه ويتعاهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة النكراء .

ومعنى : ﴿ تَقَاسَمُواْ ﴾ أى : هيا نحلف باللّه أن نبيت لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته .

ومعنى : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ ﴾ أى يعدوا له بياتاً لا يقوم منه فلا يخرج عليه صباح بعده أبداً وذلك بأن يقتلوه ثم يقولون لأهله وأقاربه وأولياء دمه : إنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا الأمر . وفهموا أن اللّه يسلم نبيه ويتركه لهم ليقتلوه ولكن اللّه كان لهم بالمرصاد .

قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠] فهم يمكرون على باطل ويمكرون لتبييت شر ونسوا أن اللّه بمكرهم محيط ، وأنه ناصر رسوله ومؤيده .

والمكر : أن تنوى فعل شىء وتداريه على الخصم ، تظهر غير ما تبطن .

ومعنى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفيد أن المكر يجب أن يكون محبوكاً ومتوارياً لا يحس به أحد وإلا لو شعر به أحد أو علم به لما كان مكراً .

ولكن ماذا كانت نتيجة مكرهم ؟ قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥١] فكيف حدث ذلك ؟ إن الرهط ذهبوا لينتظروا صالحاً فى مكان عند سفح الجبل واختبأوا فيه حتى يمر بهم صالح فيقتلوه ، فبينما هم جالسون فى هذا المكان أسقط الله عليهم صخرة قضت عليهم . فهم أرادوا أن يهلكوه فأهلكهم الله وقومهم أجمعين قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف] .

وقوله سبحانه : ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أى : حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التى كان عليها فالذى كان واقفاً ظل على وقوفه ، والذى كان قاعداً ظل على قعوده ، وكذلك الذى كان نائماً . أخذوا جميعاً على هيئاتهم . ويعطى لنا القرآن الكريم صوراً مختلفة لتأديب الله تعالى لثمود فمرة يقول الحق سبحانه : الرجفة ، ومرة الطاغية ، ومرة الصيحة ، ومرة الصاعقة . وكلها تؤدى معنى الحدث . وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه .

وقوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [هود : ٦٨] أى : كأنهم لم يقيموا فيها ، لأنها أصبحت خالية وكأنها لم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ ﴾ [هود : ٦٨] هذه حيثية إهلاكهم وهم لعنوا فى الدنيا والآخرة ، وقد أعطانا الحق سبحانه بشاعة جريمتهم حتى نعرف أن القصاص عدل ومناسب لبشاعة الجريمة فنقول كما قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : ٦٨] .

○ ○ ○

نبى اللّٰه إبراهيم عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾ [إبراهيم : ٤١] إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو القمة لأن اللّٰه حينما مدحه قال عنه : ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا ﴾ [النحل : ١٢٠] ومعنى ﴿ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ : أنه أخذ المواهب والكمالات الموجودة فى أمة كاملة . ومعنى الصديق : هو الذى بلغ النهاية فى تصديق الحق . فيورثه اللّٰه شفافية وإشراقاً فإذا سمع شيئًا عرف من أول نظرة الحق من الباطل ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال : ٢٩] أى : يعطيك موازين تفرق بها بين الحق والباطل دون أن تبحث المسألة وتتعب فيها .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم] قوله : ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ كان الأمر سينصرف لأبيه الحقيقى لكن ذكر فى مرة واحدة أن أباه آزر فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً ﴾ [الأنعام : ٧٤] ولا يؤتى بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان يقصد به العم . فالقرآن اعتبر العم أباً . فكأن الأبوة شائعة بين الأب الحقيقى والعم . هب مثلًا أن واحداً يسأل ابناً عن أبيه سيقول له : هل أبوك موجود ؟ لكن إذا أراد أن يسأل عن أب غير حقيقى ؛ عن عم مثلاً سيقول هل أبوك محمد موجود ؟

إذن .. لا يأتى بالعلم إلا حين يراد به الأب غير الحقيقى . لكن لو كان يريد الأب الحقيقى فإنه يكتفى بقوله هل أبوك موجود ؟

كلمة : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ يراد بها أنه وإن كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين « الأب والأم » فجاء بتاء التأنيث لتشير إلى هذا ولذلك فهى لا تقال إلا فى الحنانية المطلقة ويلاحظ هنا أدب الدعوة فإبراهيم يستفهم منه ويترفق به قائلاً : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم ٤٢] فجاء بها على صيغة الاستفهام مستفهماً عن سبب عبادته للأصنام . ثم عاد وذكر كلمة : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ ليثير فى عمه غريزة الحنان والرحمة والمودة فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم] أى يا أبت لا تظن أننى متعال عليك وأننى أحسن منك أو أذكى منك وآتيك بكلام من عندى . ولكن آتيك بكلام من عند من هو أعلى منى ومنك فلا غضاضة فى ذلك . فأنا جاءنى علم لم يأتك فالمسألة ليست ذاتية ولد وعمه ، أو ذاتية ولد وأبيه لكن المسألة فوق الجميع .

بعد ذلك يأتى رد آزر على إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] والمعنى هل تريد آلهة غيرها يا إبراهيم ؟ .. إن لم تنته عن موقفك هذا من آلهتنا ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ والرجم : هو الضرب بالحجارة ويبدو أنه كان طريقة التعذيب الشديدة فى ذلك الوقت . وكلمة أهجرنى أى ابتعد عنى ، وكلمة ﴿ مَلِيًّا ﴾ الملئ هو البرهة الطويلة من الزمن .

لكن ماذا قال إبراهيم رداً على هذا الكلام القاسى ؟ قال : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] أراد أن يؤكد كلامه السابق أنه إن لم يستغفر له سيكون مصيره مؤلماً فذكره بالله وأنه

سيستغفر له لأنه لا يرضى له بهذا المصير وحين يستغفر له يعلم أن ربه حفى به وكريم معه ولن يرد له طلبه فهو يريد أن يحنن عمه فى اتباع الإيمان كما أنه لم يستغفر له فى نفس الوقت ولكنه وعده بأنه سيستغفر له فى المستقبل لأنه يريد أن يبرىء هذا الاستغفار من المجاملة والنفاق والخداع لعمه وحتى يمهله لكى يعود ويرجع عن كفره .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨] كلمة اعتزال معناها : ترك صحبة إلى خير منها ، والاعتزال أمر مطلوب إن وجد الإنسان البيئة غير صالحة للنقاش الباطل من الحق حتى لا نؤصل الجدل فالمسألة مبدأ إيمانى .

ومعنى قوله : ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ أى عسى ألا أكون شقيا بسبب دعائى لربى وعبادتى له .

بعد ذلك يأتى المقابل فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] فالقرآن ذكر إسحاق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل فكأن الحق سبحانه وتعالى يتكلم عن إسحاق ويعقوب اللذين منحهما اللّه لإبراهيم جزاء صبره ونجاحه فى ابتلاء الرؤيا وذبح إسماعيل . فحينما صبر إبراهيم عليه السلام على الابتلاء فى ذبح ابنه إسماعيل ، وصدق الرؤيا وأطاع هو وابنه أمر اللّه ، فدى اللّه له إسماعيل ، ليس هذا فقط ؛ بل وبشره بإسحاق أيضاً وإسحاق سيكون من ذريته يعقوب فبشره به أيضاً لأن إسحاق هو الإبن الثانى لإبراهيم ويعقوب وهو ابن إسحاق وحفيد إبراهيم فكأن الحفيد نافلة فى عطاء الذرية قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٢] .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

المعنى : ألم تعلم علم اليقين بأن هناك رجلاً حاج إبراهيم فى ربه ؟ واستعمال حرف الجر ﴿ إِلَىٰ ﴾ لتدل على أن هذا الأمر الذى يحدثنا عنه الحق قد بلغ من العجب غاية بعيدة .

وفى هذه الآية يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه لم يحدد لنا اسم الرجل الذى حاج إبراهيم فى ربه لأن الحق سبحانه حينما يريد شيوع أمر وإمكان حدوثه فى أى زمان ومكان فإنه لا يشخص الأمر لأن التشخيص يفسد المراد . فذلك معناه الواضح أن أى محاجة فى اللّه تظل مدحوضة بما يريده اللّه من ثبات الإيمان فى بعض القلوب المؤمنة .

ويريد اللّه أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهى أن الرسل فى جدلهم مع أممهم أو مع المناقشين لهم لا يكون الهدف للنبى أن يظفر بالغلبة وإنما هدفه الوصول إلى الحقيقة .

لذلك لم يتوقف إبراهيم عليه السلام مع الرجل الذى يحاجه فى اللّه عند نقطة الإحياء والأمانة رغم أن أحداً لم يجرؤ أن يدعى القدرة على الإحياء والإماتة فسأله إبراهيم كيف تحى وتميت ؟ فقال الرجل : إن عندى من المسجونين عدداً وأستطيع أن أقتل منهم من أشاء فهذا الذى أميته وأن أمتنع عن قتل من أشاء فهذا كأنى أحييته .

وهنا أفحمه إبراهيم عليه السلام بسؤال لم يستطع له جوابًا وهو قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، لقد بهت الذى كفر ولم يجرؤ على الرد على حجة إبراهيم عليه السلام وفقد القدرة على مراجعة إبراهيم وحدوث البهت لمن كفر ، أمر ليس بعجيب لأنه بلا ولاية من اللّٰه تعالى نعوذ باللّٰه من الخذلان .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

والرشد هو اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير بحيث لا يأتى بعد الصلاح فساد ولا بعد الخير شر .

وهذا الرشد له نوعان : رشد بنية ورشد معنى . فرشد البنية هو اكتمال تكوين الإنسان بحيث أن كل جهاز فيه يقوم بوظيفته خير قام ، وهذا يحدث عادة بعد البلوغ هذا بالنسبة للرشد المادى . وهناك رشد أعلى يأتى للقمة الفكرية وهو العقل والذهن الذى يختار به الإنسان بين البدائل وهو لا يأتى إلا من اللّٰه سبحانه ، وأعطاه إبراهيم قبل أن يبلغ سن الرشد التى يحتاج إليها غيره من الناس . فقد أنكر على قومه عبادتهم للأصنام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٢] . وهذا ليس استفهامًا حقيقيًا ، ولكنه استفهام تقريرى وتوبيخى لهم كأنه ينكر ما هم عليه من ضلال وانحراف ، إنهم كانوا يعمدون إلى أشياء يمكن نحتها أو تشكيلها ويجعلونها على صورة إنسان ويصنعون منها التماثيل الصغيرة والكبيرة . يصنعونها من الحجر أو النحاس والحديد أو العجوة وغير ذلك ؛ ويبالغون فى بعضها فيصنعونه من المرمر ويضعون فى عينيه خرزًا لامعًا حتى يخيل للرائى أن له عينين ، فالقوم كانوا يتفننون فى صناعة هذه التماثيل .

ومعنى ﴿ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أى : مقيمون لأن الاعتكاف هو الإقامة ، ولأن كلمة عكف معناها أقام ، فالإنسان يعكف على الشيء أى يقيم عنده ، واللام فى قوله : ﴿ لَهَا ﴾ليست بمعنى « على » كما قال بعض العلماء ، ولكنها لام الملكية ولام النفعية لأنهم يعكفون لصالح هذه الأصنام كأنها تملكهم وتسخرهم كما تريد لأنهم يعبدونها ويتقربون إليها .

فلما سألهم إبراهيم عن سر عكوفهم على هذه التماثيل ردوا عليه بقولهم : ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] .

إذن .. لا حجة لهم إلا التقليد .. فليس عندهم حجة لذاتية العمل ولكن حجتهم التقليد ، فهم فى ضلال لأنهم قلدوا آباءهم والإيمان لا يكون بالتقليد وآباؤهم فى ضلال لأنهم اقترحوا هذه المسألة .

وهذا دليل على عدم الفهم لأن العبادة هى أن يطيع العابد المعبود والأصنام ليس لها أوامر وليس لها تكاليف .

وبعد ذلك جاء رد إبراهيم عليهم : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء : ٥٤] . ولأن هذا الرد كان غريبًا عليهم ولم يكونوا يتوقعونه ؛ لذلك ظنوا أنه يمزح معهم ؛ ولذلك استغربوا منه أن يصفهم وآباءهم بالضلال فكان ردهم عليه : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ، فأخبرهم أنه جاءهم بالحق من عند الله بالذى أمره أن يدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام وأن يعبدوا الله وحده ؛ لذلك قال : ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٦] .

وكلمة : ﴿ بَل ﴾ تفيد أن كلامهم الذى قالوه وأصنامهم التى يعكفون عليها لا تنفع ، لأن الرب المستحق للعبادة هو الله خالق السماوات والأرض .

بعد أن قال لهم هذا الكلام ، وأقام عليهم الحجة ، وبين لهم طريق الحق جادلوا بالباطل ، وتملكهم العناد والغرور ، ولم يستجيبوا له . فكر إبراهيم فى الانتقام من أصنامهم حتى يبين لهم أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع أن تحمى نفسها فقال : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧] .

والكيد لا يكون للأصنام لأنها لا تعقل ولا تشعر بشىء ، ولكن إبراهيم بتكسيره للأصنام يكيد قومه الذين يعبدونها فهو يكيدهم فى أصنامهم ، أما الأصنام نفسها فهى تسبح للّه مثل كل شىء فى الوجود ، وتتبرأ من عبادتهم لها من دون اللّه .

﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الصافات] .

كلمة : « راغ » معناها تسلل خفية حتى لا يراه أحد ، وعندما وصل إلى الأصنام أول شيئ فعله استهزأ بهذه الآلهة وقال لهم : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، كأنه يعرض عليهم الطعام إن كانوا جوعى فلم يردوا عليه ، فقال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ [الصافات : ٩٢] . آلهة لا تنطق ولا تتكلم وكان رده عليهم هو تكسيرهم وتحطيمهم ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩٣] . واليمين تعنى القوة والقهر والغلبة .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٨] .

ومعنى ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ الجذاذ هو القطع المتناثرة مثل الحطام ، فالشيء الذى كان له هيكل ومنظر تقطع وتفتت إلى قطع متناثرة ، فحطم الأصنام كلها وترك الصنم الأكبر لعلهم يسألونه عما حدث لباقى الأصنام ، فلما ذهب القوم كعادتهم إلى مكان الأصنام ووجدوها مكسرة ومحطمة غضبوا

وثاروا . ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٩] . فالذى فعل هذا الفعل فى نظرهم ظالم ومجرم ، لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسرها ، ولكنهم لم يفكروا لحظة فى أن يراجعوا أنفسهم فى عبادة آلهة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، لما أخذوا يسألون عن الجانى الذى اعتدى على الآلهة وحطمها ، تطوع بعض القوم بالإبلاغ عن إبراهيم بما علموا عنه من كراهيته للأصنام ، لأن القوم كان لهم يوم من الأيام يذهبون فيه إلى ناديهم الذى يجتمعون فيه عند الأصنام ، ويضعون لها الطعام والقرابين ، ففى هذا اليوم الذى يتجمعون فيه عند الأصنام ، أراد عم إبراهيم أن يأخذه معه ، لعله يهتدى إلى عبادة آلهة آبائه وأجداده ، ولعل صنما يجذبه إلى عبادته !

وحاول القوم أن يصحبوه معهم ، ولكنه رفض أن يذهب معهم وقال لهم : ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] ، فأخبرهم أنه مريض ، ولن يستطيع أن يذهب معهم ، وعزم فى نفسه على تحطيم تلك الأصنام التى يعبدونها فكأن أحدًا سمعه وهو يحدث نفسه بتكسير معبوداتهم ، فأخبرهم بأن فتى اسمه إبراهيم كان يذكر الأصنام بسوء ، فاتفقوا على أن يأتوا به على مشهد من القوم حتى يكون عبرة لغيره ممن تسول له نفسه التعدى على الآلهة ، فلا يجترئ أحد بعد ذلك على مثل هذه الفعلة .

ومعنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أى يشهدون ما سيوقعونه به حتى لا يجترىء أحد على مثل هذا الفعل مرة أخرى .

فذهب القوم وأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ووجهوا إليه الاتهام : ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٢] ، فرد عليهم

إبراهيم بثبات المؤمن وكأنه يتغرب جهلهم وغضبهم بسبب آلهة مزعومة لا تنفع ولا تضر . ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ثم قال لهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ كان إبراهيم ينتظر منهم أن يقولوا أن كبير الأصنام لا يستطيع أن يفعل شيئًا من هذا .. وحينئذ تقول لهم إذا كان عاجزًا عن أى فعل فلماذا تعبدونهم ؟ وهذا ليس كذبًا من إبراهيم ، ولكنه توبيخ للقوم الكافرين حتى يصلوا إلى الجواب بأنفسهم ، ويقتنعوا بأن الأصنام لا تستحق العبادة ، وأنهم على ضلال ويجب عليهم أن يستجيبوا للحق .

ولكن القوم لم يسألوا الأصنام ، لأنهم يعرفون أنها لا تنطق ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فبعد أن غلبهم الواقع أمامهم ، ودفعهم إلى محاولة قول الحق ، تذكروا ما يجره عليهم هذا الحق من فقدان لمكانتهم وسلطتهم الزمنية . أى أنك تعلم أن هذه الآلهة لا تنطق فيرد عليهم إبراهيم ويقيم عليهم الحجة ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تعبدونهم من دون اللَّه مع أنهم لا ينفعونكم إن عبدتموهم ولا يضرونكم إن تركتم عبادتهم .

وكلمة : ﴿ أُفٍّ ﴾ معناها التضجر فهذا شيء يضايق النفس ويغيظها ، وهى فى اللغة ليست اسما ولا فعلًا ولا حرفًا ، ولكن يسمونها فى اللغة « الخالفة » ومعناها : أنها اسم مدلولة فعل فهى اسم معناه فعل مثل هيهات معناها بعد .

ويسمونها الخالفة ، لأنها خالفة الأقسام الثلاثة الموجودة فى اللغة هل هذا معقول أن تعبدوا ما تصنعوه بأيديكم وحين يقع تعدلوه ، وإذا كُسر تصلحوه ، وإذا جرفه السيل وغطاه الطين تغسلوه وتضعوه مكانه وتعبدوه ، هل هذا معقول ؟ فماذا كان ردهم .

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات] .

لم يستجيبوا لنداء العقل بل عزموا على الانتقام من إبراهيم ، واتفقوا على حرقه بالنار ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .

شىء عجيب آلهة ينصرها المخلوقون اتفقوا على أن يحرقوا إبراهيم .

وروت كتب التفسير ، أنهم بنوا بناء ووضعوا فيه حطبًا وأخشابًا ووقودًا وأشعلوا نارًا ، وظلوا أربعين يومًا يسجرون فيها ، - يزيدونها اشتعالًا - ويلقون فيها كل شىء قابل للاشتعال وبلغ من فظاعة هذه النار أن الطير التى كانت تطير فوقها تقع محترقة ، واستدل العلماء على ذلك من أنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا من النار ليلقوا إبراهيم فيها فصنعوا منجنيقا عاليا ووضعوه فيه ، وألقوه فى النار وهم بعيدون عنها ، حتى لا تلفحهم شدة حرارتها ولكن الحق سبحانه الذى تعهد بنصررسله وعباده المؤمنين . لم يترك نبيه إبراهيم لانتقام الكافرين ولكنه سبحانه حماه وحفظه من شرهم وحينما ألقاه قومه فى النار المتأججة ليحرقوه ويقضوا على دعوته يأتيه جبريل وهو فى هذا الموقف الرهيب ويسأله ، إن كان يريد منه شيئًا فيرد عليه بثقة وثبات « أما إليك فلا » لم يجزع ، ولم يفزع ، بل كان واثقا من نصر الله له فأمر الله النار ﴿ كونى بردًا ﴾ وقبل أن يخصص نار إبراهيم انطفأت كل نار فى الدنيا حتى تحدد

الأمر بأنه خاص بنار إبراهيم وحدها فساعة قال سبحانه : ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾ [الأنبياء : ٦٩] انطفأت كل نيران الدنيا ، إلى أن قال الحق : ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فاشتعلت النيران الأخرى ، وامتثلت نار إبراهيم للأمر فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم أى بردًا لا يؤذى .

إن معجزات الرسل هى خرق نواميس الكون السائدة لأنه لا يخرق الناموس إلا خالقه سبحانه .

إذن .. الذى يعطل ناموس الأشياء هو خالق الأشياء ، لأن الأشياء لم تخلق ليكون لها القدرة على قيومية نفسها ولكنها مخلوقة لتؤدى مهمة ، ولكن الذى خلقها لهذه المهمة يستطيع أن يسلب منها هذا الوظيفة أو المهمة ، لأن الخالق مسيطر على الناموس الموجود فى الكون .. والنار طبيعتها الاحراق فهى تظل على هذه الحالة بأمر اللّه - لكن إذا أراد سبحانه أن يسلبها خاصية الاحراق ، فإنه يأمرها بألا تحرق - فتتوقف عن الإحراق ، وهذا ما حدث مع سيدنا إبراهيم .

إذن .. معجزة إبراهيم جاءت تحديًا لقومه ، لأنهم أرادوا أن ينتقموا لآلهتهم ، وهى الأصنام بالشكل الذى يمجدها والحرق هنا أمام الآلهة وعلى مشهد منها ليكون الإنتقام من إبراهيم انتقامًا تباركه الآلهة ، وتجعله رهيبًا كل شىء معد لتمجيد آلهة غير اللّه سبحانه وتعالى ، جاءوا بالحطب ، وأوقدوا النار الهائلة ، وآتوا بإبراهيم . والسؤال هنا لماذا جعلهم اللّه يأتون بإبراهيم ليحرقوه فى النار أمام آلهتهم ؟ كان من المكن أن يختفى إبراهيم فى أى مكان ولا يظهر .. وكانت هذه مسألة ممكنة تقى إبراهيم الحرق وتجعلهم لا يعثرون عليه - ولكن لو حدث هذا لقالوا لو أننا قبضنا عليه لأحرقناه .. وكانت ستظل قوة الآلهة

المزيفة التى يعبدونها مسيطرة عليهم - ولذلك لابد ألا يهرب إبراهيم بل يقع فى أيديهم ليشهد القوم جميعًا سفاهة معتقداتهم ، وعجزها أمام قدرة اللّٰه .

وكان من الممكن أن تنطفئ النار لأى سبب من الأسباب . كأن ينزل المطر من السماء فيطفئ النار - ولكن هذا لم يحدث لماذا ؟ لنفس السبب لأنه لو انطفأت النار لقال الكفار أن آلهتنا كانت قادرة على أن تحرق إبراهيم ، ولكن السماء أمطرت ، فإبراهيم لم يهرب ، بل وقع فى أيديهم والنار لم تنطفىء بل ازدادت اشتعالًا ، ثم ألقوا بإبراهيم فى النار فإذا باللّٰه سبحانه وتعالى يبطل خاصية الإحراق فى النار ، وتكون بردًا وسلامًا على إبراهيم .

إذن .. فالخطاب للنار ذات المواصفات الخاصة وهى الإحراق ، فلو قال لها اللّٰه كونى بردًا لانطفأت النار ولكن قال لها : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

أى لا تكونى بردًا وسلامًا فى ذاتك ولكن على إبراهيم ، فهم أمسكوه وألقوه فى النار المشتعلة التى لم يطفئها مطر ولا رياح ، ومع ذلك لم ينالوه بأذى وجعلهم اللّٰه الأسفلين فى الكيد ، لأن الكافر حين يكيد للمؤمن يتصدى له رب المؤمن ، وإذا أردت أن تعرف قوة الكيد فانسبه إلى فاعله .

وكما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين ، كذلك عبادة الكواكب ضلال مبين . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

جن : تفيد الستر والتغطية وكلمة هذا ربى لا تخدش فى وفائه الإيمانى ولا بد أن لها وجها ، ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم

أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ... فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم يا كذابون ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له ، لكن إبراهيم استخدم ما يسمى فى الجدل بـ « مجاراة الخصم » ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

وحين قال إبراهيم : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هى الرب ، فكأنه قال سلمنا جدلا أنه ربكم لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وأنا ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي ﴾ [الأنعام : ٧٧] .

وأفول النجم والقمر وغروب الشمس أمور قد شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات ، فلا يمكن أن يكون قد فوجئ بأن النجم قد أفل أو أن الشمس قد غابت ولكنه كان يعلم ذلك جيدًا – ولذلك فإن كل حواره كان سخرية منهم وتهكمًا عليهم لأنه كان يعلم مقدما أن الشمس ستغيب ، وأن القمر لن يبقى فى السماء طوال الليل والنهار ، ولذلك أراد أن يلفتهم إلى هذه الحقائق التى غابت عن فطنتهم .

ويقول لهم كيف يمكن أن يغيب إله عن خلقه ؟ وفى هذه الحالة يكون المنطق الذى قاله يحقق نيته فى إنكار هذه الألوهية .

ونلحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب قال : ﴿ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام : ٧٧] . وفى هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ويكون قوله ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ لونا من التهكم .

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ [الأنعام : ٧٨] كان لا بد من المنطق اللغوى أن يقول : « هذه » لأن الشمس مؤنث لكنه يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيها مطلقًا عن أن تلحق بها علاقة التأنيث ، وحين تأفل الشمس يقول : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٨] وجاء الأمر صريحًا لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التى قالها ، وحين يسمعها أى عاقل لا بد أن يلعن اتفاقه فى هذا الأمر لأنه كإنسان مؤمن ، لن يغش نفسه وبالتالى لن يغش قومه ، وهذا ماينبه العقل حين يعطيه اللّٰه هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، وبعد ذلك تدخل فى العمل المصلح العمل الإيجابى ؛ ولذلك قال لهم : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

إنه يقدم برهانه لقومه ، أنه يعبد اللّٰه وحده الذى خلق السموات والأرض رافضًا كل فساد فى الكون ومعنى : ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى مائلًا عن الفساد فهو يسير معتدلا لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

هل اقتنع القوم بذلك ؟ لا بل أخذتهم العزة بالإثم وأصروا على الضلال ، ولذلك فقد بدأوا يجادلونه فى اللّٰه .

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ كأنه قد عز عليهم أن يعلن إبراهيم أنه توجه إلى اللّٰه الذى فطر السموات والأرض ؛ لذلك يريدون أن يصرفوا إبراهيم عن دينه الحنيف . .

ما هى حجتهم ؟ وهل يملكون حجة ؟ طبعًا لا إنهم لا يستخدمون الحجة والمنطق ، بل يستخدمون الخرافة على أساس التخويف ، فيقولون له لو كفرت

بآلهتنا فإنك ستتعرض لانتقامها ، وستفعل بك كذا وكذا فيرد عليهم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تخيف أحدًا لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا ، لأن الضار والنافع هو اللَّه سبحانه وتعالى .

ثم يقول لهم أنتم عبدتم ما لا يضر ولا ينفع ، وأنا آمنت بمن يضر وينفع فمن منا الذى يخاف .

وهنا يريد اللَّه سبحانه وتعالى أن نصل إلى الحقيقة ، دون أن يحرك ذاتية المخاصم التى تأبى أن تنهزم ، وكان إبراهيم يستطيع بدلا من أن يقول : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٨١] كان يستطيع أن يقول : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ ولكنه لم يقل هذا بل قال : ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ [الأنعام : ٨١] حتى لا يتشبث القوم بالباطل ويشعرون أنهم قد انهزموا فى المناقشة .

لقد أعطى اللَّه سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أى كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع لأن إقامة الحجة ، على الغير انتصار والانتصار رفع لدرجة موضوعك ولموضوع عملك .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

بعد ذلك يذكر الحق سبحانه عن خليله إبراهيم ، أنه لما هاجر من بلاده سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحاً فبشره اللَّه تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل .

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات] وهو إسماعيل عليه السلام ابن هاجر ، وسارة لم يكن معها أولاد ، فلما انجبت هاجر ابنها إسماعيل حدث شىء فى نفس

سارة مما يحدث فى نفوس النساء ، وأخذت تلح على إبراهيم أن يدعو ربه أن يرزقه بغلام منها على الرغم من أن سارة هى التى زوجت هاجر لإبراهيم لكن اشتدت غيرتها منها ، وطلبت من إبراهيم أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما عند البيت الحرام وإسماعيل ما زال رضيعًا ، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا أحد ، فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له آللّه أمرك بهذا قال : اللّهم نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى كان عند مكان لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِىٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] . فهى مسألة صعبة على النفس ؛ ولذلك فإن هاجر صبرت وتأكدت لها هذه المسألة عمليًا ، فيعطش ابنها وينفد الماء الذى فى السقاء ، ويتألم الرضيع من العطش فماذا تفعل ؟ تقوم بمجهود بشرى نظرت إلى الوادى جبال هنا وهناك ، فراحت هاجر تستشرف بين الصفا والمروة لعلها ترى نبع ماء أو طيرًا ينزل على مكان ماء .

أو لعلها تعثر على قافلة تعطيها بعض الماء - وظلت تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط - ولنا أن نتخيل إمرأة فى مثل عمرها وفى وحدتها وفى مثل ظروفها ماذا يمكن أن تفعل لابنها الصغير العطشان ؟ وعندما يبلغ بها الجهد حد التعب تعود إلى حيث يوجد الوليد ، إن السعى لم يأت لها بالماء ولكنها قالت إن اللّه لن يضعينا وصدق قولها لن يضيعنا ، فلو أنها وجدت الماء عند

الصفا أو عند المروة لما كان لقولها لن يضيعنا مدلول ولكنها أخذت بالأسباب ولم تجد الماء ثم وجدته عند قدمى إسماعيل .

لقد أراد اللّه أن يقول لها - نعم أنا لا أضيعك لذلك جاء بالماء بلا سبب منك عند قدم الوليد - لقد ضرب إسماعيل الأرض بقدمه الصغيرة ، فانفجرت الماء وبقيت شعيرة السعى بين الصفا والمروة ، لتذكرنا بهذه القضية الإيمانية التى أراد اللّه منها استيفاء الجمع بين سببية الأسباب فى الجوارح وبين الإيمان به والتوكل عليه فى القلوب .

ثم يكبر إسماعيل ويفديه اللّه بالذبح العظيم من السماء ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] ، ثم قام إبراهيم وابنه إسماعيل برفع القواعد من البيت ، وهذا يعنى أن البيت محددة معالمه أو قد بنى من قبل ، لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] والناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ولذلك قيل إن الملائكة هى التى بنته ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

حين جاء الأمر لإبراهيم بأن يؤذن فى الناس بالحج ، قال يا رب ومن الذى سيسمع صوتى بالآذان ؟ فقال له سبحانه : أذن وعلى البلاغ فصعد على جبل أبى قبيس وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه ، فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من فى الأرحام

والأصلاب وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر من كتب اللّه أنه يحج إلى يوم القيامة قال : « لبيك اللّه لبيك » ، ومعنى : « لبيك » أى أن كل مشاغل الدنيا تطلبنى وأنت طلبتنى فأنا ألبيك أنت أولًا لأنك خالق الأشياء التى تشغلنى عنك .

ولذلك نحن نحتج عليهم ، حين يزعمون أن الذبيح هو إسحاق ونقول لهم لو كان إسحاق هو الذبيح لكانت عملية الذبح والفداء ورمى الجمرات وغير ذلك من المناسك عندكم فى الشام ، ولكنها هنا فى مكة لأن إسماعيل كان هنا فى هذا المكان .

ثم تذكروا جيدًا أنكم قلتم فى كتبكم فى الأصحاح [٢٣،٢٤ سفر التكوين] إن اللّه سبحانه أوصى لإبراهيم أن يصعد على جبل فاران وأن يأخذ ولده الوحيد ويذبحه .

فولده الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق .

لأنه ورد فى الإصحاح [٢٤] [ولد إسحاق وعمر إسماعيل ٤١ سنة فهذا دليل دامغ من عندكم ومن كتبكم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

○ ○ ○

نبى اللّه إسماعيل عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦ ﴾ [الأنبياء] هؤلاء الأنبياء جميعاً كانوا من الصابرين ، والصبر صفة فى الرسل الذين يرسلهم اللّه تعالى ، وهؤلاء الثلاثة خاصة اشتهروا بهذه الصفة . فإذا ذكرنا صبر إسماعيل عليه السلام نجد أنه صبر فى ذاته على أن يذبحه أبوه برؤيا منامية وقال له : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] فهل بعد هذا الصبر من صبر ؟!! يوافق أباه على أن يذبحه لمجرد رؤيا ، ويصبر فينجيه اللّه تعالى .

وقبل ذلك يعيش فى واد غير ذى زرع ، ويتحمل الحياة الصعبة فى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء . وحتى عندما كبر واشتد عوده لم يبحث له عن منطقة خصبة ذات رزق وفير ، ولكنه ظل بجوار بيت اللّه الحرام يرعى شئونه ويعظمه ويقيم فيه الصلاة ويرضى بالقليل من الرزق . ويتجه لهذا الصبر من إسماعيل فإن اللّه يعطيه ما هو أفضل من الزروع والثمار ومتاع الدنيا كلها ويكفى أن يكون من ذريته محمد بن عبد اللّه ﷺ سيد الأولين والآخرين .

وعن خلق إسماعيل عليه السلام يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥ ﴾ الحق هناك يقول إن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد ومع أن كل الأنبياء كانوا صادقين فى وعودهم .

ولكن هذه صفة بارزة فى شخصه ، والإنسان يمكن أن يصدق فى موعد أولقاء أو قضاء مصلحة ، ولكن إسماعيل صدق فى حياته التى هى أغلى شيء عند الإنسان فحينما أخبره أبوه أنه رأى فى المنام أنه يذبحه ، لم يتردد لحظة وقال لأبيه : ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فهذا صدق وعد حقيقى لأن الإنسان يصدق الوعد فيما يملكه لكن أن يصدق الوعد فى أمر يتعلق بحياته وهو أمر رآه غيره ولم يره هو ورآه فى رؤيا ، والرؤيا لا يثبت بها الحكم إلا عند الأنبياء ، فشجع أباه على تنفيذ ما رأى ووعده أنه سيكون من الصابرين وأسلم له رقبته ليذبحه .

والذى يزيد من عذاب الإبتلاء على الناس أنهم لا يرضوا به . لكن الذى يرضى بالقدر إما أن يرفعه اللّٰه عنه ، أو يبين للمقدور عليه خير هذا القدر .

ومن هنا نعلم أن كل شيء ينزل علينا من قضاء اللّٰه لا رفع له إلا بالرضا ، فلا يرفع قضاء عن خلق إلا إذا رضوا به ، والرضا بقدر اللّٰه يكون فى كل شيء مثل الموت ، وأقضية الحياة التى لا تسر الإنسان ولا تسعده . فلو أن أحداً أقل منك كفاءة فى العمل ، ولكن جعله اللّٰه رئيساً عليك فلا تناصبه العداء ولا تحقد عليه ، لأنه لا أحد يأخذ ملك اللّٰه غصباً عنه فإذا لم تحترم هذا الإنسان فأحترم قدر اللّٰه فيه ، ولذلك يقول الرسول ﷺ : « اسمعوا واطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ فهذا شيء عادى بالنسبة للأنبياء ولكنها عند إسماعيل عليه السلام خصلة كبيرة . فمن أراد أن يأخذ خصلة من خصال الأنبياء فليأمر أهله بالصلاة . واختص الأهل بهذا

الأمر لأنهم البيئة المباشرة للرجل التى إن صلحت صلح للرجل كل بيته وصلحت له كل ذريته لأنه إذا كان يأمر أهله بأن يذكروا ربهم خمس مرات فى اليوم والليلة فهذا لا يجعل للشيطان مجالاً للدخول بينهم . ولذلك الرسول ﷺ يقول : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه بالماء »[1] .

ولأجل هذه الصفات المذكورة فيه عليه السلام فهو مرضى عند الله وهو مرضى أيضاً لأن الله اختاره واصطفاه رسولاً [2] .

○ ○ ○

---

(١) خرج الحديث

(٢) عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل أصطفى كنانة من ولد إسماعيل وأصطفى قريشاً من كنانة وأصطفى من قريش بنى هاشم وأصطفانى من بنى هاشم » أخرجه مسلم برقم [٢٢٧٦] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » أخرجه البخارى برقم [٣٣٧١] .

وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله : « أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل » صححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم [٢٥٨١] .

الذبيح .. هو إسماعيل عليه السلام

قال اللّه تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات] .

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا فبشره اللّه تعالى بغلام حليم هو إسماعيل عليه السلام لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل فحين يتمنى رسل اللّه من اللّه الذرية فهى ليست كما نتمنى نحن فنحن نريدها ذكرى وعزوة لكن النبى يريد من ابنه أن يكون نموذجًا إيمانيًا يرثه فى حمل الفضائل وتطبيق منهج اللّه .

ولذلك زكريا يقول : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

فقد عز عليه أن عمره لا يتسع حتى يكون جنديا من جنود بعث منهج اللّه فى الأرض فقال يارب نحن سنموت فأدعوك أن تقر عينى بغلام يأتى بعدى ليقوم بهذا العمل .

ومعنى ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لم يقل رب هب لى الصالحين لأنه أراد أن يهب اللّه له من ذريته من هو صالح ولكن من ضمن صلاح غيره فقال ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى ليس هو وحده الصالح ولكن معه غيره .

ومعنى ﴿ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ الحليم هو الذى لا يستفزه غضب ويتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاق نفسه .

وبشرى الله لإبراهيم بالغلام قبل أن يولد هذا الغلام لأن التبشير بشىء يأتى قبل مجيئه ومع ذلك ذكر وصفه معه فهو غلام وحليم لأن الحلم سيأتى معه وهو لا زال صغيرًا وهذا الحليم منه سيظهر فى موقفه من رؤيا الذبح حيث لم يعترض على أبيه لأنه سيذبحه ولكن سلم الأمر لله سبحانه .

هنا انظر إلى التعبير القرآنى فى قوله ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ فبعد البشرى لم يذكر شيئًا عن مجئ هاجر من مصر وحكاية السيدة سارة ولكن بعد البشارة ذكر مباشرة قصة الذبح ورؤيا إبراهيم عليه السلام لأنها يفهمها السامع فلا يذكرها القرآن هنا لأن المتحدث رب وقد ذكرت بعضها فى سورة إبراهيم وقصته ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ تدل على أن الغلام ولد وكبر وبلغ سن السعى مع والده .

ونحن نعرف أن الطفل لا يكلف بأمور إلا على قدر طاقته فى الحركة وعلى قدر عافيته وقوته فهو بلغ السعى ولكن مع والده لا مع غيره لأن عوده لم يشتد بعد .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ فهو يقول لابنه أنه يرى فى المنام أنه مطلوب منه أن يذبحه ! .

فانظر إلى عظمة الرد من إسماعيل عليه السلام لم يقل له : يا أبت أفعل ما تشاء أو ما تريد ولكن قال له ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .

أى أنا أطيع أمرك من باطن أمر ربى فافعل ما يأمرك الله به وهذا يدل على أنه عرف أن هذا الأمر من عند الله لأن رؤيا الأنبياء وهى ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ أى فكر فى هذا الأمر .

وقل لى رأيك فيه فالمطلوب منك شيئّان : طاعتك لأبيك وطاعتك لرب أبيك . فقال الابن ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ .

كلمة ﴿ أَسۡلَمَا ﴾ أى إبراهيم أسلم زمام حركته فى القتل إلى ربه ، أى يارب سأقتله طاعة لك .

وهذا ابتلاء مركب فإبراهيم ابتلى فى شبابه بالرمى فى النار فنجح فى الاختبار ، لكن حين يشيب الإنسان ويكبر يكون حبه لابنه فوق حبه لنفسه ، ولذلك لا يحب أحدًا أحسن منه إلا ابنه لماذا ؟ لأنه الوصل الأخير لحياته .

فاسلام إبراهيم أنه أخبر ابنه بما يرى ، وأنه مستعد للتنفيذ بعد اخبار ابنه .

وإسلام إسماعيل أمره للّه مطيعًا أمره ، راضيًا بقضائه ، فربنا سبحانه حين رأى طاعة الإثنين لأمر اللّه ، وأن إبراهيم ألقى ابنه على وجهه ، وأمسك السكين ليذبحه .

وقالوا إن إلقاء إسماعيل على وجهه جاء باقتراح منه ، حيث طلب من أبيه أن يلقيه على وجهه ويذبحه من عنقه ، حتى لا يرى وجهه خلال الذبح ، فتأخذه عاطفة الأبوة ، وربما تعطله عن تنفيذ أمر اللّه ، فهو يساعده على تنفيذ أمر اللّه تعالى .

ولكن ماذا حدث بعد أن ألقاه على وجهه وشرع فى ذبحه ؟

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات] .

هنا الواو فى ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ ﴾ واو المعية مما يدل على النداء كان مصاحبًا للحركة أى فى الوقت الذى هم فيه إبراهيم بالذبح ناداه ربه أن يتوقف بقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ .

أى هذا امتحان قاس عليك - وكلمة المبين أى الذى يبين قوة عقيدة إبراهيم فى تلقى الأمر الصارم النفسى من اللّٰه - ومع ذلك يباشر تنفيذه دون أن يسأل ربه حكمته .

إن هذا الإبتلاء مركب أولا فقد ولده وموته

ثانيا : يمكن أن يقتله غيره لا إنه يؤمر بقتله بيده .

وهذا كله يأتى برؤيا منامية ، فيأتى الجزاء على قدر عينات الابتلاء ؛ ولذلك كان تدخل السماء رحمة بهذا الشيخ الكبير وابنه .

وقوله : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

والذبح هو المذبوح وهو الكبش العظيم .

إذن .. أمره اللّٰه أن يرفع يده لأنه نجح فى الاختبار هو وابنه ، وفداه بذبح عظيم وبعد أن كان سيموت ، جعله اللّٰه يعيش ، وأعطاه معه إسحاق أيضا رغم كبر سنه ، وبشره بأن من وراء إسحاق يعقوب ليس هذا فقط ، ولكن اللّٰه جعلهم أنبياء فنتيجة التسليم للابتلاء واحد جاءت بكل هذا الخير العظيم .

إذن .. الإسلام للّٰه خير كله يقول الشاعر :

سلم لربك حكمه فلحكمة ... يقضيه حتى تستفيد وتسلما

واذكر خليل اللّٰه فى ذبح ابنه ... إذا قال خالقه فلما أسلما

بعض الناس يقولون إن إبراهيم أخاف ابنه وفزعه أيامًا حين أخبره بأنه سيذبحه ، وكان يمكن أن يفاجئه بالذبح دون أن يخبره به ، نقول لهم : لا هذا كلام غير منطقى لأن إبراهيم كان لابد أن يفهم ابنه المسألة كلها ، لأنه لو فاجأه بالذبح دون أن يخبره بأن هذا أمر من اللّٰه ، فإن الولد سيكره أباه - فكان لابد أن يشرح له المسألة ، حتى يقتنع بها ويصبر حتى يكون الثواب لهما معًا .

ولذلك يقول ربنا ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ .

ومعنى ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى إبراهيم وإسماعيل أطاعا أمر اللّه

ومعنى ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أى وضع جبته على الأرض أو على التل .

إن المعركة بين الأديان فى مسألة إسماعيل وإسحاق ، المسلمون يقولون الذبيح إسماعيل ، وغيرهم يقول الذبيح إسحاق ، والقول بأن الذبيح هو إسحاق مردود عليه بأدلة كثيرة :

الأول : أن مسألة الذبح والفداء مكانها هناك فى الحجاز ولو كان الذبيح إسحاق لكان قد حدث فى الشام[1] .

الثانى : قول النبى ﷺ أنا ابن الذبيحين وهما إسماعيل الذى فداه اللّه بذبح عظيم وعبد اللّه الذى فداه عبد المطلب بمائة ناقة [2] .

الثالث : إن الحق سبحانه وتعالى ذكر قصة الذبيح ثم قال بعدها ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

---

(۱) روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتنى إمرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت أرسل رسول اللّه ﷺ لى عثمان بن طلحة وقال مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول اللّه ﷺ قال إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى .

قال سفيان لم تزل قرنا الكبش « الذى ذبح فداء لإسماعيل عليه السلام » فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة .

(۲) روى ابن أبى حاتم عن معاوية أن رجلا قال لرسول اللّه ﷺ يا ابن الذبيحين فضحك رسول اللّه ﷺ .

وهذه الأدلة من عندنا ، فربما لا يصدقها الآخرون ، لكن من فضل اللّٰه أنه ترك فى كتابهم التوراة مواضع ، يستخلص منها الإنسان الذى يؤيد مواقف الإسلام .

وهذه الأشياء أعماهم اللّٰه عنها ، حتى يظل فى هذه الكتب ما يدل على الحقيقة فيها سواء كان مخالفًا أو غير مخالف .

ولذلك جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين فى سفر الخروج :

« وأوصى اللّٰه إلى إبراهيم أن أصعد بابنك الوحيد جبل الموريا وقدمه قربانًا لي »

ونحن هنا نسأل متى كان إسحاق وحيدًا ؟

مع أن إسحاق ولد وعمر إسماعيل أربعة عشر عامًا كما ورد ذلك فى الإصحاح ٤٢ حيث يقول :

« وولد إسحاق وعمر إسماعيل ٤١ سنة » .

فهذا دليل دامغ من عندهم ومن كتبهم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

○○○

نبى الله لوط عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] لم يقل الحق هنا وإلى قوم لوط أخاهم لوطاً وذلك لأن لوطاً ، لم يكن من هذا المكان . فلوط كان هو وإبراهيم من مدينة بعيدة ثم جاء إلى هذا المكان فراراً من الإضطهاد ، هو وإبراهيم وفى هذه الحالة يكون طارئاً عليهم . ولذلك لم يقل أخاهم ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة ، فعرفوا أخلاقه وصفاته وأنسوا به لفترة من الزمان جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض .

ماذا قال لوط ؟ سألهم مستنكراً ومقرعا ، إن العقل البشرى الفطرى يستنكر هذه العملية القذرة ، وهذا شيء لم يسبقهم إليه أحد ، ولكنهم فعلوه للشهوة والشذوذ عن الطبيعة البشرية ، وكلمة فاحشة هى التزيد فى القبح أى أن الشيء ليس قبيحاً فقط ، ولكنه زيادة فى القبح . فالذى يأتى أنثى بدون زواج تكون فاحشة ولكن يمكن أن يتزوجها بعد ذلك وتصبح حلالاً ، أما إتيان الرجل ففاحشة بمعنى مركب لأنه ليس مخلوقاً لهذه العملية ولا يمكن أن يصير حلالاً أبداً . فهو فحش مركب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أى من بداية ما يقال له أحد أى أنها بدأت بينهم وهذا إستنكار فظيع ، قال عمرو بن دينار : ما رؤى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . فالإنسان وهو خليفة فى الأرض يريد قوتاً ، ويريد إنجاباً ولذلك حين خلق الله الأرض قدر فيها أقواتها ليبقى الإنسان ، وخلق فيها الذكر والأنثى لبقاء النوع ، وعندما

توضع الشهوة فى مكانها يتم الإنجاب ، وإذا عزلت الشهوة عن مكانها ، كان ذلك سببًا فى عدم بقاء النوع ، إذن .. تكون قد أفسدت فى الكون لأنك عطلت الإنجاب ، وعطلت عمارة الأرض .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨١] .

والإسراف هو تجاوز الحد، والله وضع لنا مصرفاً للشهوة وهى المرأة ، وجعلها وعاء للإنجاب فهى تعطينا الشهوة وتعطينا الإنجاب ، ولكن إذا كانت هذه العملية مع الرجال فهى تجاوز للحد لأنها بُعد عما شرع الله ، وانقياد لشهوة الإنسان فى غير ما أحل الله ؛ لذلك فهم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من سورة الشعراء : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء] إستنكاراً لهذا الفعل الشائن الذى إنفرد به قوم لوط على سائر الناس ويقول لهم نبيهم لوط : لماذا تفعلون الفاحشة ، وعندكم حرثكم الذى أنعم به عليكم ربكم زوجاتكم .

فالله جعل للأزواج محلاً للأستنبات فى زوجاتهم ، قوم لوط تجاوزوا محل الاستنبات الحلال واستبدلوه بالموضع الحرام ، والعادى الذى شرع له شيء يقضى إربته وحاجته فيه فتجاوزه إلى شيء آخر حرام .

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : ٥٤] أى وأنتم تتعالمون بها وتتجاهرون مما يدل على أن الكل مجمع على هذه الفاحشة ، وأنه لم يعد هناك حياء أو أن المعنى : كيف تفعلون ذلك وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب

الفساد من عذاب وهلاك . ثم يقول بعد ذلك : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : ٥٥] فى ظاهر الأمر أنها تخالف قوله : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ لأنهم ما داموا يبصرون ويعلمون ويرون فكيف يجهلون .

الجهل هنا ليس ضد العلم ، ولكنه مرادف السفه . فالناس يفهمون الجهل على أنه عدم العلم ، مع أن الأمية هى ألا تعلم والجهل أن تعلم قضية مخالفة للواقع . فالأمى خالى الذهن ، تقول له القضية فيأخذها و كفى ، لكن الجاهل عنده قضية مخالفة فأنت تحتاج معه إلى عملين : أن تنزع الباطل أولاً ثم تدخل له قضية الحق وهذا شىء يحتاج إلى جهد كبير ، فالذى يتعب العالم هو الجاهل لا الأمى .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] قول لوط أشعر قومه بعقدة الذنب وفحش ما يحدث ، فقالوا : الحل أن نخرج لوطاً وقومه من القرية لأنه جاء ليفسد علينا شيئاً نتمتع به ، وحتى فى علة الإخراج لم يكن هناك أى منطق إلا أن لوطاً ومن معه يريدون أن يتطهروا من قذارة هذه القرية وما يحدث فيها . والحق فى آية أخرى يقول : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٧] أى إذا لم تكف عن لومنا ونهينا عن فعل الفاحشة ، لتكون من المطرودين خارج بلدتنا .

قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ [الأعراف : ٨٣] هذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى قد أنجى أهل بيت لوط وأتباعه الذين هم أهل كل رسول . فأهل الرسول هم أصحاب الأعمال الصالحة الذين يتبعون منهجه .

فزوجة لوط لم تدخل فى الإنجاء ، لأنها كانت من الغابرين ، ومعنى الغابرين : أقام ، ومعناها : مضى ، وهذين المعنيين ملتقيان فما دامت لم تخرج مع لوط وبقيت فى مكانها فقد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه العذاب . وما دامت قد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه العذاب فقد أصبحت من الماضين لأنها ستهلك . أصبحت تاريخاً .

كأن اللّٰه يخبر رسوله لوطاً بأن هذه الزوجة لم تكن أهلاً للزواج من نبى ، وخانته فى نبوته ، ستهلك مع العصاة المذنبين ، ستظل فى الدار ولا تخرج معك ضمن من اتبعك من أهلك ، وسيجرى عليها ما يصيب غيرها من الهالكين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] وخيانة امرأة لوط كانت النميمة فقد كانت تخبر الناس إذا نزل به ضيف تعطى إشارة لقومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال . فعرض النبى مُصان عن الزنا وغيره حتى لا يتبادر إلى الذهن المعنى القريب للخيانة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الرسول مع أنه مرسل من اللّٰه لا يستطيع أن يفرض إيماناً حتى على امرأته ، لأن حرية الإعتقاد وحرية العقيدة قد كفلها اللّٰه للإنسان ، ليكون الحساب عدلاً فى الآخرة . فاللّٰه ضرب المثل برسولين من رسل اللّٰه لم يستطيعا أن يرغما زوجتيهما على الإيمان . وضرب اللّٰه مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ليرينا أن فرعون المتجبر مدعى الألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن به وتكفر باللّٰه .

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٧٤] هل كان إبراهيم يجادلهم فى تعذيب قوم لوط ؟ ويطلب إعطاءهم مهلة عسى أن يؤمنوا لأن قلبه رحيم ؟ الحق تعالى قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] والحليم لا يعجل بالعقوبة ، وأواه يتأوه وهو من رقة القلب ، ومنيب أى يعود ويرجع ، فهو حليم لا يحب العجلة فى العذاب ولذلك يقول يارب اتركهم قليلاً علهم يتوبوا ويؤمنوا ، ومتأوه للَّه سبحانه وتعالى يرجوه أن يرحمهم ومنيب أى عندما يعرف الحق يلجأ إليه ويلتزم به . ولذلك عندما قالت الملائكة : ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود : ٧٥] .

فقد انتهى الجدل تماماً وما دام أمر اللَّه جاء فله حكمة ولم يجادل ، حيث أن العذاب الواقع بهم لا جدال فيه ولا شفاعة ولا يرد ، لأنه أمر اللَّه فلا يستطيع أحداً رده .

ويقال إن إبراهيم عليه السلام فى جداله مع الملائكة ، قال لهم : إذا كان فى قوم لوط خمسون يؤمنون باللَّه أتعذبونهم ! قالوا : لا ، قال وخمسة وعشرون قالوا : لا ، قال وعشرة قالوا : لا ، قال وواحد قالوا : لا قال إن لوطاً فيهم ، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٢] إلى هنا توقف الحديث بين إبراهيم والملائكة .

ويذهب الملائكة الذين أرسلهم اللَّه إلى لوط لتنفيذ مهمتهم ، ماذا حدث عندما وصلوا إلى لوط ؟ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ [هود : ٧٧] .

لماذا ؟ لأنه عندما رأت امرأة لوط هؤلاء الرجال قادمين صعدت إلى سطح البيت وأوقدت ناراً لتحدث دخاناً كثيفاً إشارة إلى القوم أن هناك ضيوفاً قد وصلوا ، وأنهم حسنوا المظهر ويستحقون أن يفعل بهم آل لوط ما يفعلونه بالرجال .

فلوط حين وصل إليه القوم ، قال : هذا يوم عصيب يعنى يوم صعب لأنه يلاقى فيه أذىً كثيراً . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ٧٨] . فلا أحد يخشى أو يمتنع لأن ما يفعلونه مع الرجال من الفاحشة قد تعودوا عليه . أقبل قومه على بيته بسرعة وإندفاع وفى أعداد كبيرة وهو يعلم نيتهم من سوابقهم. فقال لهم : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] .

ومعلوم أنه لم يؤمن برسالة لوط عليه السلام إلا هو وبنتاه ، إذن .. فلم يكن المقصود بنتيه لأنهما لا يكفيان هذا العدد الكبير . إن لوطاً يحاول أن يهدى قومه ويدفعهم إلى الزواج ولذلك فقوله بناتى يعنى بنات القرية بدليل قوله : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أى أن زواجكم من البنات أطهر لكم مما ترتكبونه من فاحشة مع الرجال ، فالزواج شريعة اللّه والفاحشة مع الرجال إثم عظيم ، وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ﴾ الخزى هو الفضيحة أمام الناس وقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أى رجل يقف مع الحق ويمنع هذه المهزلة .

قوم لوط أرادوا أن يحاجوه بالباطل فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩] . يعنى أنت تعلم أنه ليس لنا حق فى بناتك وأنت تعلم أننا لا نريد البنات ولكننا نريد ضيوفك ذوى الهيئة الحسنة لنرتكب معهم الفاحشة . فأحس لوط بالضيق الشديد والعجز فقال كما يقص

علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أتمنى أن أجد من الأقوياء من ينصروني عليكم فآوى إليهم ليدافعوا عني .

عندما بلغ الضيق بلوط منتهاه ، تكلمت الملائكة ، فماذا قالت : ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ أطلعوه على الحقيقة ، وهى أنهم لم يأتوا ضيوفاً ولكنهم رسل من اللّٰه ، وأهل القرية لن ينالوا منهم شيئاً ولن يصلوا إلى لوط نفسه . ثم أبلغوه أوامر اللّٰه بأن يخرج بأهله ليلاً ، دون أن تتجه أنظارهم أوقلوبهم إلى ما تركوه إلا امرأته فإنه سينزل بها العذاب ، وأبلغو لوطاً عن موعد العذاب بأنه الصبح .

ماذا حدث بعد ذلك لقوم لوط ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٤] المطر عادة هو الذى يأتى بالخير والماء ولكن هذا المطر لم يكن خيراً ولم يكن ماء بل كان حجارة إنهالت عليهم من السماء ، فأعتبر يامن تسمع هذه القصة بما يحدث للمجرمين الذين يصادمون ويعاندون دعوة اللّٰه ويصرون على المعصية فينزل عليهم غضب اللّٰه .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود : ٨٢] أى قُلبت رأساً على عقب ، وكون هذا الإنتقام ، جعل عاليها سافلها فلا بد أنه كان إنتقاماً منظماً ومدبراً بدقة .

وقوله تعالى : ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ [هود : ٨٣] أى معلمة كل حجر ينزل على صاحبه مثل الصواريخ الموجهة كل صاروخ متجه لهدف معين بدقة لا ينحرف عنها .

وقوله تعالى : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أى منظمة ولها أوامر خاصة بها من اللَّه سبحانه وتعالى متى أمر إنهمرت معدة من قبل وموجودة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] أى أن هذه الحجارة معلمة وموجهة ، ومساكن لوط قريبة من الكفار يستطيعون أن يذهبوا إليها ليروا آثار عذاب اللَّه ، فليحذر كل ظالم ، فإن عقوبة اللَّه ليست ببعيدة عنه ولا هو بمنأى عنها .

ooo

نبى الله إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات] .

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة ولما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر] .

وقال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الذاريات] .

هذه الأيات قد تعرضت لقصة البشارة بإسحاق وبعض الناس يظن أنها تكرار نقول لا إنها قصة متكاملة تعطى كل أية منها لقطة لم تأت فى الأية التى قبلها فإذا جمعت كل اللقطات تعطينا القصة كاملة .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [هود : ٦٩] ورسلنا جمع رسول والرسول بشر يرسله الله ليهدى الناس إلى منهج الله .

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] فكما يصطفى الله من البشر رسلا يصطفى من الملائكة رسلا إلى الرسل من البشر والضيف هو الذى يميل لأن الذى يذهب عند واحد فقد مال إليه ليطلب قراه أو ليطلب جواره أو ليطلب الأنس به .

ولذلك يسمون الضيف الذى مال إلى أحد المنضوى

وضيف لفظ مفرد يطلق على الواحد والواحدة والإثنين والاثنتين وجماعة الذكور وجماعة الإناث فتقول جاءنى ضيف فأكرمته جاءنى ضيف فأكرمتها - جاءنى ضيف فأكرمتهما - جاءنى ضيف فأكرمتهم جاءنى ضيف فأكرمتهن .

فكلمة ضيف هى للجمع بدليل قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ ولذلك يقول الحق : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] .

إذن .. فالحق جل جلاله حين أرسل ملائكته إلى إبراهيم ، أرسلهم بالبشرى وهذه الكلمة تبين لنا أن الذى يأتى من السماء هو بشرى لأهل الأرض ، والبشرى هى الإعلام بخبر سار سيقع فى المستقبل .

وعندما دخل الملائكة على إبراهيم قالوا سلامًا ، ونلاحظ هنا استخدام النصب بدلاً من الرفع ، لأن سلامًا دلت على أن هناك فعلا نسلم سلامًا ،

والفعل يدل على التجدد ، بينما سلام يدل على الثبوت ، لك منا سلام ، فإبراهيم حيًا بالأحسن ، الملائكة قالوا سلامًا « تجددى » وقال هو سلام « استمرارى » ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴾ [هود : ٦٩] ، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ [الذاريات : ٢٦] .

أى بمجرد أن دخلوا وسلموا أحضر العجل .

وكلمة « راغ » معناها : أنه تسلل خفية حتى لا يراه أحد ولا يشعروا بخروجه حتى لا يحرجهم .

والعجل هو ولد البقرة ، وحنيذ معناها شوى ، على الحجارة فالشواء يشوى مرة على اللَّهب ، ومرة يشوى على الفحم ، ومرة يشوى على الحجر ، بأن يعرض الحجر للَّهب شديد حتى يحمر ثم يشوى عليه العجل – الشواء على الحجرْ هو أنظف أنواع الشواء .

إن إبراهيم كان يحب الضيوف ، واليوم الذى كان لا يأتيه فيه ضيف يحزن ، – وساعة رأى وجوها جديدة ، قدمت عجل بالطعام – وهذا أيضًا يمثل الكرم لأنه عندما يأتيك ضيف لم تعرف كم ساعة مضت عليه وهو لم يأكل فتأتى له بالطعام بعد أن يدخل عندك – فإن كان جائعا أكل وإن كان شبعان لم يأكل .

وهذه القصة انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يحتن عليهم أولا فيقول نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتى سمين مشوى فقربه إليهم ولم يضعه ويقول اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمرًا يشق عليهم بصيغة الجزم بل قال ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل اليوم إن رأيت أن تتفضل وتتكرم .

وهذا يدلنا على سلوك إبراهيم الإيمانى ، عندما جاء الملائكة على هيئة بشر لم يطلبوا منه طعامًا ، ولكنه جاءهم بالطعام دون أن يطلبوه ، فإذا جاءك ضيف لابد أن تأتيه بما يأكل وما يشرب ، فإذا امتنع عن الأكل تلح عليه كما قال لهم إبراهيم ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

قال أحد العارفين إنه عندما قال إبراهيم للملائكة ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قالوا لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمنه ، فقال إبراهيم مما علمه اللّٰه من حكمة النبوة : ثمنه أن تبدأوا ببسم اللّٰه وأن تنتهوا بقولكم الحمد للّٰه ، فالثمن باسم اللّٰه أولا والحمد أخيرًا فتكون قد أديت للطعام حقه .

وعندما رأى إبراهيم أيديهم لم تُمد إلى الطعام نكرهم .

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود : ٧٠] .

لماذا وجل منهم ؟ لأنهم جماعة جاءوه وهو لا يعرفهم ، هذه واحدة ودخلوا عليه بغير استئذان ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ [الحجر : ٥٢] .

فكأنه لم يقل : ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : ٥٢] . إلا بعد أن أوجس منهم خيفة - والوجل اضطرب فى النفس وقلق فيها من خوف ما يتوقع من المكارة .

فعندما لاحظ إبراهيم عليه السلام ، أنهم لا يأكلون خاف منهم ، ولكن هذا الخوف ظل حبيسًا من نفسه ، ولم يقم بأى فعل يظهر خوفه كأن يترك المجلس ويمشى أو ينادى على اتباعه أو يفعل أى فعل آخر ، ولكن الملائكة أحسوا بخوف إبراهيم فأرادوا أن يطمئنوه بأنهم لم يأكلوا - ليس لأنهم جاءوا يقصدون الشر - ولكن لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون - جاءوا لينفذوا مهمة كلفهم اللّٰه بها .

فقالوا كما يروى لنا القرآن : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ عندما قالوا لإبراهيم : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٧٠] فهم أنهم ملائكة مع أنهم كانوا فى هيئة رجال ، والملائكة يتشكلون بشكل الرجال ، فجبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ على هيئة دحية الكلبى ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ فكم بشارة بشرها بها الملائكة ؟

البشارة الأولى : أن الملائكة لم يحضروا لعذاب قوم إبراهيم لأنهم لم يرتكبوا مخالفات .

والثانية : أنهم جاءوا لقوم مجرمين هم قوم لوط الذين اتعبوا نبيهم وأفسدوا فى الأرض .

والبشارة الثالثة : بشروها بغلام ، ومسألة الغلام كانت تتمناها من زمن طويل ، لأنها عاقر ، وإن كان وقته قد فات ، لأنها كانت قد بلغت من العمر مائة وعشرين عامًا ، بشروها بأنها بعد هذا العمر الطويل ، ستلد ابنا وأنها ستكون جدة وسيكون لها ابن ابن هو يعقوب ، استقبلت البشارة الأولى بالضحك ، والثانية بالإطمئنان ، والثالثة بالدهشة ؛ قالت كما يروى القرآن الكريم : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود : ٧٢] .

ساعة تقول : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ فإنك تفهم أن الفاجعة صعبة عليها - كيف سيحدث لها أن تحمل وهى عجوز وزوجها شيخ كبير .

ودقة التعبير أن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول وكذلك الزوج يقوم بأمر الزوجة ولا يحوجها لأحد .

والبعل هو النخل الذى لا يحتاج فى زراعته أن يُسقى وإنما يكتفى بما يمتصه من الأرض وما ينزل من مطر السماء .

والشيء العجيب هو الذى يقع على غير انتظار ويخالف سنة من سنن الكون .

وإبراهيم عليه السلام فى سورة الحجر لم يقل عن زوجته إنها عاقر أو عجوز بل قال : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : ٥٤] ولم يذكر أن زوجته عاقر وعجوز ، ولم يأت بسيرتها حتى لا يحرجها ، ولكن امرأته حينما تكلمت جاءت بسيرة زوجها فقالت : ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ .

ولكن الملائكة تبشرهم بغلام عليم ؛ ولكن هل الغلام يوصف بأنه عليم ؟ لا يوصف بهذا وهو غلام ، ولكنهم يبشرونه بأنه سيصير إلى مرتبة أن يكون عليمًا ، فكأنهم أعطوه صفة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ أى بشرتمونى بالغلام العليم مع أن الكبر مسنى فهنا ﴿ عَلَىٰٓ ﴾ بمعنى « مع » فالكبر مصاحب لى فكيف ستبشروننى ؟

ولذلك جاء القرآن بـ ﴿ عَلَىٰٓ ﴾ هنا ليدل على أن خلق اللَّه أعلى من قانون التكوين ، لأن الكبر كان يوحى أنه لا إنجاب ، ولكن لما أراد اللَّه سبحانه ذلك فلا راد لمشيئته ، قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

فكأن قانون الكبر لا يعطى ولدًا لكن هبة اللَّه أعلى من هذا كله .

إن السيدة سارة هى التى زوجت هاجر لإبراهيم ، ولكن لما أنجبت هاجر ولم تنجب هى حدث فى نفسها شىء مما يحدث للنساء فى مثل هذا الموقف .

وأخذت تلح على إبراهيم أن يدعو ربه أن يرزقه بغلام منها فاستجاب الله دعاءه وأعطاه الولد .

ولذلك ردت عليها الملائكة : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾ .

أى أن ما سيحدث هذا من الرحمن ومن البركة لماذا ؟

﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ .

○ ○ ○

نبى الله شعيب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود] .

ومدين هو اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام .

وشعيب عليه السلام ، ككل رسول جاء إلى قومه أُختير من أهله وعشيرته ، ليكون معروفاً لهم قبل الرسالة وبعد الرسالة .

وقوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ يعنى إياك أن تأخذ الأمر بـ « أفعل ولا تفعل » إلا من اللّه سبحانه وتعالى فلا تكليف من أحد آخر لأن هناك إلهاً واحداً .

وحينما جاء شعيب إلى قومه يطلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان ، فالذى يحكم البائع والمشترى هو المكيال والميزان ، فإنك إن كنت مشترياً فالمطلوب من البائع أن يعطيك حقك ، ومن جانبك عليك أن تعطيه حقه ، فالقضية ليست قضية كتل يوزن بها ولكنها قضية حقوق الناس فيما بينهم . وساعة ترى مجتمع أختلت فيه قضية المكيال والميزان عليك أن تعرف أن المجتمع قد اتبع هواه ، وأنه أنصرف عن الحق . أى أنه مجتمع تضيع فيه حقوق الناس .

على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ لأن عندكم ما يكفيكم من مال لحياتكم ، وما يغنيكم عن سرقة غيركم ، فاكتفوا بالخير الذى أمدكم اللّه به وليأخذ كل واحد منكم حقه .

وقوله تعالى : ﴿ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ أى عذاب يوم لن يفلت منه أحد فعذاب الدنيا من الممكن أن يحتال البعض للنجاة منه ، ولكن فى الآخرة لن ينفع شىء من هذا .

قوله : ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ ﴾ [هود: ٨٤] إذن .. فقوله : ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ﴾ و ﴿ أَوۡفُواْ ﴾ الاثنان مطلوبان لأنه ليس المقصود هو المكيال ، وإنما الكيل بإطلاقه ، وليس المقصود هو الموزون ، ولكنه الميزان بإطلاقه ، فأعدل ولا تنقص ولا تزد ، واقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ ﴾ [المطففين] .

إذن .. فالمطلوب لا إفراط ولا تفريط لا زيادة ولا نقص .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [هود : ٨٥] .

البخس : هو الضرر إما بالنقص إذا كان للشىء حجم ، أو كم ، أو كيل ، وإما بإنقاص القيمة المعنوية للشىء وهذا من الظلم بل هو الظلم بعينه وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهى عنه فى الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ فالإنسان مطالب بعمارة الأرض وإصلاحها ، وأقل الصلاح أن تترك الصالح على صلاحه ، فإن استطعت أن ترقى به فأفعل .

وقوله : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، أى : إن كنتم تؤمنون بأن اللّه رقيب عليكم ، وأن اللّه قيوم ، وأنكم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً دون أن يراكم ، فراقبوا اللّه فى أعمالكم ، وأقنعوا بما آتاكم حلالاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : ٨٦] أى : أنا لا أستطيع أن أحافظ عليكم من النار ، بل كل واحد يحافظ على نفسه ؛ ولذلك فإن كل عمل تعمله لا تنظر إلى قيمته الدنيوية ، بل احرص على قيمته فى الآخرة . وما دمت قد رضيت ببقية من اللّه لها بركة فهذا خير لك من الحرام الذى لا يأتى إلا بالشر ، ولا يعطيك إلا كل ما يؤذيك فى الدنيا وفى الآخرة .

ماذا كان داء قوم شعيب ؟ الداء الذى كان منتشراً فيهم علمناه من قول اللّه تعالى : ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الشعراء] أى : اجعلوا ما تكيلون به صحيحاً ، ولا تغشوا فيه ، ولا تكونوا من المخسرين ، والمخسر هو الذى يخسر الذى يقابله إن كان يشترى فهو يزيد فى وزن السلعة التى يشتريها ، وإن كان يبيع فهو يجعلها أنقص من وزنها الحقيقى ، ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى : اجعلوا للناس أشياءهم .

إذن .. كل شىء ينقص بالأخذ منه أو بغصبه ، أو بالتصرف فيه عن غير رأى وإذن صاحبه ، كل ذلك يسمى بخساً للشىء .

بماذا رد قوم شعيب على ما قاله شعيب لهم ؟ قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ [الشعراء : ٨٧] وكلام قوم شعيب هنا على شكل تهكم ساخرين مستهزئين رداً على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل ، فى المعاملات وترك عبادة الأوثان التى توارثوا عبادتها عن أبائهم . وإنما خصوا

الصلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التى دعاهم إليها ، لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، ولأنهم يغمزونه فى صلاته بأنها وسوسة خاطر وليست من السماء ، وينكرون بهذا التهكم كل ما دعاهم إليه من عبادة اللّٰه وحده وسائر الفضائل .

بماذا رد شعيب عليه السلام على قومه ؟ وماذا قال لهم ؟ : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] أى يا قوم إن كنت على يقين وحجة ومنهج صادق من ربى ، وأعطانى الخير كله من علم ورزق وأعطانى قبل ذلك كله النبوة ، ثم جاء شعيب بالحجة الدامغة فقال : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ ذلك أن صاحب المنهج المعوج والرسالة غير الصادقة ، يأمر الناس أن يفعلوا شيئاً وهو يفعل عكسه ، فشعيب يقول اللّٰه سبحانه وتعالى اصطفانى بالنبوة وتلقيت الوحى منه وكلفنى بإبلاغ المنهج ، وسأكون أول مطبق له ، ولن تجدونى أفعل أبداً ما أنهاكم عن فعله .

ثم يقول لهم : ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ أى : لا أريد إلا الإصلاح .. صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتى واللّٰه لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفق فى العمل ، فقد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة للّٰه ، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق ، لأن الأعمال بالنيات وبالإخلاص للّٰه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ غير قوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فإذا قلت توكلت على اللّه ، قد تعنى أنك توكلت على اللّه وعلى فلان . ولكن قولك : عليه توكلت أى لا أتوكل على أحد غيره . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى : أرجع إليه فاللّه سبحانه خلقنا من عدم فى البداية ، ثم إليه مرجعنا جميعاً فى النهاية .

وما دامت المسألة أن التوفيق بيد اللّه ، وعليه التوكل وإليه العودة ، فأنت غير محتاج إلى غير اللّه عز وجل ، فاللّهم إنى أستغفرك من كل عمل قصدت به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك أى دخلت فيه الدنيا ولو قليلاً .

يقول شعيب لهم : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩] أى لا يجعلنكم تجرمون ، وتحملكم عداوتكم لى ، واختلافكم معى ، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم لوط من النقمة والعذاب . ويحذرهم : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ أى أن قوم لوط قريبون منكم زمناً ومكاناً ولو أنكم فكرتم قليلاً لعدتم إلى اللّه تعالى .

ثم يقول شعيب لقومه : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] أى رغم كل ما فعلوه فإن باب التوبة مفتوح ، ولا يتطلب منكم إلا أن تستغفروه من الذنوب التى سبقت ، وتوبوا إليه فلا تعودوا لهذه الذنوب أبداً ، واللّه تبارك وتعالى رحيم ودود ، لا يرد من يقف ببابه ، رحمته سبقت عذابه ، ومغفرته تسع الذنوب جميعاً ، وهو سبحانه رحيم واسع المغفرة وودود محب لعباده .

عندما لفت شعيب قومه إلى أن اللّه سبحانه وتعالى رحيم ودود وطلب منهم أن يستغفروه ليغفر لهم ويتوبوا إليه .. ماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١] ، أى : نحن لا نفهم ما تقوله ، والحقيقة إنهم لا يريدون أن يفهموا ، ونحن نرى أنك ضعيف لا تتحمل وقوفاً أمامنا ، ولولا أهلك لقتلناك رجماً بالحجارة ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ، أى : أنت لا تعز علينا فليس لك منعة عندنا ولا عزة ، فنستطيع أن نأتى بك فى أى وقت وأن نفعل بك ما نشاء وذلك علينا هين .

قال شعيب عليه السلام يذكر قومه بمن هو أقوى منهم : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : ٩٢] أى أنكم تخافون عائلتى ، وهم عدة أفراد فتمتنعون عن إيذائى خوفاً منهم ، ولكنكم لا تخافون اللّه القادر على أن يهلككم ، بينما أنا رسول اللّه يحمينى اللّه بقوته وقدرته .

وقوله : ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى لم تحسبوا له حساباً ولم تخشوه ، ثم يلفتهم إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل ما يفعلونه ظاهراً وباطناً ، فيقول : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أى يعلم ما تفعلونه علم إحاطة لا يخفى عليه شىء ، ولكنكم أنتم نسيتموه وخفتم بعض خلقه أو رهطاً من خلقه .

ثم يقول لهم شعيب كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] تلاحظ هنا أن شعيباً قد

أخذ لهجة التهديد .. لماذا ؟ لأنهم خافوا من أهله ونسوا اللّٰه ، فأراد أن يعلمهم أنه مستند إلى أقوى قوة ، وهى قوة اللّٰه تعالى خالق كل شيء ، وهو بكل شيء محيط .

أى اعملوا أنتم على قدر إمكاناتكم ، وعلى قدر ما تستطيع الدنيا أن تعطيكم بأسبابها ، وأما أنا سأعمل على إبلاغ منهج اللّٰه ، ولن أسكت عن الدعوة وسوف تعلمون قريباً من يأتيه العذاب والخزى فى الدنيا والآخرة . سيبين لنا الزمن المستقبل من الذى سيأتيه العذاب والخزى ، ومن الذى سيكون له النصر .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف : ٨٦] معناه لا تقدموا الغواية بطرق مختلفة الى الناس ، مستخدمين فى ذلك الغواية أو التهديد ، وكل قصدكم من ذلك هو أن تقنعوا الناس بعدم إتباع شريعة اللّٰه . كأن يأتى إنسان ليقول لك : لماذا حرم اللّٰه الخمر ؟ مع إنها تجعلك مسروراً ومنسجماً ويظل يزين لك الخمر حتى تقع فى المعصية ، أو يقول لك إن الربا يزيد مالك وينميه ، فلماذا حرمه اللّٰه ؟ وهكذا يحاول الشيطان أن يبين للناس أن الطرق المعوجة هى التى فيها فائدتهم ، وينفر الناس من الطريق المستقيم ، مع أن سبيل اللّٰه هو الذى فيه الخير وكل ما حرمه اللّٰه هو شر كبير للإنسان .

وفى لفته أخرى يقول اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] الناس صالحين لعمل الخير وعمل الشر بحكم الإختيار المخلوق فيهم من اللّٰه . إذن فلابد لأى منهج أن يرغب فى الخير ويرهب من الشر . والحق سبحانه وتعالى يذكر هنا الناس ويرغبهم فى الخير فيذكرهم بنعمة اللّٰه أنهم كانوا قليلين فى العدد فكثرهم .

وهذا الجانب هو جانب الترغيب ويأتى بعد ذلك الترهيب .. إذا لم تعبدوا الله سبحانه وتعالى طمعاً فى خيره ، فأعبدوه خوفاً من بطشه وانتقامه ، واذكروا ما حدث لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط الذين عصوا الله فأهلكهم بذنوبهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

قول الحق : ﴿ فَٱصْبِرُواْ ﴾ الأمر للأثنين معاً للمؤمن والكافر . فالصبر بالنسبة للمؤمنين هو لحملهم على الصبر ، لأن الكفارهم المترفون والعالون فى الأرض والمؤمنون يصيبهم أذى على أيدى الكفار والحق سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين : أن اصبروا على ماتلاقون لأن هؤلاء سيصيبهم من العذاب ومن الهوان الكثير ، وأنتم ستصبرون عليهم سنوات معدودة ولكنهم سيخلدون بعد ذلك فى النار ، وحين يعرف المؤمن ذلك تشتد عزيمته ويهون عليه كل ما سيلقاه ويقوى على الصبر ، فلا ييأس ولا يستسلم .

أما بالنسبه للكافرين ، فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱصْبِرُواْ ﴾ معناه انتظروا قليلاً فما هى إلا فترة محدودة ثم يأتى أجلكم ، وتردون إلى الله ، وحينئذ تلقون جزاء كفركم وصدكم عن سبيل الله ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ ﴾ أى : حتى يصبح الأمر كله لله بلا إختيار بشرى فى أن يفعل الإنسان أولا يفعل .

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب عندما جاءهم هذا الترغيب وهذا الترهيب من الله ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ

مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨] الملأ الذين إستكبروا هم السادة والأعيان والمترفون الذين يقفون أمام كل دعوة حق ، لأنها ستسلبهم الميزات التى يتمتعون بها من أكل حقوق الناس وظلمهم ، ومعنى تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين أنهم سيخرجونهم من المكان الذى تتوافر فيه كل متطلبات الحياه إلى مكان قفر لا يصلح للحياة . فكأن المترفين من الذين يقاومون المنهج قد أعطوا لشعيب ومن آمن معه خيارين : إما أن يعودوا كفاراً ، أو يخرجوا من القرية .

بماذا رد شعيب عليه السلام على القوم الكافرين ؟ ﴿ ... أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف] .

دليل على أن المؤمنين يعرفون أن دين اللّٰه هو الحق . ولذلك إذا عادوا إلى ملة الكافرين يكونون قد افتروا الكذب لأنهم يعرفون الحقيقة ويقولون غيرها ، وقولهم : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ ﴾ أى أن اختيارنا كان إلى جانب الحق فنجونا .

أما قولهم : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

فهذا القول منهم اعترافًا بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى فى كونه ، فما شاء اللّٰه كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم بعد ذلك ماذا قال شعيب والمؤمنون بعد أن أعلنوا أنهم توكلوا على اللّٰه : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] أى ربنا أحكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت لا تحكم إلا بالحق : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٠] والخطاب هنا من أئمة الكفر لأتباعهم لما رأوه من قوة وشجاعة وثبات الذين مع شعيب . أى لئن أطعتم شعيب فدخلتم فى دينه وتركتم ملة آبائكم ، إنكم حينئذ لخاسرون دينكم الذى أنتم عليه ، وخاسرون دنياكم بفقدان مزاياكم التى تتمتعون بها بيننا من المسالمة والتبادل التجارى والرضا عنكم والإخلاص لكم وفقدان المكاسب التى تحصلون عليها بالبخس وتطفيف الكيل والميزان وغير ذلك .

بعد أن فصل شعيب لقومه ما هو مطلوب منهم ماذا كان ردهم على نبيهم ؟ قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

فهناك اتفاق فى اتهام الرسل فى شيئين : بأنهم مُسَحَرِينَ ، وأنهم مثلهم ، وما دام مسحرا فلن يسمعوا له لأنه مجنون ، وما دام بشر مثلهم فلماذا يتميز عليهم بالرساله ؟ وأنت بشر مثلنا وما نظنك إلا من الكاذبين ، وإن كنت صادقاً فيما تقول فأسقط علينا قطع العذاب من السماء ، فهم يستعجلون نزول العذاب عليهم ، وهذا دليل على حماقتهم لأنهم لو كانوا عقلاء لقالوا : اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا إليه ووفقنا لإتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب واستعجلوا العقوبه .

ولكن ماذا كان رد نبى اللّه شعيب عليهم ؟ ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى ربى يعلم أحوالكم ، ومطلع على سرائركم ، فإن اللّه سبحانه وتعالى يعلم أن فى قلوبكم خيراً ، وأنكم ستندمون وتتوبون إليه ، سيؤخر عنكم العذاب

ويحفظكم منه ، وإذا علم أنكم مستمرون على كفركم وعنادكم فسينزل عليكم العقاب الذى تستحقونه من عذاب الهلاك والإستئصال . فأنا لا أعلم ما سيفعله بكم ربى ، ولكنى أكل الأمر لصاحب الأمر الذى يعلم أمرى وأمركم .

مضى كل جانب يرتقب .. شعيب والذين آمنوا معه يرتقبون نزول العذاب والخزى بالكافرين . والذين كفروا ينتظرون الفرصة المواتية ليقضوا على شعيب ومن آمن معه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ وكلمة ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ معناها معالجة أى أنه كان محشوراً فى العذاب فقضى الله له بالرحمة ، والرحمة هى : ألا يصيبك مكروه .

والحق سبحانه و تعالى يقول : ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ... ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] أى كأنهم لم يوجدوا فيها . تمر على هذه الديار فلا تشعر أنهم كانوا يعيشون فيها من قبل .

وقوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : ٩٥] أى أن الذى أخفى ثموداً ، وما فعلت ، وما حدث لها ، يخفى قوم شعيب ويبعدهم عنا فى الدنيا والآخرة .

ويقول الحق تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١] والرجفة : هى الهزة العنيفة التى ترج الإنسان رجاً ، وجاثمين : أى جالسين على ركبهم وقد ماتوا على هذه الهيئة إمعاناً فى إذلالهم فهم استكبروا فى الأرض فأراد الحق أن يميتهم أذلاء .

وقول الحق : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٢] أى : أن القرية التى كانت غنية بمن

كذبوا شعيبا أى أقاموا فيها مدة طويلة ، كانوا هم الخاسرون ، أى : خسروا كل شيء ، جاه الدنيا ونعيم الآخرة .

ماذا فعل شعيب بعد أن أخذ الله الكافرين بالعذاب ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٣] فكأن شعيبا قال للكافرين بعد أن أخذتهم الصيحة : أنه قد أبلغهم رسالة الله ونصح لهم وألح عليهم أن يعودوا إلى رشدهم ، فهو لم يقصر فى حقهم . ولذلك فهم لا يستحقون الشفقه لأنهم أصروا على الكفر .

قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٨] الأيكة مفرد أيك والأيك هو الشجر الكثير الملتف والمثمر ، ثم يقول الحق : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٩] وشعيب إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة فكانوا مثل ضاحية بينهم ؛ وكذلك جاءت التثنيه فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ فقد ضم إليها أهل مدين أيضاً وقوله ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى طريق واضح ، هذا الطريق الواضح يأتم به السائر ليصل إلى بر الأمان باتباع منهج الله .

وقد قال سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] لما استمر القوم فى تكذيبهم لرسولهم وتمسكوا بضلالهم وكفرهم ، عاقبهم الله بعذاب يوم الظلة ، وهو عذاب مشهور حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، وحجز عنهم الريح إلا بمقدار ما يمسك رمق الحياة ، فصارت حياتهم لا تطاق من شدة الحر ، فالتمسوا غمامة تظلهم رأوها قادمة فى الجو فهرعوا نحوها مسرعين ، فلما اقتربوا منها أنزلت عليهم ناراً أحرقتهم وأبادتهم .

○○○

نبي الله يعقوب عليه السلام

هو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام ، ومن نسله جاء أنبياء بنى إسرائيل[1] .

فالنبوة كانت فى ذرية إبراهيم من ولديه إسماعيل وإسحاق كما قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

---

(١) قال ابن كثير : ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج من « رفقا » بنت بتوابيل فى حياة أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين : أولهما أسمه : « عيصو » وهو الذى تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم . والثانى خرج وهو أخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل .

قالوا : وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما رفقاً تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر .

وقد دعا إسحاق ليعقوب أن يكون أكبر أخوته قدرا ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب من بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .

ودعا إسحاق لعيصو أن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم .

وذكروا أن عيصو تواعد يعقوب بالقتل إذا مات أبوهما . فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان » الذى بأرض حران وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه وأن يتزوج من بناته ، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل .

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء فى موضع فنام فيه ، فرأى فى نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له : إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك . =

= فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنن فى هذا المكان معبداً للّه عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره ، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهناً يتعرفه به وسمى ذلك الموضع « بيت إيل » أى بيت اللّه وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك .

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان : اسم الكبرى « ليا » واسم الصغرى « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما وقد تزوج الكبرى ثم بعد ذلك تزوج الصغرى وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة وهذا وحده دليل على وقوع النسخ .

وقد ولدتا له أولاد كثيرة خلال فترة إقامته عند خاله والتى امتدت إلى عشرين سنة فطلب من خاله فى نهاية هذه المدة أن يسرحه ليمر إلى أهله وكان ذلك بوحى من اللّه تعالى أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعده بأنه سيكون معه .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم ، وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة رجل فخشى يعقوب من ذلك ودعا اللّه عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن له وناشده عهده ووعده الذى وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص وأعد لأخيه هدية عظيمة .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة رجل فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان وكان مشروعاً لهم ، فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى . ورجع العيص ولحقه يعقوب بأهله قاصدين جبل « ساعير » ثم فر على أورشليم فضرب هنالك فسطاطة وابتنى فسماه « إيل » إله إسرائيل وأمره اللّه ببنائه ليستعلن له فيه وهو بيت المقدس اليوم الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التى عملها بوضع الدهن عليها من قبل . =

والقرآن نص على نبوة يعقوب ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وأثنى الله عليه بقوله : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة ص] .

ونبى الله يعقوب الذى ابتلاه الله كثيرًا فحاول أبناؤه قتل أخيهم يوسف ، وتعذب يعقوب كثيرًا وصبر على ابتلاءات الحق ؛ لأنه يعلم أن الابتلاء كان طريقًا ليصطفيه الله .

ولقبه إسرائيل وهى مأخوذة من كلمتين من العبرية » إسر « يعنى عبد مصطفى مختار و « إئيل » يعنى الله ، أى : أن الكلمة بترجمتها هى صفى الله أو عبد الله ، وقد أخذ نبى الله يعقوب هذا الاسم ؛ لأنه ابتلى بلاء كبيرًا استحق به أن يكون حفيا لله .

ولم يذكر القرآن شيئًا عن حياة يعقوب الخاصة سوى ما ذكره عن فقدان ابنه يوسف وما جرى فى ذلك من أحداث سنعرفها كلها فى قصة يوسف عليه السلام .

= وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية « حبرون » التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه أبناه العيص ويعقوب مع أبيه الخليل إبراهيم فى المغارة التى اشتراها من قبل .

قصص الأنبياء لابن كثير [٢٥٩-٢٦٤] .

لقد أشار القرآن الكريم إلى وصية يعقوب لأبنائه لتكون علمًا لبنيه على مر الزمان والأيام ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

إن الوصية : هى أمر يطلب شيئًا نافعًا يطلبه الإنسان فى آخر وقت له فى الدنيا . لماذا ؟

لأن آخر وقت للإنسان فى الدنيا هو وقت الصدق لأن الإنسان قد يغش الناس جميعًا طوال عمره ، لكن لحظة الاحتضار فإن الإنسان لن يغش أحدًا ، لأنه مقبل على اللّٰه سبحانه وتعالى ؛ لذلك فإن الإنسان يقول فى وصيته كلمة الحق .

لأن الوصية حين يوصى بها الإنسان وهو فى حضرة الموت ، إنما تكون خلاصة لتجاربه العقدية فى الإيمان ، يعطيها فى آخر فرصة من فرص الحياة لمن يحب .

ولذلك يوصى إبراهيم بنيه ويعقوب بالإسلام وأن يحافظوا عليه حتى الموت ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، فمعنى ذلك أن الأبناء عليهم أن يفهموا أنه ليس باستطاعة أحد أن يضمن عمره ، فالموت ميعاده ليس فى يد أحد .

إن النهى عن الموت ليس فى مقدور أحد ، أما النهى عن عدم الموت إلا وهم مسلمون ، فمعنى ذلك أنه أمر بألا يفارق أحدهم الإسلام .

إذن .. وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهم بعدم الموت إلا بعد أن يكونوا مسلمين ، معناه ألا يفارقوا الإسلام لأن إبراهيم ويعقوب لا يملكان من أمر الموت شيئًا ، لذلك فهذا الأمر إلى أبنائهم معناه : أن يصطحبوا الإسلام طوال الحياة .

وبعد ذلك نجد يعقوب يسأل أبناءه عن عبادتهم بعد موته . ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] . إن ذلك هو إقرار من الأسباط من بنى يعقوب إنه لله واحد ، إنها الملة التى أرادها الحق سبحانه للخلق ملة واحدة هى ملة الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .

○ ○ ○

أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام من الأنبياء الذين قص الله علينا قصصهم فى القرآن ، وقد ذكر اسمه فى القرآن الكريم أربع مرات قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [سورة ص : ٤١] .

﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أى دعاه لأن النداء بالنسبة لله دعاء .

والضر : ابتلاء فى جسده بمرض أو غيره – وقالوا إن الأنبياء لا يمرضون مرضًا ينفر الناس منهم .

ومعنى الضر هو الإيذاء فى الجسد أما الضرر فهو أى إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد .

أيوب لما أصابه الضر صبر – ولكن ألم المرض جعله يدعو ربه أن يكشف عنه ضره ، لأن الإنسان لا يتشجع على الله ، أى لا يعمل نفسه فتوة أمام الله ؛

ولذلك الإمام على لما دخل عليه واحد يعوده وهو يتألم من المرض ويتأوه ويقول آه – قال له الرجل أتتوجع وأنت أبو الحسن ؟ قال له : أنا لا أتشجع على الله .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

المس هو الإلتقاء إلهين الخفى ربما دون اللمس .

وقالوا فى قصته إنه مرض مرضًا أثر فى إهابه أى جلده فكان كما قالوا : الشيطان يحوم حوله ويقول له : إن الله قد بعثك رسولاً ، ثم فعل بك هذا ، ثم تركك وهو يستطيع أن يشفيك بـ ﴿ كُن ﴾ وهو يعذبه هذا الألم الجلدى وهواجس الشيطان ، هل الشيطان يحس ؟ لا الذى يمس ويصنع كل شىء هو الله فكيف يكون هذا ؟ لأن هناك سبب ومسبب فكيف مسه الشيطان بعذاب ؟ ذلك بوسوسته له فجعل خواطره تنشغل شيئًا بالوسوسة فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد من أيوب أن يتنبه أن هذه الوسوسة ما كان لها أن تمر بخاطره ، فلما نادى ربه ودعاه حتى يقطع عن نفسه وسوسة الشيطان وهى تحتاج لمدافعة ، والمدافعة تحتاج لقوة ، وقوته مرهونة بمرضه الذى هو فيه فهو لا يريد أن تضعف قوته بالوسوسة ، فيكفى المرض .

استجاب الله له حين ناداه وكشف عنه الضر ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] .

فهو كان يشتكى من الضر فأمره الله تعالى ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [سورة ص : ٤٢] .

فالمسألة تحت قدميك مثلما تقول لشخص هذا الأمر تحت رجلك .

والركض : هو القذف بشدة وسرعة مثلما تقول ركضت الفرس أى ضربته برجلى من أسفل حتى يجرى .

فلم يقل فركض فخرج له الماء ، كل هذا انطوى بمجرد الأمر طلع الماء هنا مغتسل وفيه شراب ، لأن مرضه كان مرضًا جلديا ترك بثورًا فى جلده البثور لها تشويه فى الجلد .

فالأطباء حاليا أول ما يعالجون البثور بالمراهم وغيره ، ونقول له إنك عالجت ظاهر المرض ولم تعالج سببه ، فاللّه قال له فى الركضة الواحدة ستشفى البثور الظاهرة ، والأسباب التى جعلت البثور تأتى عندك .

فالمغتسل البارد للظاهر وهو البثور والشراب ينهى الأسباب التى جعلت البثور تظهر(1) .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ [ص : ٤٣] .. قيل يبدو أن بعض الأهل عندما رأوا حاله هكذا ابتعدوا عنه فأعدناهم إليه عندما رأوه صحيحًا فجأة ، فهى مسألة معجزة .

أى أتينا معهم آخرين بعددهم وهم الذرية والأتباع وغيرهم ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

ذكر : يدل على أنه لما صبر أتاه اللّه بالفرج بأن يكون جسمه سليمًا ، وأسباب المرض الذى عنده وأهله يعودون إليه ثلاثة أشياء الجسم يصبح سليمًا - الباطن يخلو من الأسباب التى تظهر البثور - وأهله الذين ابتعدوا عنه عادوا

---

(1) أخرج البخارى [٩٧٢] وابن حبان فى صحيحه [٩٢٤٦] وأحمد فى المسند [٤١٣/٢] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عريانا فر عليه جراد من ذهب فجعل يحثى فى ثوبه فنادى ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال بلى ياربى ولكن لا غنى عن بركتك » .

له مرة أخرى ، والله سبحانه يحب من العبد أن يدعوه ليكشف عنه الضر .

إذن .. فلماذا يبتليه ؟

حتى يجأر إلى الله بالدعاء - ولذلك تقول الملائكة : يارب عبدك ضج من الدعاء لك وأنت لم تجبه ، فيقول إن من عبادى من أحب دعاءه فأنا أبتليهم ليقولوا يارب ما وضع الرحمة ولماذا ؟ رفقا بعواطفه فربما عز عليه أن من كان حوله تركه فأعدنا له أهله لأن له سابقة ود وحب وحنان .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص : ٤٤] .

« الضغث » هو الحزمة من الحشيش أو الحزمة من شماريخ النخل « البلح » وكلمة ﴿ فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ تلفتنا إلى أن هناك يمين .

قالوا إن الشيطان ذهب إلى زوجته ، وقال لها أطلبى من أيوب أن يقول أنا شفانى الشيطان وسأشفيه حالا ، ولأنها مستشرفة إلى أن يبرأ قالت له لقد جاءنى خاطر بكذا فقال لها إنه من الشيطان استمعينه ثم تأتى لتقوليه لى ؟ والله الذى لا إله إلا هو لأجلدنك مائة .

إذن .. يوجد يمين وهو يريد أن يبر به ويضربها مائة .

فقال الله له خذ حزمة من الحشائش فيها مائة عود أو مائة من شماريخ البلح واضربها بها ضربة واحدة فهذه تجعلك تبر فى اليمين .

﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ٣٠] أى : الذى عملناه له جزاء له على صبره ، ولأنه رجع إلى ربه حتى جعل الله له شيئًا يرضيه بأنه خفف عنه حتى الألم الذى يورثه فى الغير ، أى الذى سيصيب زوجته ليبر بقسمه فلم يتركه يجلدها ، ولكن خفف عنها بأن يضربها بحزمة الحشيش مرة واحدة .

○○○

نبي الله يوسف عليه السلام

هو : الكريم بن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام »(١) .

وسئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس ؟ قال : « أتقاهم » فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله »(٢) .

الحق سبحانه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣]

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] . ورؤيا يوسف تتميز بإعجاز ، فقد رأى الشمس والقمر يجتمعان معًا ، مع أن القمر والنجوم لا يجتمعون مع الشمس فالشمس بضوئها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا ، وشيء آخر فى هذه الرؤيا أن يوسف رأى أحد عشر كوكبًا وعرف عددها وميزها من دون الكواكب التى تملأ السماء ، وهذا هو الإعجاز الثانى فى الرؤيا ، وهو قد رآها أولًا ثم رآها مرة ثانية وهى تسجد له ، وهو سجود تكريم وليس سجود عبادة .

ولكن الأب الممتلىء قلبه حنانًا خاف على ابنه من حقد إخوته وهو يعلم شعورهم نحوه ؛ لذلك أسرع يقول له : ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] .

---

(١) أخرجه البخارى [٣٣٩٠] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما .

(٢) أخرجه البخارى [٣٣٠٣] ، ومسلم [٢٣٧٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنهما .

رد يعقوب عليه السلام وهو يقول : ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ يوضح العاطفة وتحس بعاطفة الأب القوية تجاه يوسف خاصة وهو صغير السن ، ومن قبل قال يوسف لأبيه يعقوب : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ وكلا القولين دليل على قوة العاطفة التى تربط بينهما ، وكلما أصاب الإنسان شيء مفزع أسرع إلى من يحبه ليقص عليه ما حدث .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ ﴾ ، أى يعقوب يقول ليوسف : أنا مأمون عليك ، ولكن إخوتك ليسوا مأمونين عليك إذا رويتها لى أرشدك للصالح فيه وإذا رويتها لأخوتك حقدوا عليك ، ولو أن يوسف رواها لأخوته لعرفوا تفسيرها ولزاد حقدهم عليه وكراهيتهم له . وقوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ ﴾ معنى الكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مواجهته . إذن .. فلا يكيد إلا الضعيف أما القوى فإنه يواجه .

والله سبحانه وتعالى قال عن النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] ، ومعنى ذلك أن كيد بعضهن أعظم لأن ضعفهن أعظم ، ولذلك فالضعيف إذا تمكن من خصمه قضى عليه .

والله تعالى قال : ﴿ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ ﴾ إذا قلت يكيدوك أى يفعلوا بك شرًا وإذا قلت فيكيدوا لك أى أنهم سيفعلون شرًا من جهتهم ولكنها ستكون خيرًا لك ولمصلحتك ولذلك يقول الحق : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، أى لصالحه ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] والعداوة بين الشيطان والإنسان معروفة منذ خلق الله آدم .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥] و ﴿ يَجْتَبِيكَ ﴾ ، أى : ينزل عليك من حمايته ما يعطيك الأمان ويحفظك من كيد أخوتك ، وتمام النعمة ليس بنعم الدنيا ، ولكن بالنعمة الكبرى بأنه سيكون رسولًا ، وهذه النعمة هى الرسالة لا تسلب منه أبدًا ؛ وإن كان اللَّه تعالى سيتم نعمته عليه بأن يصل نعيم الدنيا بنعيم الآخرة .

ومعنى تأويل الشىء معرفة معناه وما سيؤول إليه ، فالرؤيا ليست علمًا بشريًا يستطيع أحد أن يعلمك تأويل أو تفسير الأحلام فالرؤيا لا يفسرها إلا إلهام من اللَّه سبحانه وتعالى أو شفافيه خاصة ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه تعالى عنه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة »[1] . وقوله : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته وحكيم كل ما يفعله يتم بحكمة إلهية بالغة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ والآيات جمع آية . والآية هى الأمر العجيب اللافت للنظر ولو أن الإنسان نظر فيه لوجد فيه أشياء كثيرة ، وآيات معناها موعظة ، وقيل : عبرة ، وقيل : بصيرة ، وقيل : عجب . تقول : فلان آية فى العلم والحسن ؛ أى عجب .

إن كلمة : « آية » ترد فى القرآن بثلاثة معان : آيات الكون وآيات هى المعجزات التى يؤيد اللَّه سبحانه وتعالى بها رسله لتثبت صدق بلاغهم عن اللَّه ، وآيات القرآن وهى التى تحمل لنا أحكام المنهج .

---

(١) أخرجه البخارى [٦٩٨٩] ، ومسلم [٢٢٦٣] .

فمن أمثلة الآيات الكونية قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] والآيات الكونية هى الرصيد الموجود فى الإيمان ساعة تراها تلفتك إلى عظمة الخلق ودقة صنع اللّه تعالى وتجعلك تؤمن ان هذا الكون لا يمكن إلا أن يكون خالقه إلهاً عظيماً قادراً حكيماً . إنها الطريق الأول للإيمان بالتأمل فى عجائب الكون وما خلق اللّه فيه من إعجاز .

أما الآيات التى يؤيد اللّه بها رسله فهى آيات تخرق قوانين الكون ، مثلاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] واللّه سبحانه وتعالى هو خالق النار وهو الذى أعطاها خاصية الإحراق ، فعندما يشاء يسلبها هذه الخاصية فلا تحرق وينجى إبراهيم من النار ، وهذه الآيات التى أيد اللّه سبحانه وتعالى بها رسله دليلاً على صدق بلاغهم عن اللّه .

أما آيات القرآن الكريم فاقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] هذا معنى الآيات فى القرآن الكريم يحملن منهج اللّه إلينا .

قول الحق سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ والآيات الموجودة فى قصة يوسف من آيات العجائب التى تثبت القدرة للّه تعالى وأنه سبحانه الخالق والفاعل المسيطر ، فيوسف أُلقى فى الجب لينتهى أمره ، ولكن إلقاءه فى الجب جعله اللّه سبباً لكى يأخذه عزيز مصر ليربى فى أعز بيوت مصر ثم يصير له شأن فى الحكم .

ولقد جاءت قصص الأنبياء سلوى لرسول الله وتثبيتاً له ، فقص الله عليه قصة يوسف وما فعله به أخوته ، ثم كيف نصر الله يوسف وجعله حاكماً وجاء أخوته ليحتموا به ويعيشوا فى ظلال نفوذه . فإذا كان محمد ﷺ كذبه قومه فله سلوى فيما فعله إخوة يوسف مع أخيهم ، وإذا كان الوقت يمر بلا نصر حاسم ، فيجب ألا نتعجل نصر الله فيوسف عليه السلام جاءه النصر بعد أربعين سنة من إلقائه فى الجب .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٨] يقسم أخوة يوسف فاللام دلت على القسم ، والمعنى والله ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا . فالقسم يأتى ليؤكد هذا الحب . والسبب فى حب الأب ليوسف وأخيه لأنهما صغيران ، وهذه مسألة أوجدها الله فى قلوب البشر دون اختيار منهم حتى فى الحيوانات ، مادام الابن صغيراً وضعيفاً وفى حاجة إلى الرعاية فإنه يتمتع بحماية الأب والأم حتى يكبر . فالصغير الضعيف يتوجه إليه الحنان أكثر وهذه نراها فى واقع الحياة . وأخوة يوسف لم يكونوا يعرفون الفرق بين حب العاطفة وحب العقل ومن هنا وصلوا إلى نتيجة خاطئة أن أباهم كان يجب أن يحبهم أكثر ، والنتائج الضارة الباطلة لا تنشأ إلا من مقدمات فاسدة باطلة .

ثم ماذا فعلوا ؟ بدأوا يتآمرون على يوسف وقالوا : ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] .

إذن .. فهم يقدرون أنهم سيفعلون ذلك ثم يتوبون فيتقبل الله توبتهم ويكونوا قوماً صالحين ولكنهم لم يقولوا لنا من يضمن لهم أن يعيشوا إلى أن يتوبوا ؟!! قال ابن كثير : فأضمروا التوبة قبل الذنب .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فهم يريدون أن يقولوا إن وجه أبيهم سيصفو لهم بالحب والحنان بعد ذلك ، كأنهم يقولون عندما ننتهى من قتل يوسف أو طرحه أرضاً نرتاح مع أبينا وينتهى كل شىء .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : ١٠] الجب : هى البئر المطوية التى تحفر لكى يتجمع فيها الماء من باطن الأرض . وغيابة الجب : هى فجوة من الجب حتى لا يراه أحد ، وكلمة غيابة أى المنطقة الخفية من الجب[١] .

ولكن كونهم يريدون أن يخفوه ، ولا يراه أحد لا يتلائم مع قولهم يلتقطه بعض السيارة . ذلك لأن الشر يتناقص عند الأخيار ؛ لذلك بدأوا بالقتل ثم قالوا اطرحوه أرضاً أخف من القتل ، ثم قالوا ضعوه فى غيابة الجب على الأقل يجد ماء ، فالشر عند الأخيار يتناقص .

والله تعالى لم يقل لنا من الذى قال : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ وإنما قال : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ لأن الله لم يردنا أن نكره الآخرين فجعلها مجهلة [٢] .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : ١١] وما داموا قالوا لا تأمنا فكأن هناك محاولات

---

(١) فى تفسير بن كثير [٤٥١/٢] . قال ابن كثير : غيابة الجب هو أسفله ، قال قتادة وهى بئر بيت المقدس .

(٢) فى زاد المسير [١٤٢/٤-١٤٣] . قال ابن الجوزى : أنه يهوذا ، وقول آخر : أنه سمعون ، وقول ثالث : أنه روبيل وهذا قول قتادة وابن إسحاق .

سابقة منهم أن يأخذوا يوسف ، ولكن أباهم رفض ، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ أى سينصحونه ولن يأتيه شر .(١) ثم يقول الحق تبارك وتعالى حكاية عنهم : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف : ١٢] فلابد أن يجدوا حجة ليأخذوا بها يوسف فهو لا يصلح للرعى ولا العمل ولكنه سيرتع ويلعب ، واللعب وقت الطفولة مسموح به لأنه ليس هناك تكليف بعد . واللعب أن تشتغل بمباح بقصد انشراح النفس . وجاء فى فتح القدير معنى ﴿ يَرْتَعْ ﴾ نتحارس ونتحافظ ويرعى بعضنا بعضا من قولهم رعاك اللّه أى حفظك (٢) .

قال تعالى على لسان يعقوب : ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف : ١٣] أعتذر يعقوب بشيئين عاجل فى الحال وهو ما يلحقه من الحزن لمفارقته وكان لا يصبر عنه ، والثانى خوفه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم ولعبهم فيأكله ويحزن عليه الحزن المؤبد . ولقد قال بعض الناس إن يعقوب نبه أذهان أولاده إلى مسألة الذئب فاستخدموها كذباً ؛ ولذلك عندما جاءوه بقميص يوسف قالوا : إن الذئب قد أكله قال يعقوب : هذا ذئب رحيم أكل يوسف ولم يمزق قميصه ! أى عرف الكذب . فقالوا : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف : ١٤] أى لا يكون عندنا أى نوع من الرجولة إن أكله الذئب ونحن مجموعة من الرجال .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٥] وأوحينا إليه أى ألهمه اللّه وفى هذا الكلام وجهان :

---

(١) تفسير القرطبى [١٣٨/٩] .

(٢) تفسير القرطبى [١٤٢/٩-١٤٣] .

أحدهما : أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجب تقوية لقلبه وتبشيراً له بالسلامة .

والثانى : أنه أوحى اليه بالذى يصنعونه به ، فعلى هذا يكون الوحى قبل إلقائه فى الجب إنذاراً له .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] أخوة مكروا بأخيهم وأخذوه وألقوه فى غيابة الجب وهم يعلمون أن أباه يحبه وكان لا يأمنهم عليه فكيف يواجهونه ؟ لابد أن يواجهوه بإنفعال نفسى كاذب مستوراً بظلام الليل حتى لا يكتشف الأب بما أودعه اللّه من نور فى قلبه الإنفعال المصطنع على وجه أولاده ولذلك جاءوا وقت العشاء يبكون ، وبكاؤهم كان بكاء مصطنعاً .

ولذلك فإن الحق تعالى يقول : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ ﴾ [النجم] ، فكما أن الموت والحياة يختص اللّه بهما فكذلك الضحك والبكاء .

بعد أن تأخر أخوة يوسف إلى أن جاء وقت العشاء ليستروا انفعالاتهم فى الظلام ماذا قالوا ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أخوة يوسف ذهبوا يتسابقون ، وتركوا يوسف عند متاعهم ليحرسه لأنه صغير السن ، ولا يستطيع أن يتسابق معهم ، وهم بذلك قد خالفوا اتفاقهم مع أبيهم لما قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فأين الحفظ فى أن يتركوه وحده عند متاعهم ؟ وذلك يجعل منه عرضة لأن تفتك به وحوش الصحراء وهم بدلاً من أن يجعلوه يرتع تركوه وحده عند أمتعتهم .

أولاد يعقوب أحسوا حتى والليل يسترهم أن أباهم يعرف أنهم يكذبون لذلك ظهرت ريبتهم من أنفسهم وأقرأ قولهم لأبيهم : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ وهذا ينطبق عليه المثل الذى يقول : يكاد المريب يقول خذونى ، وهم فى تخبطهم حاولوا أن يتهموا أباهم بأنه لا يصدقهم وفى هذا محاولة لمداراة الإثم الذى يشعرون به .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] ودم كذب يعنى : دم مكذوب ولكن الدم لا يكذب وإنما الذى يكذب هو من أتى بالدم من شاة ذبحها ولطخ بدمها قميص يوسف ، فهم عندما ذبحوا الشاة لطخوا القميص من الخارج كما أنه لو أن الذئب أكل يوسف فلابد أن يكون قد مزق قميصه بأنيابه ومخالبه لكى يصل إلى اللحم ولكنهم جاءوا بقميص يوسف سليماً غير ممزق .

يعقوب ساعة رأى قميص يوسف وهو غير ممزق وملطخ بالدم من الخارج قال لأولاده كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ١٨] ، ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ بمعنى : سهلت أو يسرت أى أن أنفسكم يسرت لكم الكذب والصبر المطلوب هنا هو الصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى ولا جزع ولا نواح ولا هلع .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] كأن الصبر شاق على النفس فيعقوب لا يستطيع أن يصدق ما يقوله أولاده وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يجمع الناس ويقول لهم : أبنائى كذابون لقد أخذوا أخوهم يوسف ولم يعودوا به فابحثوا لى عن يوسف تماماً كالرجل الذى

قالوا له : ابنك قتل أخاك فالمعونة من اللّٰه فى مثل هذه الحالة أن نطلب منه أن يرزقنا الرحمة والصبر من قسوة ما حدث ولا نتجه بذلك إلى خلق اللّٰه لأن الخالق موجود .

○ ○ ○

الله ينجي يوسف

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ ﴾ [يوسف : ١٩] ، ﴿ سَيَّارَةٌ ﴾ معناها : قافلة تحترف السير من مكان إلى مكان ولذلك فهى تعرف دروب الصحراء وتعرف مواقع المياه وتعرف أن هناك جباً فيها ماء . والوارد هو الذى يرد الماء ليأتى به لبقية القافلة . والدلو : هو الجردل ، و « أدلى » أى ربطه فى حبل وأنزله إلى مستوى الماء وهذا لقوله : ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ وارد الماء حين ألقى دلوه وجده ثقيلاً بشكل غير عادى فنظر داخل البئر ليرى ماذا حدث ؟ فوجد غلاماً قد تشبث بدلو الماء ، غلام جماله يلفت الأنظار فما كان منه إلا أن قال : ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ [يوسف : ١٩] ، فهو يريد من أفراد القافلة أن يأتوا ليشاهدوا بشرى حسنة إنه غلام .

ثم يقول الحق : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ [يوسف : ١٩] أى أخفوه وسط أمتعتهم خوفاً من أن يكون أهله يبحثون عنه فيأخذونه منهم ولذلك أخفوه كأنه بضاعة وقرروا أن يبيعوه كالبضاعة ، ويقول الحق : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف : ٢٠] شرى تأتى بمعنى باع وأخذ الثمن والمعنى أنهم باعوه بثمن بخس والبخس هو النقص ولماذا باعوه بثمن بخس ؟ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة خوفاً من أن يأتى ذووه وأهله ويأخذوه منهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ أى لم يكونوا يرغبون فيه ولا فى الإبقاء عليه .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف : ٢١] من هنا نعلم أن سبب الشراء أن الرجل لم

يشتره لنفسه بل اشتراه لامرأته ربما لأنها لم تكن تنجب ، وكانت هذه المسألة تحزنها . وعندما نعلم أن الرجل اشتراه لامرأته ، تعطينا لقطة كبيرة عن دخول الفساد فى البيوت مع التبنى والخدم الذين بلغوا الحلم سواء من الرجال أو النساء وهم وراء هذا الفساد ، فبمجرد أن يكبر المتبنى أو العبد لابد أن يفصل بينه وبين النساء فى البيت لأنه قد كبر وأصبحت له شهوة .

فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء » فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أفرأيت الحمو قال ﷺ : « الحمو الموت » (1) والحمو : هو قريب الزوج أو قريب الزوجة مما لا يشك فى دخوله .

قول الذى اشتراه من مصرلامرأته : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ ، المثوى هو : الإقامة أى أعد له مكاناً طيباً ليقيم فيه فسيكون فيه منفعة عندما يكبر أو نتحذه ولداً وهذا دليل على أن الزوجة لم يكن لها ولد قال : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٢١] أى بعدما كان ملقى فى الجب بدون قميص يلبسه وإخوته له كارهون أخذه عزيز مصر وقال لزوجته أكرمى مثواه وقوله : ﴿ مَكَّنَّا ﴾ أى أكرمناه وهيأنا له بيت عزيز مصر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : ٢١] وتأويل الأحاديث هى الرؤى التى يراها النائم وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر . هذا الحديث يرينا أن الإنسان لا يصلح حكماً على الأحداث : فأخوة يوسف أرادوا به شراً فألقوه فى الجب ولكن الله جعل هذا

(1) أخرجه البخارى [٥٢٣٢] ، ومسلم [٢١٧٢] .

الشر الظاهرى من أسباب الخير العميم الذي سيصيب يوسف ويجعله عزيز مصر . ولو علم اخوته أنهم بسبب إلقائهم له فى الجب سيرتفع شأنه ما ألقوه أبداً ، ولذلك يقال : لو علم الظالم ما أعده اللّٰه للمظلوم لضن عليه بالظلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ [يوسف : ٢١] لأنه لا قوة فى الأرض ولا فى هذا الكون تستطيع أن ترد أمراً لله تبارك وتعالى .

وقول اللّٰه تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

لا يعلمون ماذا ؟ لا يعلمون أنهم لا قدره لهم فى هذا الكون ولا قوة لهم إلا بما شاء اللّٰه . فاللّٰه سبحانه وتعالى الذي لا إله إلا هو قال للأرض كوني فكانت وقال للسماء : كوني فكانت وقوله سبحانه : كن نافذ فى كونه .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والبلوغ هو الوصول إلى الغاية وقوله : ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ يعنى وصل إلى غايته من النضج والاستواء فكأن مهمة الإنسان فى الكون تبدأ حين يبلغ أشده ويصبح صالحاً أن ينجب مثله ويقول تعالى : ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ ما هو الحكم ؟ هو الفصل بين قضيتين ، بين خصمين متعارضين حق وباطل ، وما دام اللّٰه أعطاه العلم فهو يقدر أن ينقل ما تعلمه لغيره .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إذن .. فكل إنسان يدخل فى مقام الإحسان أى يعبد اللّٰه كأنه يراه يعطيه اللّٰه ثمرة إحسانه بأن يمده بحكمة وعلم والحق يقول ذلك فى معرض الحديث عن نبى فالحكم ليس له خصوصية للرسول ولكنه عام لكل محسن فمن أحسن يعطيه اللّٰه حكماً وعلماً لأنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وصف يوسف عليه السلام بأنه بلغ أشده معناه أنه أصبح فى كامل فتوته وآتاه اللّه الأخلاق والعلم ، وكانت امرأة العزيز تنظر إلى جماله وهو صغير نظرة إعجاب ثم لا شىء لأنه صغير السن ، ولكن عندما بلغ أشده أبتدأ خيالها يسرح فى أكثر من اتجاه وهذا هو النزوع . فكل عملية شعورية يتعرض لها الإنسان العاقل لها إدراك ووجدان ونزوع ، وامرأة العزيز وصلت إلى عملية النزوع . فالإنسان إذا نظر للشىء وأدرك جماله فهذا إدراك وإعجاب ثم ، يحدث الوجدان وهو أن تجد نفسك مشدوداً إلى جمال هذا الشىء ثم بعد ذلك تأتى عملية النزوع بأن تمد يدك لتأخذ هذا الشىء ، حينئذ يتدخل الشرع ويقول لك لا هذا ليس من حقك .

هذا بالنسبة لجميع المخلوقات ما عدا المرأة والرجل ، فاللّه سبحانه وتعالى رحمة بنا جاء من أول الأمر ، ومنع النظر لأن النظرة تؤدى إلى الإعجاب ، والإعجاب يؤدى إلى النزوع ، والنزوع يؤدى إلى المعصية قال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] وامرأة العزيز نظرت إلى يوسف وأعجبت به وبجماله ، هذا الإعجاب قادها إلى النزوع فراودته عن نفسه ، ولو أنها أمتنعت عن إدراك الشىء أولاً أى أنها لو كانت محجوبة عنه أو هو محجوب عنها ما حدث كل هذا .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ ﴾ [يوسف : ٢٣] ما هى المراودة ؟ هى المطالبة برفق وليس فى خداع يستر ما تريده ممن تريده منه فإذا كانت المسألة سهلة فالمراودة تنتهى إلى شىء وإذا كانت المراودة غير سهلة كأن تراوده وهو يتأبى أى يمتنع تنتهى إلى مقاومة ومشاجرة . وقوله تعالى : ﴿ وَغَلَّقَتِ

ﭐلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ معناها أنها غلقت باباً وراء باب مما يدل على أنها مدركة تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح ؛ ولذلك فهى حريصة على أن تخفى ما ستفعل .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ أى أنها تهيأت له فانتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح فى الطلب ، يوسف عندما رأى هذا قال : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣] والمعاذ هو ما تستجيره وأنت لا تستجير إلا إذا كان الأمر فوق قدراتك وطاقاتك فتستجير بمن ينجدك ممن هو أقوى منك . وكلمة « معاذ اللّه » عند المؤمن إذا قالها فلابد أن الأمر عصيب .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ إذن .. فيوسف لم يوافق على ما تريده ، وطلب المعونة من اللّه وقوله : ﴿ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ أى نجانى من الجب ومن شر إخوتى وهيألى مكاناً رغداً لأعيش فيه فلا أكافئه بأن أعصيه ، وأن أجعل نعمه علىَّ وسيلة لمعصيته خصوصاً أن زوجها - العزيز - قد أكرم يوسف .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أى أن اللّه تعالى يجازى على الإحسان بالإحسان وعلى الظلم بالسوء فلا يفلح من ظلم .

قال تعالى : ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] وقال تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

اللّه تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ الهمّ : هو حديث النفس بالشىء قد يفعل الإنسان أو لا يفعل والعبارة جاءت فى أمر المراودة هى راودته وهو ممتنع إذن فهناك مفاعلة :اثنان يتصارعان على شىء أحدهما امرأة العزيز ﴿ هَمَّتۡ بِهِۦۖ ﴾ والطرف الأخر وهو يوسف ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فبالنسبة لامرأة العزيز حدثتها نفسها أنها تريده

وعندما تكلم الحق عن يوسف قال : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ، لو حللنا هذه العبارة تكون ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ولو حرف امتناع للوجود .

نقول : لولا زيد عندك لأتيتك فأنا لم آتك لوجود زيد عندك . بالنسبة ليوسف نقول :لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ولولا معناها : أنه لم يهم بها والامتناع حدث لأنه رأى برهان ربه فكأن العبارة : لقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ؛ ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمَّ بها وتنتهى المسألة .

الحق سبحانه وتعالى : يقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ولم يقل : ولقد همت به ولم يهم بها . نقول أن اللّٰه سبحانه يريد أن يثبت فحولة يوسف وأنه لم يمتنع عنها لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف . فيوسف كامل الرجولة يمكن أن يهمَّ بها ولكن الذى جعله لا يهم بها أن برهان ربه فى داخله وهذا البرهان هو الذى جعله لا يهم بها .

وإذا نظرت إلى القصة تجد أبطالها امرأة العزيز ويوسف والنسوة اللاتى دعتهن عندما لمنها . والشاهد الذى شهد أنها هى التى راودته والعزيز نفسه كل هؤلاء شهدوا أن يوسف لم يفعل شيئاً .

أما يوسف فقال : ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف : ٢٦] وهى اعترفت بعد ذلك أنها راودته عن نفسه وقالت : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يوسف : ٥٢] أى أنا التى راودته عن نفسه فاستعصم من الخطيئة ولم يقع فى المعصية . وتقول كذلك أنى لم أقل عليه كلاماً يخالف الواقع ولقد جاءت آيات اللّٰه كلها تبرىء يوسف فهى التى همت به وشهدت بأنها هى التى راودته عن نفسه وأنه أستعصم ولم يقع فى الخطيئة .

والنسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ ، والله تعالى صرف عنه كيدهن وما دام الله قد صرف عنه كيدهن فالشيطان لا يستطيع أن يوسوس له لأن الشيطان لا يدخل فى معركة مع عباد الله المخلصين ولا يقترب منهم . واقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ ﴾ [ص] ، أى الذى يعبد الله مخلصاً له الدين لا يقربه ولا يغويه ولقد قال الله تعالى عن نبيه يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وهناك الشاهد الذى شهد لمصلحة يوسف وقال : ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ ﴾ [يوسف] .

والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] والفحشاء هى الزنا ، فما هو السوء ؟ السوء هو : المرحلة السابقة للفحشاء هى فكرة الهم وما يصاحبها إذن فامرأة العزيز راودته عن نفسها وبمجرد أن راودته أسرع إلى الباب فجرت خلفه لعلها تسبقه وتمنعه من فتح باب الحجرة . وفى ذلك يقول الحق : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف : ٢٥] ثم حسم الله تعالى القضية حتى لا يكون هناك مجال لاجتهادات بشرية فقال : ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ تدل على أن الشيطان لم يكن يستطيع إغواء يوسف على المعصية لأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ أى أن كل واحد منهما يريد أن يصل إلى الباب قبل الآخر ، والسؤال هنا : أن كل واحد منهما يريد أن يسبق

الآخر إلى الباب لماذا ؟ هى المراودة فلماذا تريد أن تسبقه إلى الباب ؟ لتمنعه من الخروج وهو يريد أن يسبقها إلى الباب ليهرب .

هنا ستأتى قضية الشاهد وكيف أستنبط الحقيقة .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ أى من الخلف وهذا دليل على أنه سبقها يحاول الهرب إذن فهو يريد الخروج . وهى تجذبه بقوة من قميصه لتعيده فقطعت القميص من الخلف ، امرأة العزيز حين رأت زوجها أمامها عند الباب وكل الشواهد تؤكد أنه كانت هناك مراودة بينها وبين يوسف أرادت أن تبرىء نفسها وتلصق التهمة بيوسف وبأنه هو المذنب وبأنه هو الذى أراد أن يغريها على الفاحشة وهى التى صدته لذلك قالت : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥] فهى من غيظها من رفض يوسف لمراودتها له وفضحها أمام زوجها تريد أن تعاقبه بأنه يسجن أو يعذب .

وهنا رد يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف : ٢٦] ، إذن .. فهى ادعت أنه حاول أن يعتدى عليها وهو قال إنها هى التى حاولت أن تغريه على المعصية وعرضت عليه نفسها ، العزيز هنا لم يتصرف تصرفاً أهوج بحكم العاطفة وكان من الممكن أن يفعل ذلك فى ثورة غضب ويقتل يوسف ولكنه استمع لشاهد من أهل زوجته حتى لا يظلمها ليفصل فى هذه المسألة ويقول الحقيقة .

الحق يقول : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ أى من قرابتها وقيل أنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره وكان من قرابة المرأة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يوسف] .

وبدأ الشاهد بالاحتمال الأول وهو صدق امرأة العزيز وكذب يوسف ، فهو فى هذه الحالة يكون هو المقبل عليها وهى التى تحاول الفرار منه والدفاع عن نفسها . فهى إما من المقاومة تقطع له القميص من الأمام ، أو هو قد يكون من الاستعجال والمقاومة بحيث يطأ هو نفسه على قميصه من الأمام فيمزقه .

إذن .. فالاحتمال الوحيد لأن يكون يوسف هو الذى حاول الاعتداء عليها ، أن يكون قميصه ممزقاً من الأمام ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أى إن كان قميصه ممزقاً من الخلف فلا بد أنها هى التى راودته عن نفسه ، وأنه حاول أن يهرب منها فأمسكت بقميصه من الخلف فتمزق ، ولا يمكن والقميص ممزق من الخلف أن يكون هو الذى يحاول الاعتداء عليه وهى تدافع عن نفسها .

هذه هى الحجة التى قدمها الشاهد لتفصل بين قولين متعارضين : قول يوسف وقول امرأة العزيز ، إذن .. فالشاهد أصدر حكمه أولاً قبل أن يرى القميص وأعطى الافتراضين ، والدليل على كل منهما ورتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على آخر .

ثم كان الحكم : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك فى الخفاء وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم .

حينما عرف العزيز أن امرأته أرادت أن تخونه مع يوسف وأن يوسف صادق وامرأته كاذبة قال كما قص علينا القرآن : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٢٩] أى أن العزيز

طلب من يوسف ألا يتحدث فى هذا الأمر أبداً حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس . وقال لزوجته : لقد أذنبت وكنت من الخاطئين فاستغفرى لذنبك .

لكن كيف خرج الخبر من القصر ؟ ربما يكون الخدم فى القصر حينما سمعوا الضوضاء تصنتوا فعرفوا القصة هذا احتمال واحتمال كبير ، وأياً كان الأمر المهم أن الخبر خرج من القصر قصر العزيز إلى نساء المدينة بطريقة ما وأبلغ إليهن . واقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٠] ، ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ قال العلماء إنهن خمسة : وهن امرأة ساقى العزيز . وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه (١) .

قصة واقعية تتناقلها النسوة فيما بينهن فى بيوتهن وأن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه أنها بفعلها هذا فى ضلال مبين . أدركت حينئذ أن هذا مكر بها وأن قول نساء المدينة ليس غضبة للحق ولا كرهاً فى الضلال الذى وقعت فيه إنهن أردن شيئاً آخر هو إذلال كبرياء امرأة العزيز ونشر فضيحتها بأنها وهى امرأة الحاكم تراود من يخدمها عن نفسه . امرأة العزيز تتذلل إلى خادمها وتقدم له نفسها وهو يرفض إنها عملية صعبة ومهينة ، وحين تسمعها امرأة العزيز لا يمكن أن تسكت ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] ،

---

(١) فى حديث الإسراء الطويل الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : « ... فإذا أنا بيوسف عليه السلام إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير » أخرجه مسلم [١٦٢] .

إنها أرسلت لهن دعوة بالحضور إلى القصر فى ضيافتها ، وأعدت لهن المتكأ وهو الشيء الذى يستند إليه الإنسان فى الجلسات الطويلة . وأتت كل واحدة منهن سكيناً وهذا يعنى أنها خططت أن ترد على المكر بمكر أشد . والإنسان حين يستخدم السكين لابد أن يكون منتبهاً إلى ما يفعل ، لأنه لو ضاع إنتباهه أو انتقل إلى شيء آخر فستقطع السكين يده ، وهذا ما كانت تهدف له امرأة العزيز .

كانت امرأة العزيز تهدف إلى أن يأخذ يوسف بجماله وحسنه انتباه النسوة فيقطعن أيديهن[1] . ولذلك قالت ليوسف : ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] يقال أكبرت الشيء بأن تكون قد تخيلته قبل أن تراه على صورته ، ولكن حين تراه تجد أن الرؤية أكبر كثيراً من التخيل ، بمعنى أنك تخيلته فى صورة حلوة ووجدته آية من آيات الجمال .

يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أى وجدن صورته فوق كل تخيل بحيث أصابتهن حالة من الانهيار والذهول ، مما رأين أمامهن فنسين أن فى أيديهن سكاكين يقطعن بها الطعام فقطعن أيديهن بدلاً من أن يقطعن الطعام . وقلن : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ أى تنزيه لله أن يخلق مثل هذا الجمال الأخاذ فى ، يوسف ثم بعد ذلك يجعله يرتكب ما يغضب ربه .

وقولهن : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ لأنه خرج عن كل صور الجمال ، فكأنهن قلن لم نر مثل هذا بين من نراهم من بنى آدم فلابد أن يكون هذا ملكا . فالإنسان عندما يرى بشراً فيه من صفات الجمال والكمال الكثير فإنه يقول هذا ليس إنساناً هذا ملك . هكذا رأته نساء المدينة فوجدت امرأة العزيز الفرصة لتبرر ما فعلته وترد على كيدهن فقالت كما يقص علينا القرآن

الكريم : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ ﴾ [يوسف : ٣٢] أى فذلك الذى وجهتن إلىَّ اللوم أننى راودته عن نفسه وها أنتن ترين ماذا فعل جماله فى نفوسكن .

يقول الحق حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ فبعد أن كانت تنكر الحقيقة وتحاول أن تخفيها وتدعى عكسها ، بأن يوسف هو الذى راودها عن نفسها اعترفت بالحقيقة لماذا ؟ لأنها فى المرة الأولى كانت فى وضع الاستنكار ، ولكن بين النسوة اللاتى قطعن أيديهن وقلن هذا ملك كريم ، وجدت المبرر لفعلتها ، لأنها لم تسمع لوماً أمام الانبهار الذى استقبلت به النسوة يوسف .

ولذلك قالت : ﴿ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾ أى فعصم نفسه عن الخطيئة وكلمة استعصم تدل على التكلف والمشقة فى حجز النفس فهل وجد يوسف مشقة ؟ نقول إن اللّٰه تبارك وتعالى يريد أن يثبت أن فحولة يوسف ورجولته غير ناقصة وأنه لم يمنعه الإيمان . ولذلك جاهد نفسه ليمنعها .

ولكن امرأة العزيز تجاوزت هذه المرة كل الحدود فقالت : ﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢] هنا امرأة العزيز تخلت عن حيائها وتحفظها تماماً وقالت : لئن لم يفعل ما آمره به فسأسجنه وأجعله من الصاغرين أى ذليل مهين . فهى توجه كلامها للنساء ، أنتن أكبرتن يوسف وأنا سأجعله ذليلاً مهاناً إذا لم يفعل ما آمره به أى : إذا لم يوافقنى على ما أطلبه منه . ويلاحظ أنها قالت ستسجنه وتجعله ذليلاً ولم تقل أنها ستطرده مثلاً أو تبيعه لغيرها لأنها تريد أن تعرف كل الحاضرات أن يوسف لن يخرج من القصر وأنه لن يراه أحد إلا هى فلو أنها قالت أنها ستطرده أو ستبيعه لسارعن لشرائه وأخذه .

يوسف لم يجد فى هذا الموقف الذى اتفقت فيه جميع النساء الحاضرات إلا أن يستغيث بالله قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] ونجد يوسف هنا أنه استعان بالله منهن جميعاً فهن لم يراودنه لأنفسهن إذا كان غير ممكن وهو عند المرأة فى بيتها لكن قد يكن أعنَّ المرأة على مطلوبها .

يوسف يناجى ربه قائلاً : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يوسف دعا الله باسم الربوبية ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ ثم استغاث بالله من بشريته فهو بشر تملؤه الرجولة ، وهو فى سن خطيرة سن البلوغ والرجولة ولذلك فهو يستغيث بالله بأن يصرف عنه كيد النسوة ، لأنه إن لم يصرف عنه كيدهن ويقيه مما يردن به سيميل إليهن فى هذه الحالة ، ويكون من الجاهلين .

الله تعالى استجاب له ، لأنه لجأ إليه مضطراً لأنه ليس أمامه من الأسباب ما يمكن أن يأخذ به ، فإما أن يصرف الله سبحانه وتعالى عنه كيدهن ، وإما أن يقع فيما لا رغبة فيه لذلك يقول الحق : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٤] سميع لدعوات الداعين له والعليم بأحوال الملتجئين إليه .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٥] .

عندما عرفت النسوة أنه لا فائدة من يوسف تآمرن عليه ليدخل السجن وكان دخول يوسف السجن دليلاً على استبقاء حركة الحب له فى نفوس

---

(١) أخرجه البخارى [٥٠] ، ومسلم [٩] .

النسوة . فلم يقلن اقتلوه لأنه كان لديهم أمل فى أن يقيدن حركته فى السجن سيجعله يفكر فى أن يقبل ما سبق أن رفضه ، وربما الذل الذى سيراه فى السجن بعد العز الذى كان يعيشه فى قصر العزيز يلينّ من عناده .

ثم تنتقل اللقطة إلى يوسف وهو فى السجن ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

وفى السجن تقترب النفوس من بعضها ، الفتيان رأى كل منهما رؤيا ، وطلب أن يفسرها له يوسف ، وهنا نعلم أنهما قد مكثا مع يوسف فترة طويلة لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة ، بل لا بد من طول العشرة التى جعلتهم يلجأن إلى يوسف فى كل أمر يهمهما ، لأنهما رأيا فى يوسف الإنسان السوى حسن الخلق .

فكل منهما رأى حلماً ، أحدهما رأى أنه يعصر خمرًا ، والثانى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل منه الطير ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ هى سبب سؤالهما له فى الرؤيا التى رأياها ، وهذا يدل على أن الإحسان ظاهر فى يوسف عليه السلام والإحسان هو : « أن تعبد اللّٰه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . ولأن يوسف إنسان على منهج مستقيم وجد أن هذين الشخصين عندهما بداية إيمان ؛ ولذلك قرر أن يعطيهما حاجتهما قبل أن يأخذ حاجته منهما أولًا .

ونلاحظ هنا أن يوسف لم يتحدث عن الرؤيا التى رآها السجينان ، لقد أخذ يوجههما إلى الطريق المستقيم دون أن يجيبهما على ما سألاه لأنه

لو أجابهما أولًا لانصرفت أذهانهما عن الانتباه إلى ما يقول من ترغيب فى الإيمان وتنفير من الكفر ، وقال لهما كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : ٣٧] .

وكأنه يقول لهما إنه يعلم أشياء كثيرة غير التى يشاهدها ظاهرة عليه ، ثم أراد أن يأخذهما إلى اللفتة الإيمانية فقال : إن هذه ليست من عندى ولا خصوصية لى ، لأن هذه علمها عند ربى لأنى تركت ملة من لا يؤمنون بالله واتبعت ملة آبائى المؤمنين الموحدين ؛ إبراهيم ، وإسحاق ؛ ويعقوب ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ .

يقول الحق تعالى : ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] . لقد نقلهما يوسف من حاجتهما الشخصية إلى قصة التوحيد وعبادة الإله الواحد ، فهل خير لكم أن تعبدوا آلهة متفرقين أم أن تعبدوا إلهاً واحدًا هو الله سبحانه وتعالى ؟! والحق سبحانه حين يضرب لنا المثل على وحدانية الألوهية بالنسبة لعبيده يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] .

الله سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلًا لعبد مملوك لمجموعة من الرجال ، وعبد مملوك لسيد واحد ، العبد الذى له عدة أسياد ليسوا متفقين ، بل هم متشاكون هذا يأمره بشىء وهذا يأمره بضده ، وهو محتار لا يعرف يرضى من ، أو يسمع كلام من أو يتبع من ، والعبد الذى له سيد واحد يكون مرتاحًا لأنه لا يوجد إلا هو الذى يقول فيسمع له ، ويأمر فيطاع ، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى .

وقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ أى اتخذتموها أنتم ، أى أنتم صنعتم هذا الكفر . إذن .. فلم يكن هناك آلهة على الإطلاق وهم أطلقوا أسماء على غير مسميات .

إذن .. فكفرهم تقليدًا لآبائهم ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ أن اللّه لم يطلب منكم ذلك وليس لكم حجة ، ثم يقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ﴾ [يوسف : ٤٠] أى لا حكم فى هذا الكون إلا للّه ، وما يبلغه الرسل من أحكام يبلغونها عن اللّه ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ ، أى الدين الحق .

ثم كان تأويل الرؤيا أن قال لهما : ﴿ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ ﴾ [يوسف : ٤١] . هذا تفسير الرؤيا التى قصها الرجلان على يوسف : أحدهما تظهر براءته ويعود إلى القصر ويسقى سيده خمرًا ، أما الآخر وهو خباز فتثبت عليه التهمة فيصلب وتأتى الطير لتأكل من رأسه . ويقال أن أحدهما كان ساقى والآخر خباز والذى سيبرأ هو الساقى .

وتتابع حكاية يوسف مع صاحبيه فى السجن إذ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : ٤٢] . قال العلماء عن هذه الجملة إنها جعلت يوسف يبقى فى السجن بضع سنين لأن الأنبياء عملهم مع اللّه مباشرة لا بواسطة الخلق وما دام يوسف مستقبلاً عن اللّه فلابد أن يتجه إلى اللّه مباشرة ولا يطلب الواسطة من البشر ولذلك حينما قال ذلك ماذا حدث ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

والبضع من ثلاثة إلى عشرة وقد حددها العلماء بأنها سبع سنين . فلما ظن يوسف أن الساقى ناج قال له اذكر قصتى عند ربك وهو الملك فنسى أن يذكر مولاه الملك بذلك .

يُعلمنا ربنا كيف يُجرى الأحداث لتتم أقداره دون أن يشعر أحد ماذا حدث ؟ الذى حدث أن الملك رأى فى منامه رؤيا أفزعته فجمع الملك حاشيته وقص عليهم منامه الذى رآه فماذا قال ؟ قال : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٣] الرؤيا المنامية تتعارض مع الفكر السليم فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين ؛ لذلك طلب الملك أن يفسروا له رؤياه ماذا قال وجهاء قومه ؟ : ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ ومعنى ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أى : أخلاط وقالوا أى مختلفة مع بعضها البعض والضغث هو حزمة حشائش مختلفة الأجناس . والمعنى أنه يوجد اضطراب فى الرؤيا ولا علم لنا بالتأويل .

قال الحق تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف : ٤٥] ، إذن .. الساقى الذى قال له يوسف إنك ستسقى الملك خمراً سمع وهو يسقى الملك عن الرؤيا التى رآها الملك والحيرة التى عليها القوم وتذكر بعد فترة قصته مع يوسف وقال ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يعنى : ابعثونى إلى من سيروى لنا معنى هذا الحلم وأرسلوه وأسرع إلى يوسف فماذا قال ؟

قال كما يقص علينا القرآن : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٦] وقوله : يوسف أيها الصديق تدل

على أنه جربه فى مسائل متعددة وكان فيها صادقاً ، وأنه صادق فى كل أقواله فكأن الصدق يلازم يوسف فى أقواله وأفعاله . وقوله : أفتنا أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحكم كى ننقله إلى الملك لأنه أنزعج . والفتوى المطلوبة فى أن البقر الهزيل يأكل السمين وهذا ضد طبيعة الأشياء وهذه الفتوى التى جاء يطلبها ليست لنفسه ولكن لمن أرسلوه وهو الملك وحاشيته لذلك قال : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ .

لماذا قال : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ ﴾ ولم يقل : لأرجع لأن الساقى وقد أثر فيه كلام يوسف عن التوحيد والعبودية لله يعلم أن الأمور ليست بيده وهو ليس متيقناً أنه سيعود إلى الملك فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ، فكأن الصدق يلازم يوسف فى أقواله وأفعاله . وقوله : أفتنا أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحكم كى ننقله إلى الملك لأنه أنزعج . والفتوى المطلوبة فى أن البقر الهزيل يأكل السمين وهذا ضد طبيعة الأشياء وهذه الفتوى التى جاء يطلبها ليست لنفسه ولكن لمن أرسلوه وهو الملك وحاشيته لذلك قال : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ .

لماذا قال : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ ﴾ ولم يقل : لأرجع لأن الساقى وقد أثر فيه كلام يوسف عن التوحيد والعبودية لله يعلم أن الأمور ليست بيده وهو ليس متيقناً أنه سيعود إلى الملك فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ، وذلك إيمان منه بقدر الله مع الإنسان واحتياط أخر منه فى الأداء يقول : ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فهب أنه رجع إليهم فمن يضمن له أنهم سيستمعون إليه ويستوعبون ما يقول ؟ وأقر قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وساعة تقول إن شاء اللّٰه تكون قد لزمت قدرك وأعطيت المسألة لمن يملك الأمر حقيقة (١) .

يوسف عليه السلام أبلغ الساقى تفسير الرؤيا فماذا قال له : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف] . يوسف عليه السلام قال : أنهم سيزرعون سبع سنين يواصلون خلالها الزراعة ﴿ دَأَبًا ﴾ أى لا يوجد كسل . ونتائج هذا الزرع أتركوه فى سنبله أى لا تتصرفوا فيه بالتجارة ولا المبادلة ولا بأى شيء أخر وخذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام على أن يكون ذلك أقل ما يمكن بقدر الإمكان . ثم يأتى من سنوات الزرع والرخاء سبع شداد أى جدب وقحط سبع سنوات كلها شدة لا تعطيكم شيئاً من القمح فإن لم يكن عندكم من الحصيلة الأولى بقية فستموتون جوعاً .

وقوله تعالى : ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أى من العرق والعمل فى المحاصيل وما حفظتموه فى سنوات الرخاء .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ كلمة حصن معناها الامتناع وهنا بمعنى الإحراز يقولون : بنوا حصناً ليحتموا فيه إذا هاجمهم الأعداء ، بحيث يمتنع على أعدائهم النصر وتمتنع عليهم الهزيمة واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ

---

(١) عن أبى هريرة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة غلاماً يقاتل فى سبيل اللّٰه فقال الملك : قل إن شاء اللّٰه فلم يقل ونسى فأطاف بهن ولم تلد إلا امرأة نصف إنسان ، قال النبى ﷺ : « لو قال إن شاء اللّٰه لم يحنث وكان أرجى لحاجته » أخرجه البخارى [٤٢-٥٢] واللفظ له ، ومسلم [١٦٥٤] .

مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٢٤] أى الممتنعات عن الفجور . ويقول تعالى ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [التحريم : ١٢] أى امتنعت عن التفريط فى عرضها ، كل هذا معناه الإمتناع والإحراز .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ، هذا خارج عن الرؤيا لأن الرؤيا ﴿ سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ [يوسف : ٤٦] انتهت الرؤيا عند هذا الحد . كلمة ﴿ ثُمَّ يَأْتِى ﴾ هذه نبوءة من يوسف ﴿ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ أى ينزل عليهم الغيث والمطر وهو من الإغاثة والغوث ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب والسمسم والزيتون وقيل : أراد حلب الألبان وقيل هى من العصرة وهى الملجأ والمناجاة .

يقول الحق : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠] وهكذا رفض يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن الذى هو فيه إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها أهل المدينة جميعاً بما فيهم الملك وطلب يوسف أن يسأل الملك النسوة كيف راودن يوسف عن نفسه ، فبراءة الساحة أمرمهم بالنسبة لكل إنسان وما دام بريئاً فلا بد أن تعلن براءته ويعرفها الجميع ، لم يرد يوسف أن يخرج من السجن وتلاحقه الإشاعات الكاذبة رغم أن الله سبحانه وتعالى يعلم براءته لكنه أراد أن يعرفها الناس جميعاً لأنه رسول والرسول قدوة سلوكية ولكى يؤدى رسالته ويتبعه الناس لابد أن يكون قدوة سلوكية لا تشوبها شائبة .

○○○

اعتراف النسوة ببراءة يوسف

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف : ٥١] والخطب : هو الحدث الهام الذى يتناقله الناس . وكأن الملك حين خاطب النسوة بلهجة شديدة لأنه أعتبر أن مراودتهن يوسف عن نفسه عملية خطيرة تدل على انعدام القيم ، فأسرعن ينفين التهمة عن أنفسهن فقلن : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ ونلاحظ هنا أنهن يتحدثن عن مسألة مراودتهن يوسف ، أى برأن يوسف ولم يبرئن أنفسهن : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً ليوسف من أن يفعل ما يغضب اللّه وقلن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ يعنى يوسف كريم الخلق لا يفعل سوءاً أبدا بالنسبة لهؤلاء النسوة أو غيرهن .

وكانت امرأة العزيز جالسة مع هؤلاء النسوة ولم يشر إليها القرآن إلا عندما تكلمت وقالت ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ حصحص الحق بيان الحق بعد كتمانه أى ظهر وبرز . امرأة العزيز قالت : إنه لم يعد هناك مجال للستر أنا راودته فعلاً وهو صادق . مما يدل لنا على أن الجذوة الإيمانية تتوهج ، وأنه قد ينسى اللّه ولكن عندما ينتهى الخاطر السيء يعود إلى توازنه الكمالى ، وربما جعل من الزلة الأولى وسيلة للإحسان فيما هو آت .

تقول امرأة العزيز : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٢] يعنى حتى يعلم يوسف أننى فى غيبته دافعت عنه وقلت وأن الجريمة لا تفيد ولا بد أن يعرف الناس الحقيقة ولو بعد حين .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يعنى أنا لا أريد أن أبرىء نفسى كذباً لأن النفس على إطلاقها تأمر بالسوء ولكن يوسف نفس ولذلك قال القرآن الكريم ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ومعنى غفور : أى للذنوب ، ورحيم : أى يمنع الإنسان بعد ذلك من الوقوع فى الذنب .

وقوله تعالى ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ ﴾ من تمام قولها أم لا ؟ بعض العلماء قالوا : إنه من قول يوسف عليه السلام عندما أبلغ أن امرأة العزيز قالت كذا وكذا وهو من باب هضم النفس وعدم التزكية بها ، مع أنه علم هو وغيره والناس أنه برىء وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ ﴾ [يوسف : ٥٤]
أى أجعله خالصاً لى دون غيرى وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفسية لهم دون غيرهم ولما التقيا قال له الملك ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤]
أقالها الملك بمجرد وصول يوسف إلى القصر ؟ لا لا بد أنه جلس وتحدث معه ووثق من علمه ووثق من أمانته وحفظه ولذلك يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ دليل على أن الملك اختبر يوسف مرة وربما مرات ووثق فى علمه وأمانته . ومعنى ﴿ مَكِينٌ ﴾ أى ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك ، ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من امره ، أو على ما يكله إليه من ذلك .

حينما سمع يوسف هذا الكلام وعرف أنه حاز ثقة الملك قال : لو طلبت منه الآن شيئاً لأعطانيه وأنا سأطلب منه ما يتعلق بتفسير الرؤيا ، سأطلب أن أكون على خزائن الأرض لأنقذ الناس من المجاعة ، وأحفظ لهم حياتهم فقال : ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٥٥] وكأن الطلب تأكيداً لثقة يوسف فى أن رؤياه ستتحقق فى سبع سنين رخاء ، وسبع سنين جدباً ، وأنها محتاجة إلى حكمة فى إدارة شئون البلاد فى سنى الخصب ، تضمن ألا يحدث إسراف فى الاستهلاك ، وفى سنوات الشدة تضمن أن كل محتاج سيجد طعامه ، وهذه تحتاج إلى علم يعطيك حكمة التصرف وأمانة تعطيك العدل بين الناس وخبرة تضع كل شىء فى موضعه تماماً ؛ لذلك طلب يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم .

وطالب الولاية فى الإسلام لا يولى ولكن الظروف الاستثنائية تتطلب أن من له الحكمة أو الخبرة أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر ، ومثال ذلك قائد سفينة تلاعبت بها الأمواج وقائدها لا يعرف ماذا يفعل فيأتى واحد من الركاب ويقول له : اترك الأمور لى فأنا خبير فى هذه الناحية ، حينئذ لابد أن يتركها له حتى تنتهى العاصفة ويعود الهدوء ويترك إدارة السفينة لقبطانها . إذن .. فالإنسان لا يطلب الولاية إلا إذا أحس أنه يعرف وجه الخروج من الأزمة وفى طلب يوسف شجاعة فكونه يتقدم إلى العزيز ويطلب الولاية هذه شجاعة منه .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ ﴾ [يوسف : ٥٦] مكنا ليوسف كيف ؟ بأن اللّه تعالى علمه تأويل الأحاديث ، ثم جعل الملك يرى رؤيا تزعجه لم يفسرها إلا يوسف ، ومكنه بأمانته وحسن خلقه ، ومكنه بأن أبطل كيد أخوته الذين تآمروا عليه وألقوه

فى الجب ليباع عبداً ليس هذا فقط بل إن يوسف ابتلى مِنْ كل مَن أحبوه عمته وأبيه وامرأة العزيز . و حكاية عمته إنها كانت تحبه جداً، وربته وهو صغير بعد أن ماتت أمه ، وأراد أبوه أن يأخذه منها ، ولكنها لم تصبر على فراقه ، ففكرت كيف تبقى على يوسف عندها ، وكان هناك حزام يتحزم به إبراهيم ، اسمه منطقة إبراهيم ، والحزام كان عند عمة يوسف ، وكان المبدأ أن من يسرق شيئاً يعاقب بأن يصبح عبداً لمن سرقه . عمة يوسف ألبسته منطقة إبراهيم تحت ثوبه وعندما جاءوا ليأخذوه قالت إنه سرق .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ . تدل على سعة مساحة الأرض التى مكن منها يوسف ويتبوأ منها حيث يشاء : أى يتخذ من أرض مصر منزلاً حيث يشاء . أى يصنع فى الدنيا ما يشاء لتفويض الأمر إليه ، وهذا التمكين هو رحمة للناس لأنه فى كل منطقة سيذهب إليها سيعرف المشاكل على حقيقتها أو على الطبيعة ويحلها . هذا بالنسبة لأمور الدنيا أما بالنسبة لجزاء الآخرة قال سبحانه : ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يعدل ميزان حركة الحياة الذى لا يستقيم بالحديث عن الآخرة فقط دون أن يعطى للحياة قوامها الذى يضمن سير الأمور فيها على نحو تحقيق مصالح الخلق ، ويقول له إن أجرك فى الآخرة سيكون خيراً من أجرك فى الدنيا .

نعود إلى أخوة يوسف فمنذ أن ألقوه فى الجب لم نعرف ماذا فعلوا ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ . جاء أخوة يوسف لطلب القوت لأنها مجاعة ولا يوجد طعام

إلا فى خزائن يوسف ولا يصرف منه إلا بأمر يوسف ؛ يوسف عرفهم لأنهم لم يتغيروا ولكنهم لم يعرفوه لماذا ؟ لأنه كان صغيراً وأصبح رجلاً ولأنه كان على خزائن الأرض فكانت هذه تعطيه هيبة ولأن كل همهم الحصول على الطعام فلم يدققوا فيه .

يقول الحق : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف : ٥٩] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ الجهاز هو ما يحتاج إليه ومنه جهاز المسافر والقمح هنا هو ما جاءوا للحصول عليه .

وقال لهم يوسف : ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ، وكان العقل يقتضى أن يقولوا : من الذى أعلمه أن لنا أخاً من أبينا ؟ لم يتنبهوا إلى هذا لأن المجاعة والحصول على الطعام كان هو همهم الأكبر .

قول يوسف عليه السلام : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾ أى أعطيتكم حقكم فى الكيل وزيادة ولو جئتم بأخيكم من أبيكم فسأزيد الكيل لكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ إخبار يؤكد أن أخوة يوسف هم الذين نزلوا عنده ، وأن الله سبحانه وتعالى جعلهم يأتون وينزلون عنده ، ليقول لهم أحضروا إلىّ أخاكم من أبيكم . ثم يتبع ذلك بقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف : ٦٠] أى إن لم تأتونى بأخيكم من أبيكم فلا يوجد لكم كيل عندى ولا تقربوا هذه الناحية أبداً لتحصلوا على الطعام .

المسألة بالنسبة للأخوة ليست سهلة فهو خيّرهم بين أن يأتوا بأخيهم أو لا يأخذون الكيل وهم يعرفون أن أباهم لن يثق فيهم بعد ما فعلوه

بيوسف حتى يسلمهم أخاه الصغير لذلك قالوا : ﴿ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ [يوسف : ٦١] سنراود : أى سنتفاهم مع أبينا لأن هذه مسألة صعبة والمراودة أخذ ورد ، أنت تقول وهو يرد عليك ثم ترد عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ يعنى سنذهب ونحضره معنا .

ماذا فعل يوسف ؟ ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف : ٦٢] البضاعة هى ما جاءوا به ثمناً للقمح يوسف قال لرجاله : أعطوهم القمح وأعيدوا إليهم الأثمان التى أتوا بها وضعوها فى رحالهم بحيث لا يرونها إلا إذا عادوا إلى دار أبيهم لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليردوا ثمن ما أخذوه .

الحق سبحانه يقول : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف : ٦٣] منع منا الكيل : أى فى المستقبل بعد هذه المرة لأن العزيز قال لنا : إن لم تحضروا أخاكم ﴿ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أى إذا أردتنا أن نأتى لك بالقمح فالكيل لنا ممنوع إلا إذا أخذنا أخانا معنا . ورد الأب الملتاع قائلاً : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] قول يعقوب : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ دليل على موافقة يعقوب على أن يذهب أخو يوسف معهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ [يوسف : ٦٥] وجدوا القمح ووجدوا بضاعتهم التى أخذوها معهم ثمناً للقمح ردت إليهم فقالوا : ماذا نريد ؟ هذه

بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل وكانوا قالوا لأبيهم : قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته .

يقول الحق سبحانه على لسان يعقوب : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف : ٦٦] أى لن أرسله معكم حتى تحلفوا لى بالله إنه لن يحدث له شيء وسيعود معكم ثم جاء الاحتياط من يعقوب ، أى أن تحدث ظروف خارجة عن إرادتكم ، وفى هذه الحالة فقط سيكون ما حدث قدراً لايد لكم فيه . وقبل أولاد يعقوب الاحتكام إلى الله وفعلاً أخذ منهم العهد والميثاق وأشهد الله عليهم كما يقص القرآن الكريم علينا : ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

جاء موعد الرحلة والسفر إلى مصر وبحنان الأبوة وقف يعقوب يودع أبناءه ويزودهم بنصائحه قال يعقوب : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف :٦٧] يعقوب أراد أن يقى أولاده من شر الحسد (١) فقال لهم : لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة .

---

(١) عن بن عباس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » . أخرجه مسلم [٢١٨٨] . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق » . أخرجه البخارى [٥٩٤٤] ، ومسلم [٢١٨٧] .

وأطاع أبناء يعقوب أمر أبيهم ودخلوا من أبواب متفرقة : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٨] أى أنهم حينما أطاعوا أمر يعقوب لم يكن ذلك لينجيهم أو يمنع عنهم قدراً من أقدار اللّه ، فالأمر كله لله ، ولكن خاطراً ورد على نفس يعقوب فقضاها وهو أنه خاف أن يحسدوهم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ أى ما قاله لأولاده كان عن علم علمه اللّه له ، علم خاص بيعقوب . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن أكثر الناس يعزلون الأسباب عن المسبب ويعتقدون أن الأسباب تعمل بذاتها وهذا ما يتعب الدنيا .

يقول الحق تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩] كان يوسف متشوقاً إلى أخيه الذى لم يره منذ سنوات طويلة وقد كان شقيقه من أب واحد وأم واحدة . وأراد يوسف أن يطمئن أخاه لأنه لم يكن يدرى شيئاً عن قصة يوسف والبئر لأنه كان صغيرا ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ دليل على أنهم كانوا يعاملونه معاملة مهينة ، حقداً منهم عليه كما حقدوا على يوسف لحب أبيه له .

= وعن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت : « أمرنى رسول اللّه ﷺ أن نسترقى من العين » . أخرجه البخارى [٥٧٣٨] ، ومسلم [٢١٩٥] .

وعن أسماء بنت عميس رضى اللّه تعالى عنها قالت : يا رسول اللّه إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم فإنه لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » . رواه الترمذى [٢٠٥٩] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٦٨٢] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ [يوسف : ٧٠] أى أنه أعطاهم ما يريدونه من القمح والطعام وكل ما طلبوه وجعل السقاية فى رحل أخيه . والسقاية والصواع هو الوعاء الذى كان يشرب فيه الملك وكان إناء من فضة ، وكانوا يكيلون به الطعام ، ثم أذن رجل من الحاضرين : إنكم لسارقون بصوت عال وهذا معنى أذن . لقد كانوا جالسين بعيدين عن الإبل فلما سمعوا المنادى تنبهوا وأقبلوا يسألونه ماذا ضاع ؟ ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ [يوسف : ٧١] ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٢] والذى سيأتينا به لن نعاقبه بل سنعطيه حمل بعير زيادة .

والسرقة اتهام قبيح ، ولذلك أسرع أخوه يوسف يقسمون بالله إنهم لم يسرقوا شيئاً ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴾ فهم أمناء لا يسرقون وما جاءوا من بلدهم إلى هنا للسرقة . فأحتال يوسف ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [يوسف : ٧٤] وهذا قصد يوسف أن يترك أخوته يحددون العقوبة على أخيهم ويكون الحكم برضاهم ولا يمكن أن يتراجعوا فيه ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

ماذا فعل يوسف ؟ أمر رجاله أن يبدأوا أولاً بأمتعة أخوته والإبل التى جاءوا بها . يقول الحق ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ ﴾ . لأنه لو بدأ بوعاء أخيه أولاً : لانكشفت الحيلة لكنهم أخر ما فتشوا كان وعاء أخيه ثم يقول الحق : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، أى أن الله سبحانه وتعالى حقق ليوسف الأمل الذى تمناه فى أن يكون شقيقه معه وأعطاه من العلم ما جعله ينتصر على أشقائه ، أى علمه سبحانه الكيد لصالحه وما كان له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ يقصد به شقيق يوسف حيث سيعيش عيشة رغدة مع أخيه وفى نفس الوقت سيكون مع نبى الله يوسف فيزداد علواً فى الآخرة بتطبيق منهج الله الصحيح .

قال الحق سبحانه وتعالى على لسان أخوه يوسف : ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ٧٧] قالوا : إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر !! لماذا ؟ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل « أم يوسف و أخيه » لقد سرق أخوه الأكبر من قبل وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذى يخاطبونه . فأثار هذا الاتهام فى نفس يوسف انفعالات ولكنه كتمها داخل نفسه . ورسول الله ﷺ يقول : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » [1] ولقد حدث يوسف فى نفسه بهذا الكلام ﴿ تَصِفُونَ ﴾ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف وأنه لا حقيقة فى ذلك .

قال الحق حكاية عن أخوة يوسف : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٧٨] حاولوا استعطاف يوسف وقالوا : إن لهم أباً شيخاً كبيراً ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم بدلاً منه فخذ أحدنا مكانه بجريمة السرقة التى حدثت واتركه يعود إلى أبيه .

---

(١) رواه أبو داود [٤٧٨٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٠٠٠] .

رد عليهم يوسف : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٧٩] أى لا أريد إلا الحق ولو أخذت إنساناً بذنب إنسان أخر أكون من الظالمين حينئذ علموا أنه لن يجدى النقاش ولا الرجاء مع يوسف .

الحق تعالى يقول : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ ﴾ ، فلما يأسوا من نقاش يوسف جلسوا فى مكان ليس معهم فيه أحد وبدأوا يتهامسون وقال كبيرهم أنكم عاهدتم بموثق من اللّٰه أن حكاية يوسف لن تتكرر . ثم قال كبيرهم : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فكبيرهم قال : إنه سيبقى فى المكان الذى فيه أخوه حتى يأذن له أبوه أن يعود بعد أن يقتنع ببراءته أو أن يحكم اللّٰه له بأن يسلموه أخاه فيأخذه ويعود لأبيه فإذا لم يحدث هذا فسيبقى فى هذه الأرض حتى يموت واللّٰه هو خير الحاكمين .

ثم قال لأخوته : ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ [يوسف : ٨١] أى قولوا لأبيكم : إن ابنك سرق وهذا ما حدث وما كنا لنعلم أنه يسرق .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٢] والقرية التى كنا فيها وهى مصر والمعنى : اسأل أهل القرية والقافلة التى كانت معنا حتى الجماد أو الحيوان إليهم ذلك لأنه نبى والأنبياء قد سخر لهم الجماد والحيوان بما يحدث فيهم من المعرفة . وأولاد يعقوب أخذوا يكررون أنهم صادقون لأنهم كذبوا من قبل ذلك بالنسبة ليوسف وكان هذا موجوداً فى عقل يعقوب ولذلك لم يصدقهم بل قال :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف : ٨٣] ، و ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ بمعنى سهلت ويسرت وزينت ، ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أى تخفون شيئاً دبرتموه ولا أعرفه ثم يقول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، أى بيوسف وأخوه بنيامين والأخ الكبير .
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ العليم الذى لا يغيب عن علمه سبحانه شيء . والحكيم فيما يجرى علينا من أقدار .

لما جاء أولاد يعقوب وقالوا له ما قالوا ، ماذا كان موقفه منهم ؟ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] تولى عن أولاده أى تركهم ولم يواصل معهم الحوار ليخلوا بنفسه لأنه يتحسر على يوسف وأخيه وهو لا يريد أن يظهر الحزن والأسى لأحد من خلق الله لأنه قال : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] وساعة تسمع : يا أسفا ويا ويلتاه فهى تعنى أشد الحزن والتندم وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ الإنسان إذا امتلأت عيناه بالدموع تحدث غشاء على سواد العين فيبدوا أبيض وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف : ٨٥] وهم أولاد يعقوب قالوا : ستظل تذكر يوسف وتحزن عليه حتى تموت ؟! والحرض : هو الأشراف على الهلاك أى أنهم قالوا : إن يعقوب من حزنه على يوسف سيشرف على الهلاك ثم يكون من الهالكين فعلاً . وهنا رد يعقوب عليهم : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] أى لا شأن

لكم بى واتركونى لحالى ، فهو يعرف أن التضرع إلى الله فى وقت الضرر والأزمة عبادة .

ثم يقول يعقوب لأولاده : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ أى استقصوا ونقروا واستخدموا كل حواسكم من بصر وسمع وغيره لتصلوا إلى نبأ أو حقيقة من أمر يوسف .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ ﴾ أى لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه للكرب . وقال الأصمعى : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، وقيل الروح : الفرج وقيل : الرحمة ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفى الطافة .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ أى الذين لا يؤمنون بالله لأن هؤلاء لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية فإذا ما تخلت عنهم هذه الأسباب يملأ قلوبهم اليأس فينتحرون أو يصابون بالجنون أما المؤمن فيقول : لى رب هو خالق الأسباب سيفتح لى طريق الخلاص ، فالأسباب أعطاها لنا الله ولكن بقى خالق الأسباب يفعل ما يشاء فيأتى لك الشىء بلا أسباب ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ... ۝٣ ﴾ وقد تسعى فى شىء وتفشل فيأتيك شىء آخر من غير حساب . فالمؤمن إذا أتته المشاكل التى لا يجد لها حلاً فإنه لا ييأس لأن هناك إلهاً هو فوق هذه الأسباب كلها يستطيع أن يقول للشىء كن فيكون .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨] أى أصابنا الجوع والحاجة ويقولون أنهم جاءوا ببضاعة مزجاة : أى مدفوعة الثمن ويزجى : يعنى يدفع ولكن هذه البضاعة رغم أنها مدفوع ثمنها إلا أنها رديئة ليست جيدة . وهم يستعطفون يوسف ألا يعطيهم ثمناً قليلاً مقابل هذه البضاعة المزجاة .

فيقولون له : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ أى لأنهم يعانون المجاعة يطلبون كيلاً وافياً من القمح ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ فإن لم يكن هذا الكيل يساوى البضاعة التى يحملونها فليكن الباقى صدقة . وإنك لن تأخذ الجزاء منا حتى نقول : لا تملكون شيئاً لتعطونه ولكنك ستأخذ الجزاء من اللّه سبحانه وتعالى . والبعض قال هؤلاء أولاد نبى فكيف يأكلون الصدقة ؟ نقول هذه خاصة بآل محمد ﷺ (١) .

يوسف عندما سمع هذا الكلام ابتسم وضحك فظهرت ثناياه ، وكانت مميزة بحيث أن كل من يراها يعرفه فلما رأوا ثناياه بدأوا يدركون الموقف : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف : ٨٩] بمجرد أن قالها ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ ﴾ [يوسف : ٩٠] أى انهم أعلنوا شخصية يوسف بعد أن وثقوا منها ، ولم ينكر يوسف عليه السلام بعد أن رأى الحال الذى وصل إليه اخوته ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ ﴾ ورغم أنهم عرفوه إلا أنهم فوجئوا باعترافه وينبههم يوسف إلى أن اخاه دخل معه فى

(١) عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال : أخذ الحسن بن على رضى اللّه تعالى عنهما تمرة من تمر الصدقه فجعلها فى فيه ، فقال النبى ﷺ : « كخ كخ » ليطرحها ، ثم قال أما شعرت أنا لا نأكل الصدقه » أخرجه البخارى [١٤٩١] .

النعمة ثم أعطاهم حيثيات النعمة ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ، أى حيثيات النعمة هى أن الإنسان يتقى الله دائماً ولا يفعل ما يغضب الله ويجعل نقمة الله تحل به ، فإذا ابتلاه الله فإن عليه التقوى والصبر ، فإذا ما اتقى الإنسان وصبر فلابد أن تكون عاقبته أحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة ولذلك فإنه لا يوجد إنسان يقابل الأحداث بالتقوى والصبر إلا جازاه الله بالفرج والخير العميم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٩١] أى أن الله تعالى قد ميزك علينا جميعاً ﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ أى حالنا وقت أن فعلنا ذلك كنا خاطئين . وهناك فرق بين خاطئين ومخطئين . والخاطىء : هو الذى يعلم منطقة الصواب ويخطىء عن علم وعمد . أما المخطىء : فهو يقصد الصواب لكنه يخطىء . ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ وهذا قسم مثل والله ، وبالله ﴿ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ أى فضلك علينا ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ اعتراف بالذنب .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] التثريب : معناه اللوم العنيف وقالوا فى هذا المعنى : ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ﴾ أى عفو جميل ﴿ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ بعدما أعترفتم بذنبكم وتبتم ورجعتم إلى الله . ثم قال : ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] .

إذن .. فلابد أنه عرف أن أباه يربط عينيه من الحزن . ويقال إن الأخ الأكبر قال ليوسف : أيها العزيز إننى أنا الذى حملت إلى أبى قميصك وجئت عليه بالدم الكذب فدعنى أكفر عن ذنبى وأحمل القميص الذى فيه الشفاء إلى أبى .

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أى يأتى إلى يوسف وقد زال عنه الضر والمرض ويأتيه مبصرا .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف : ٩٤] . قوله ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ تدل على أن شيئاً كان متصلاً وفصل ، وقوله : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ ﴾ أى أنه شم الرائحة التى كانت فى القميص ، وقوله : ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أى تتهمونى بالتخريف لكبر سنى . وعندما سمع أولاده قوله بأنه يشم ريح يوسف ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٥] أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٦] أنظر إلى دلائل النبوة ؛ وكيف أن النبى يحس بالأشياء قبل الناس ، ثم يأتى الواقع فيؤيد ما يقول . ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٩٧] كأن ذنوبهم كثيرة وهم معترفون بخطئهم ماذا قال يعقوب : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يوسف : ٩٨] لم يقل : سأستغفر الآن إنما قال سوف أى بعد مدة . وتكلم العلماء كثيراً حول : ﴿ سَوْفَ ﴾ والراجح أن يعقوب آخر بنيه إلى وقت السحر وقت إجابة الدعاء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ وقول الحق : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ دليل على

حرارة اللقاء لأن الفراق استمر عمراً طويلاً ، يوسف مشتاق إلى أبيه ، والأب مشتاق إلى أبنه .

وقوله : ﴿ أَبَوَيْهِ ﴾ رغم أن أم يوسف ماتت ذلك إن العادة كانت إذا ماتت الأم يدعون الخالة أما ويجعلونها فى مقام أمهم . ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ السجود هنا هو شكر لله لأنه جمع شملهم وهداهم ، أو هو أعتذار ليوسف على ما بدر منهم نحوه ونحو أخيه ، أو هو تعبير عن الفرحة بجمع الشمل ، أو أن هذا كان من شريعتهم ثم حرم أو نسخ ؛ المهم أنه لم يكن سجود عبادة الذى لا يكون إلا لله وحده . وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى أجلسهم فى مكان مجلسه الدائم الذى يصرف منه كل أمور الدولة .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، يسترجع يوسف البداية يوم رأى وهو طفل الشمس والقمر والكواكب تسجد له فأسرع يقص على أبيه هذه القصة ، فقال الأب هذه الرؤيا تدل على أنه سيكون لك شأن عظيم فلا تقصها على أخوتك ، وهكذا يعيدنا فى آخر القصة إلى أولها . ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ لأن رؤيا الأنبياء واقع يحدث . قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى .

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ وهذا إحسان إلى أخوة يوسف بعد أن عاشوا فى البدو وجاء بهم إلى قصر العزيز حيث مصر ذات الحضارة العريقة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ ، الشيطان هو الذى وسوس لأخوة يوسف وأن الوسوسة كانت نزغاً وليست استقراراً على سوء . فكأن الشيطان شيء سطحى سريع الزوال خاصة إذا انتبهت وطلبت العون من الله ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] ، ثم يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ ﴾ لطيف : يعنى هو المدبر الذى لا يخفى عليه شيء واللطافة هى أن يكون الشيء دقيقاً جداً رغم أن له حيز .

ثم يتوجه يوسف إلى ربه ويقول : ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] يوسف عليه السلام يقول : ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى يوسف الملك ولا يمكن لأحد أن يعطى ملكاً فى الأرض قهراً عن الله سبحانه بل حتى الظالم والمفسد لا يصل أحدهما إلى الملك إلا بإرادة الله تبارك وتعالى . ﴿ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ لأن الله علم يوسف أن يفسر الرؤى ففسر لمن معه فى السجن وفسر للملك والله سبحانه وتعالى حين يعلم يوسف ذلك فهذه ليست عجيبه لأنه سبحانه فاطر السموات والأرض أى أنه خالق كل شيء ويعلم أسرار خلقه ﴿ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ أى ناصرى ومعينى لأنه نصره على كل العقبات التى واجهته فى حياته ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا ﴾ لأن الدين عند الله الإسلام ﴿ وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أى بأهل الجنه أو بآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

○○○

نبى الله أيوب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤ ﴾ [الأنبياء] .

وقوله : ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أى دعاء لأن النداء بالنسبة لله دعاء ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ .

والضر إبتلاء فى جسده بمرض أو غيره وقالوا إن الأنبياء يمرضون مرضاً ينفر الناس منهم . ومعنى الضر : هو الإيذاء فى الجسد . أما الضرر : فهوإيذاء فى أى شيء أخر غير الجسد ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ أعطى له إجابة دعائه وزاده أشياء لم يطلبها فى دعائه وهذا كله رحمة من الله وذكرى لكل عابد لأن العابد الذى يخلص عبادته لله ، عليه أن يعلم أنه اذا أصابه مكروه ولجأ إلى الله يرفع عنه هذا المكروه ويعطيه نعماً فوق ما طلب(١) .

(١) ورد ذكره عليه السلام فى أربع أيات من القرآن الكريم :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: ٤١] .

وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثاً وتسعين سنة ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عرياناً ، خر عليه رجل جراد من ذهب =

....

○○○

= فجعل يحثى فى ثوبه فنادى ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال بلى ياربى ولكن لاغنى عن بركتك » . أخرجه البخارى [٣٣٩١] .

وهو صاحب البلاء المشهور فى جسده ، لما أشتد به البلاء أخرجه أهل القريه التى كان فيها إلى كناسة خارج القريه ، فمكث أيوب عليه السلام مطروحاً على كناسة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهراً ما يسأل الله عز وجل أن يكشف ماله إلى أن أقبل على ربه يستغيثه ويتضرع اليه ، فرحمه ربه ودفع عنه البلاء ورد عليه أهله وماله ومثلهم معهم ، وقال له الحق تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٢] فاغتسل به ، فعاد كهيئته قبل البلاء فى الحسن والجمال . ورد خبره فى تاريخ الطبرى [٣٢٢/١] وما بعدها وتفسير أبن كثير [١٨٥/٨٣/٣] .

نبى اللّٰه ذى الكفل عليه السلام

قال اللّٰه سبحانه وتعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

وقال اللّٰه تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة « ص » ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

فالظاهر فى ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً ، وإنما كان رجلاً صالحاً ، وحكماً مقسطاً عادلًا . وتوقف ابن جرير فى ذلك .. فاللّٰه أعلم .

وروى ابن جرير عن أبى نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الجماهر أنبأنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتاده ، عن كنانة بن الأخنس قال : سمعت الأشعرى ، يعنى أبا موسى

---

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير [١٧/٧٤] وابن أبى حاتم كما فى الدار المنثور [٥/٦٦١] .

رضى الله تعالى عنه وهو على المنبر يقول : ماكان ذو الكفل نبياً ولكن كان رجلاً صالحاً يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل[1] .

○ ○ ○

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره [٧٥/١٧] وعبد الرازق فى تفسيره [١٨٨٢] وعبد بن حميد وابن المنزر وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور [٦٦٤/٥] وفى سنده ابن بشير فى عداد الضعفاء ، وقتاده يرويه تارة منقطعاً عن أبى موسى ، وتاره يجعل بينهما كنانه بن الأخنس ، وهو فى عداد المجهولين .

قصص الأنبياء لابن كثير [٣١٤-٣١٧] .

نبى الله يونس عليه السلام

هو يونس بن متى نبى الله عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل نينوى من العراق إلى مائة ألف أو يزيدون وكان قومه يعبدون الأصنام فبعثه إليهم بالنهى عن عبادتها والأمر بالتوبة إلى الله من كفرهم وتوحيده [1] . وسميت السورة باسم يونس لأن قومه هم الذين آمنوا قبل أن يروا مقدمات العذاب فأنجاهم الله سبحانه وتعالى ، وأسمع إلى قول الحق : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان وضرر تركه وتأخيره وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب[2] ، ومعناه أنه لو كانت هناك قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب لنجاها الله كما نجا قوم يونس ، ولكن لم يوجد قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب إلا قوم يونس هم القرية المستثناه من العذاب[3] .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] .

والنون هو الحوت ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ أى صاحب الحوت وهو يونس بن متى سماه الله ذا النون لأنه حبسه فى جوف الحوت الذى التقمه ، وقيل مغاضبًا لربه ، وقيل مقاضبًا لقومه ، والأول أصح[4] .

---

(١) تاريخ الطبرى [٢/١١-١٢] .

(٢) تفسير القاسمى [٩/٣٣٢٠] .

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسى [٣/١٤٣-١٤٤] .

(٤) لسان العرب [١/٦٤٨-٦٤٩] .

ولكن لماذا غضب يونس بن متى ؟ قالوا : لأن قومه كذبوه وحذرهم من تكذيبهم لمنهج اللَّه وعقابه ، ولكنهم عصوا وتمردوا وتأخر عنهم عذاب اللَّه ، فلما تأخر العذاب عنهم خاف أن يكذبوه فترك قومه ومشى ولم يكن يعلم أن القوم تابوا .

ذا النون خرج مغاضبًا : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ أى اعتقد أن اللَّه سبحانه وتعالى لن يضيق عليه فأرض اللَّه واسعة ، وظن أنه سيجد مكانًا آخر يكون أهله أكثر للدعوة وأقل عداوة له ؛ ولكنه مرسل إلى هؤلاء وكان لابد أن يتحمل الأذى منهم ، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة والتعنت كان شديدًا من أهل هذه القرية « نينوى » فمعنى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أى ظن أن اللَّه لن يضيق عليه ويتعبه بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة من قومه الذين تركهم فيسعد بطاعتهم بدليل أنه نادى فى الظلمات : ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهو يريد من اللَّه أن ينفس عنه كربته (١) .

وقول الحق : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ ﴾(٢) ، معناه أن هذه الدعوة ليست خاصة بيونس فقط ، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى ينجى بها كل من قالها

(١) فتح القدير للشوكانى [٣/٤١٩-٤٢٠] .

(٢) عن سعد قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب اللَّه له » .
أخرجه الترمذى [٣٥٠٥] وأحمد فى المسند [١/١٧٠] وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٧٨٥] صحيح وصححه الشيخ شاكر [١٤٦٢] .

من المؤمنين ، فأى مؤمن يقع فى كرب أو يصيبه هم فيقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فإن اللّٰه تعالى يفرج عنه ما هو فيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكل من يصيبه غم ثم يتجه إلى اللّٰه ويقرأ هذه الآية لا بد أن يذهب اللّٰه غمه لأنه سبحانه قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى مثل هذا الإنجاء ننجى المؤمنين .

عندما غضب يونس عليه السلام غادر القرية واستقل سفينة ليذهب بها إلى بلد آخر ، ربما يكون أكثر قبولًا لدعوته ، وحينئذ رأى قوم يونس عواصف ورياحًا شديدة وانقلابًا فى الطبيعة فذهبوا إلى علمائهم فقالوا لهم : إن هذه بداية عذاب سيصيبهم به اللّٰه سبحانه وتعالى لما فعلوه مع نبى اللّٰه يونس . وقالوا لهم : اذهبوا لترضوا يونس قبل أن يحل عليكم العذاب فآمنوا وبدأوا يردون المظالم إلى أهلها حتى قيل إن الرجل كان يهدم جدار بيته لأن به حجرًا سرقه من جاره ويعيد لجاره الحجر .

أما قصة الحوت ؛ فعندما ركب يونس السفينة وتلاعبت بها الأمواج قالوا : لا بد من تخفيف الحمولة حتى تنجو السفينة من الغرق وأجروا القرعة فحددت القرعة يونس عليه السلام فألقوه فى البحر والتقطه الحوت ولفظه الحوت على الشاطىء ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات] . أى أن الذى نجاه هو كثرة تسبيحه وكثرة ذكره للّٰه سبحانه وتعالى ، وأنبت عليه شجرة على الشاطىء لتحميه من حرارة الشمس .

○ ○ ○

نبى الله موسى عليه السلام[1]

يقول تعالى فى سورة القصص : ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : ٣] . هذه السورة اختصت بموسى وفرعون ، ولم تتعرض لأحد غيرهما إلا قارون ، مع أن السور الأخرى جاءت فيها مواكب أنبياء ؛ وذلك لأن هذه القضية تعرضت لمسألة القمة ، والقمة هى ادعاء الألوهية ، فجعلها الله سورة وسماها سورة القصص ، وقال فيها الحق سبحانه : ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ لم يقل : نتلوا عليك من خبر موسى أو من أمر موسى ولكن قال : ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ ﴾ ؛ لأن النبأ أمر مهم ، وهل هناك أهم من أن يأتى موسى ليرد واحد عن ادعاء الألوهية ؟ فهى مسألة مهمة حقا ، قال الله فيها سنتلو عليك بالحق ، وسماه الله القصص ، لماذا ؟ لأن القصص من قص الأثر ، فقد كان العرب قديما يتبعون آثار الأقدام ، فإذا حدث شئ وأرادوا أن يبحثوا عن الفاعل ، يسيرون وراء أثر القدم ، ويعرفون إلى أين ذهب ، وكذلك يعرفون إن كانت هذه القدم قدم طفل أو شاب أو امرأة الخ[2] .

---

(١) نبى الله موسى هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن ، والفرعون هو : الوليد بن مصعب بن ملك مصر ، وفى اللسان : فرعن : الفرعنة : الكبر والتجبر . لسان العرب [١٣/٣٢٣] .

(٢) وقد اهتدى أعرابى من قصاصى الأثر على وجود الله القدير حينما أعمل عقله وقال : البعر يدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، ألا يدل هذا الكون على إله خالق قدير .

من ذلك قصة الرجل الأعرابى الذى شرد منه جمل ، وأخذ يبحث عنه فلقيه رجل فقال له : عم تبحث ؟ قال : عن جمل لى شرد منى ، فقال له الرجل : هل جملك أبتر الذيل - أى مقطوع الذيل - ؟ قال : نعم قال له : هل به رجل عرجاء ؟ قال : نعم . قال : هل جملك أعور ؟ قال : نعم . فلما ذكر الرجل كل هذه الأوصاف فى الجمل ، أمسك به الأعرابى وقال : إذن أنت أخذت جملى . واقتاده إلى القاضى متهما إياه بسرقة الجمل .

فلما سأله القاضى وأنكر أنه أخذ الجمل ، قال له القاضى : إذن من أين عرفت كل هذه الصفات عن الجمل ؟ فقال الرجل : كنت سائراً فى الطريق فوجدت بعراً متجمعاً على غير عادة الجمال ؛ لأن ذيل الجمل يفرق بعره يميناً ويساراً عندما ينزل منه ، ولكنى وجدت هذا البعر متجمعاً فى أكوام صغيرة ، فعرفت أن صاحب هذا البعر جمل مقطوع الذيل .

فقال له القاضى : وكيف عرفت أن الجمل أعرج ؟ قال الرجل : لأنى وجدت أن للجمل قدماً غائرة فى الرمل ، والأخرى قد لامست الرمل ملامسة خفيفة ، فعرفت أنه أعرج . فسأله القاضى ، وكيف عرفت أنه أعور ؟ قال الرجل : لأنى وجدته يترك الخضرة فى جانب ويأكل من جانب واحد فعرفت أنه يرى بعين واحدة .

فهذا هو قص الأثر الذى نتكلم عنه . فمعنى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ أى : نقول لك أشياء هى الواقعة بالفعل[1] .

---

(١) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ أى : نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد ، وكأنك حاضر .

تفسير ابن كثير [٣/٣٦٦] .

والبشر أخذوا القصص وأدخلوا فيه الخيال والحبكة والرواية والعقدة والبطل وهذا ليس قصصاً ؛ لأن القصص هو الشئ الحقيقى .

ولذلك يسميه ربنا أحسن القصص ؛ لأنه مطابق للواقع .

إذن .. ما هو هذا القصص ؟

هو فى قول الحق سبحانه تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1] [القصص : ٤] .

وفرعون استعلى على رعيته وعلى من هم فوق الرعية ، من وزراء ومسئولين . ليس هذا فقط ؛ بل أنه علا حتى على ربه والعياذ بالله وأراد أن يكون إلهاً ، فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحد ؟! ومادامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوى ، فيستخدمها فى إذلال رعيته فهو لم يستعل فى الأرض فقط؛ بل أنه جعل أهلها شيعاً مع أن المفروض فى شرع الله أن الرعية كلهم سواء ، فلا تستأثر طبقة بحظوة عن طبقة أخرى ، لكن فرعون جعلهم شيعاً وسلط بعضهم على بعض .

ومصر فى ذلك العصر كانت مسكونة بالقبط ، وبعد ذلك فى أيام يوسف عليه السلام دخلها بنو إسرائيل ، وسكنوا فيها وتناسلوا وكان المفروض أنهم

---

(١) قال القاسمى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أى تكبر وتجاوز الحد فى الطغيان ، فى أرض مصر ، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى فرقا وأصنافا فى استخدامه وطاعته ، ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ وذلك إماتة لرجالهم ، وتقليلًا لعددهم ؛ كيلا يكثروا فينازعوه الملك ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أى المتمكنين فى الإفساد وقهر العباد .

تفسير القاسمى [١٣/٤٦٩٥] .

يذوبون فى المجتمع القبطى . والناس يفهمون أن كلمة قبطى معناها نصرانى ، وهذا خطأ ؛ لأن القبطى معناه المصرى القديم ، لكن لما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية ، فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس ، ولكن ما هو السبب فى أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة الرعاه الذين أزاحو حكم الفراعنة ، وتولى الملك ملوك الرعاة ، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل ، وكان من عادة الحكام أنه حينما يتولى حاكم ينظر إلى أنصار من كان قبله ويضطهدهم فلما انقرض ملوك الرعاة بدأ اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل لماذا ؟ لأن بنى إسرائيل كانوا يخدمون ملوك الرعاة .

هنا تجد إعجاز القرآن أنه حينما تكلم عن ملوك مصر فى القديم والحديث سماهم فراعين ، فهناك الآية التى نقرأ فيها قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ وهنا فى قصة موسى عليه السلام قال عن حاكم مصر : فرعون ، لكن فى قصة يوسف عليه السلام لم يأت ذكر للفراعنة ، ولكن ذكر لقب الملك ، وهذا من إعجاز القرآن ؛ لأنه فى أيام يوسف كان الذى يحكم مصر هم ملوك الرعاة ، لكن قبلها وبعدها كان الحكام فراعنة فمن الذى أخبر محمداً ﷺ بذلك ؟ إنه سبحانه الذى علمه ما لم يكن يعلم ، وأخبره بما لم يكن يدرى .

فمعنى هذا أن فرعون استعلى على الناس وجعلهم شيعاً تستبد شيعة بشيعة أخرى ، فشيعة الأقباط استبدوا ببنى إسرائيل ؛ انتقاماً لما فعلوه من مساعدة الرعاة الذين احتلوا مصر ، واستولوا على الحكم فيها ، وساعة يفرق فرعون بين الناس ويقسمهم إلى شيع متنافرة ، فهذا العمل منه ينفى أن يكون إلهاً ؛ لأن الإله يكون المخلوقون كلهم بالنسبة له سواء ، لكن الذى يحرض طائفة

على أخرى ليس بإله ، بل هو شئ مذموم ، يقول الله فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[1] [الأنعام : ١٥٩] لأنهم لو كانوا متمسكين بالدين لكانوا شيعة واحدة أو طائفة واحدة ؛ لأن الدين واحد ، لكن لأن كل واحد من الذين فرقوا دينهم يريد لنفسه سلطة زمنية ، تجده يكون لنفسه طائفة أو جماعة أو طريقة ؛ ليكون كبيرا عليها . فساعة ترى جماعة اختلفت وتفرقت إلى عشرين جماعة فاعلم أنهم مخطئون . لماذا ؟ لأن الإسلام - كما قلنا سابقاً - كالماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، والكل محتاج إليه فحين يتلون بلون يصبح مثل العصائر ، وتتفرق الرغبات فأنت تحب المانجو وهذا يحب الفراولة وذاك يحب التفاح أو البرتقال ، وتتفرق الأمة ويضيع الدين فمادام أصبح للدين لون فلا فائدة فيه ، ولذلك لما أخبر محمد ﷺ أن الأمة ستختلف على كذا طائفة وسألوه : فأيهم على حق ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى[2] فالطائفة التى على الحق واحدة ، وهى التى تقتدى بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه .

(١) نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى ، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث النبى ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث النبى ﷺ أنزل عليه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفا له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أى فرقا ، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه . تفسير ابن كثير [٢/١٩٦] .

(٢) روى ابن ماجه عن أنس عن النبى ﷺ : « إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنين وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة ، وهى الجماعة » . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٢٢٧] .

ففرعون كان يستضعف طائفة من رعيته وهم بنى إسرائيل ؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذين غزوا مصر ، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل فى ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين .

والإفساد : أن تأتى إلى شئ صالح فى ذاته فتفسده ، فكون فرعون يقتل الذكور من أطفال بنى إسرائيل ويستحى النساء فهذا فساد كبير ، لماذا ؟ لأن هناك شيئاً اسمه استبقاء الحياة ، وآخر اسمه استبقاء النوع ، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع ، فهو يقتل الأولاد ؛ خشية أن يناله منهم شر ، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال ؛ لأنهن ليست لهن شوكة ، ولا خطر منهن على ملكه .

والقرآن الكريم قال عن فرعون فى هذه الآية : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤]
ونجد القرآن قد شرح هذه الحكاية فى ثلاث آيات :

ففى سورة البقرة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

الآية الثانية : فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٤١] .

والآية الثالثة : ذكرها اللّه تعالى على لسان موسى لقومه ، حيث يقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٦] .

فحين جاءت القصة من اللّه سبحانه مباشرة قال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ .

وفى الآية الثانية قال : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٤١] فهنا تكلم عن ذبح وقتل ، ونحن نلاحظ أن واو العطف جاءت على لسان موسى فى قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٦] فلماذا لم تأت هذه الواو عندما جاء الكلام من اللّه سبحانه مباشرة ، وجاءت عندما كان الكلام على لسان موسى عليه السلام ؟ قالوا : لأن موسى يعدد على قومه نعم اللّه عليهم ، وأنت حين تعدد فضائلك على ابنك مثلاً فتقول له : ألم أشتر لك بدلة جديدة ؟ ألم أشتر لك حقيبة ؟ ألم أحضر لك حذاء وكراسة وقلما ؟ ألم أشتر لك دراجة تذهب بها إلى المدرسة ؟ ألم أدفع لك المصاريف ... إلخ .

فأنت تعدد فضائلك عليه أو توضح له كثرتها ، لكن حين يكون الكلام من الأعلى لا يذكر النعم الصغيرة ، فموسى حين تكلم أراد أن يضخم نعم اللّه على قومه ، فذكر يسومونكم سوء العذاب ، وعطف عليها يذبحون ، لكن حين يتكلم الحق سبحانه لا يمتن إلا بالشئ الأصيل من النعم .

وفى الآيتين اللتين جاء الكلام فيهما من اللّه تعالى مرة قال : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وفى الآخرى قال : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ فلماذا قال فى الأولى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ وفى الثانية : ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ .

قالوا : لأن ءازهاق الحياة له وسيلتان إما الذبح وإما الخنق ، فذكر الوسيلتين ، ولابد أن هذه حدثت وهذه حدثت أيضاً ، إذن عندما عطف ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾

على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾[1] كان الكلام على لسان موسى ، وموسى يريد أن يعدد نعم الله على قومه ويبين أنها كثيرة فقال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ لكن ربنا حين يمتن ، لا يمتن بالنعم الصغيرة ولكن يمتن بالنعم الأصيلة الكبيرة ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء ، هو نفسه سوء العذاب .

والسوم[2] معناه أن تطلب الماشية المرعى ولا نأخذها نحن إليه؛ بل نتركها في الخلاء تلتقط رزقها ، ولذلك يسمونها السائمة؛ لأنها هى التى تذهب لتبحث عن رزقها ، لكن الماشية التى نربطها نحن ونحضر لها ما تأكله لا تسمى سائمة ، إذن معنى يسومونكم أى يطلبون لكم العذاب أى سيتفننون فيه ، إذن فرعون كان مستعليا ومفسدا فى الأرض ، وفرق أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم وينكل بهم ، والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولا ، ليعدل سلوكه ويحسن الأمور ، ويأخذ بيد المستضعفين ، ولو أن المتسلط على المستضعفين لم يستعل ولم يتأب على طاعة الرسول والانقاد للحق ، لكانوا جميعاً مع بعضهم يعيشون رعية .

---

(١) ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أى يكلفونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأسوأه ، وقيل : يصرفونكم فى العذاب مرة هكذا ومرة هكذا كالإبل السائمة فى البرية ، وذلك أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخولاً وصنفهم فى الأعمال فصنف يبنون وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يخدمونه ، ومن لم يكن منهم فى عمل وضع عليه الجزية . تفسير البغوى [٩٠/١] .

(٢) سامه الأمر سوما : كلفه إياه . وقال الزجاج : أولاه إياه ، وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . قال أبو إسحاق ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ يولونكم . وقال الليث : السوم أن تجشم إنسانا مشقة أو سواءا أو ظلما ، وقال شمر : ساموهم : أرادوهم به . وقيل : عرضوا عليهم . لسان العرب [٣١١/١٢] .

يقولون : إن الثوريين حين يأتون للإنتقام من مفسد وأعوانه ، إنما جاءوا لينتقموا من هؤلاء المفسدين وينصفوا المظلومين . فكان يجب عليهم أن يمنعوا المفسد من الإفساد ؛ لأن منعهم له من الفساد فيه اعتدال الكون ، وبعد أن يقضوا على الفساد لا يفضلوا فئة فى المعاملة والقرب على فئة ، ولكن اعدلوا بين الجميع وبذلك تأمنوا من غضبهم أو حقدهم عليكم ؛ لأن الحقد يأتى من تقريبك لجماعة أو طائفة وإبعادك لأخرى ، لكن يجب عليك بعد أن أبطلت الفساد أن تمنع المفسد أن يفسد فهذا إصلاح ، ثم تأخذهم جميعاً فى كنفك ورعايتك وتحتضنهم حتى تأمن حدوث الثورة المضادة .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ العلو : هو الطغيان والتجبر والتكبر . وبلغ من ادعائه العلو أن ادعى الألوهية .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى : طوائف يخدم بعضها بعضا ، ويسخر بعضها لبعض وجعل الأمة الواحدة طوائف يكون لها عند الفاعل ملحظ ، هذا الملحظ أنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور ؛ لأنه إن استقرت بينهم الأمور ، ربما تفرغوا إلى شئ ضده فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوباً من كل واحد منهم .

والله سبحانه وتعالى قضى ألا تدوم هذه الحال ؛ لأنه لن يفلح ظلوم ، ولا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقم الله منه ويرى المظلوم آثار هذا الظلم الذى وقع عليه . فربما رحمه ، وحسبك من حادث بامرئ أن ترى حاسديه بالأمس راحمين له اليوم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[1] [القصص : ٥] والمنه عطاء معوض بدون مجهود ممن يعطاه[2] كأنها هبة من الله سبحانه ؛ لأن الحق كما قال الإمام على : إن الله لا يسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه ، غار سبحانه عليه ، فالله يريد أن يمن على هؤلاء المستضعفين فى الأرض ، ليس برفع الظلم عنهم فقط ، ولكن بجعلهم أئمة فى الدين ، وفى سياسة الأمور والملك ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] وإذا أراد الله فلا تستطيع قوة أن تقف أمام إرادته سبحانه فأمره نافذ ولا راد لمشيئته قال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ؛ لأنه تعالى لا يخلق بالمعالجة ، ولكنه يقول : ﴿ كُن ﴾ ولذلك يقول سبحانه :

---

(١) ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ أى ننعم ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم فى الخير ، وقال قتادة : ولاة وملوكا . ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ نملك فرعون بعد غرقة . زاد المسير [٨٦/٦] .
وقال ابن عطية فى قوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ يريد أرض مصر والشام .
المحرر الوجيز [٢٧٦/٤] .

(٢) قال أبو بكر فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ [يوسف : ٩٠] يحتمل المن تأويلين :
أحداهما : إحسان المحسن غير معتد بالإحسان ، يقال لحقت فلانا من فلان منه إذا لحقته نعمة باستنقاذ من قتل أو ما أشبهه .
والثانى : من فلان إذا عظم الإحسان وفخر به ، فالأول حسن والثانى قبيح .
لسان العرب [٤١٨/١٣] .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(١) [ق : ٣٨] فمن عدل اللّه سبحانه وتعالى أنه من على المستضعفين بفضله ، فلم يرفع العذاب والظلم عنهم فقط ، ولكن جعلهم أئمة ، وليسو أئمة فى مكان آخر غيرالذى كانوا مستضعفين فيه ولكن فى نفس المكان بعد أن أورثهم من كان يظلمهم فرفع عنهم العذاب وجعلهم أئمة على الذين ظلموهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾(٢) [القصص : ٦] كلمة نمكن ، نحن نعرف أن الأرض مكان والمكان هو الذى يحدث فيه الحدث ؛ لأن كل حدث يحتاج إلى مكان يحدث فيه وزمان يقع فيه ، فمعنى نمكن أى نجعل الأرض مكانا لممكن فى الأرض وقد كان فرعون ممكناً فى الأرض ، يتصرف فيها تسلطاً ويأخذ خيرها واللّه سبحانه أعطانا ذلك فى لقطات متعددة من القرآن الكريم ،

---

(١) قال قتادة : قالت اليهود – عليهم لعائن اللّه – خلق اللّه السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فىاليوم السابع ، وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل اللّه تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أى من إعياء ولا تعب ولا نصب . تفسير ابن كثير [٢٢٩/٤] .

(٢) ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ بأن يكون هذا الغلام الذى احترت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلى ، هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . تفسير ابن كثير [٣٨٠/٣] .

فنبى الله يوسف فسّر الرؤيا للملك وفرح به وأخرجه من السجن ثم قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤] فمعنى مكين هنا أى لك مركز ثابت ، ولا ينال أحد منك شيئا .

وفى آية آخرى يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٥٦] أى : أعطيناه سلطة فيأخذ خير الشئ ويصرفه للآخرين .

ومعنى : ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أن هامان هو وزير فرعون ، وكلمة : ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ تدل على أنه كان لكل منهما جنود وحرس خاص ، أو أن المعنى أن هامان يزاول سلطانه من باطن فرعون لأن فرعون لا يزاول سلطانه إلا بواسطة وزرائه ، فالجنود يأخذون أوامرهم من هامان ، فالمسألة واحدة . أو أن المقصود أن يجعل لهامان سلطة فرعون ؛ لأن هامان كان مركز قوة فى بلاط فرعون ولذلك كان هامان قوى الشخصية أمام فرعون ، ويرفع رأسه أمامه ، ونحن نسمع المثل الشعبى الذى يقول : « حتعمل ده على هامان »[1] أى أنك لا تستطيع أن تضحك على هامان لأنه مثلك ، فالله تعالى أراد أن يرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هؤلاء المستضعفين . يريهم الشئ كانوا يحذرونه ويخافونه . ما هو هذا الشئ ؟ الذى كانوا يحذرونه ويخافونه هو النبوءة التى جاءتهم إما بواسطة الرؤيا أو بواسطة الكهنة أنه رأى نارا تأتى من بيت المقدس وتتسلط على القبط فقط وتترك بنى إسرائيل ، فلما عبروا له الرؤيا قالوا : أنه سيأتى أحد من جهة بيت

(١) مثل شعبى : يضرب لمن لقى مثله فى خصلة من الخصال .
والمثل العربى : على أختك تطردين ، وقيل فى فرس عادات لرجل فركب أختها يطلب عليها .
المستقصى فى أمثال العرب [١/٤١٢] .

المقدس ويقضى على فرعون ويستولى على الملك أو أن الكهنة قالوا لفرعون : إن طفلا سيولد هذا العام يكون ذهاب ملكك على يديه[1] .

فالحق سبحانه أراد أن يرى فرعون وجنوده ما يحذرونه منه من هؤلاء المستضعفين ، ويرون هذا الذى يحذرونه بأعينهم ، وحين ننظر فى المسألة نجد أن فرعون عرف برؤيا منه بواسطة الكهنة ، أنه سيأتى وليد سيكون ذهاب ملكه على يديه ، فخاف على ملكه وأخذ حذره واحتياطاته فقرر أن يقتل الغلمان الذين يولدون والذى يأمر بقتل الغلمان يجلس على شط النهر ، فيرى تابوتا عائما وفيه طفل فيأخذه جنوده إليه ، ويقوم بتربيته دون أن يخطر على باله أن هذا الوليد يمكن أن يكون هو قاتله والمتسبب فى زوال ملكه ، ودون أن يفكر لماذا ألقى أهل هذا الطفل به فى هذا التابوت ووضعوه فى ماء النيل ، فكيف ينسى كل هذه الأشياء مع أنه يدعى الألوهية وأنه يعرف كل شئ ؟

إذا كان الكهنة قالوا له : إن ذهاب ملكه سيكون على يد طفل يولد من بنى إسرائيل فى عام كذا ، فمعنى ذلك أن هذا الطفل سينجو من القتل ويكبر ، ثم يكون على يديه زوال ملك فرعون ، فلماذا أتعب نفسه وقتل الأبرياء ، مع أن الرؤيا أخبرت أنه سيكون وسينجو من القتل ، فهو سيقتل غير الذى

---

(١) وهذا مما تلقاه القبط من بنى إسرائيل ، من أنه سيوجد منهم غلام يكون سبب هلاك وذهاب دولة فرعون على يديه ، فقد كان بنو إسرائيل يدرسون ذلك من قول خليل الله إبراهيم عليه السلام ، حين ورد مصر وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ومنعها بقدرته وسلطانه ، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من ذريته من يكون هلاك مصر على يديه . وكانت القبط تحدث بها عند فرعون .

تفسير ابن كثير [٣/٣٨٠] .

سيكون ذهاب الملك على يديه ، وطالما أفلت هذا الطفل من يده فهو إذن ليس إلهاً ؛ لأنه لم يعرف ذلك لا بألوهية ولا حتى بعقله وذكائه فهذا عجب ؛ لأن اللّٰه أنقذ هؤلاء المستضعفين وأبان لفرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء المستضعفين ، ما كانوا يحذرونه ويخافونه من أن ذهاب ملكهم وهلاكهم سيكون على يديهم .

والعجيب أن فرعون هو الذى يربى من سيكون سبباً فى هلاكه وزوال ملكه ويتربى فى داخل قصر فرعون وعلى يديه ، ويأتى به اللّٰه من بيت أهله الفقراء إلى قصر فرعون حتى يتربى فى العز والنعيم ، ويصبح قرة عين لإمرأة فرعون فحكمة اللّٰه جعلت فرعون يربى قاتله وهادم ملكه فى منزله ، فانظر إلى هذا التغفيل من فرعون وطمس بصيرته ، مع أنه يدعى الألوهية ، وذلك حتى نفهم قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] . ولذلك أم موسى أوحى اللّٰه إليها بقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص : ٧] . إن الوحى على إطلاقه إعلام خفى ، لكن الوحى الشرعى هو إعلام من اللّٰه لرسوله بمنهجه لخلقه ، والوحى إلى أم موسى هل كان نفثا فى الروع وإلهام يجوز ؟ هل كان بواسطة رؤيا . يجوز . أو كان بواسطة ملك كلمها وأرشدها إلى هذا الفعل ؟ يجوز .. المهم أن الذى أوحى بذلك إلى أم موسى هو اللّٰه سبحانه وتعالى ، أوحى إليها بماذا ؟

الأمر الأول : أرضعيه .

الأمر الثانى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ .

ومن النواهى : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ ، وهناك خبران وبشارتان : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

آية واحدة جمعت بين أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين ، وفى إيجاز معجز .

هل هذا الأمر يتقبله العقل ؟ لا . لأنه لا توجد أم يمر على ذهنها أو تفكيرها مثل هذا الخاطر أن تلقى بابنها فى البحر خوفا من خطر يهدده . لا توجد أم تتقبل فكرة نجاة الابن من موت محتمل إلى موت محقق ، بل ومؤكد ، لكن أم موسى أخذت الوحى بكامله ، أرضعت الابن ثم ألقته فى البحر وصدقت وعد اللَّه بأنها سوف تسترد الابن ويكون موسى نبيًا لأن الوحى هو الخاطر المقذوف فى قلب الإنسان ولا يجد له الإنسان معارضًا من ملكات النفس ، لكن لو وجد الإنسان ما يعارضه من ملكات النفس فإن هذا الوحى غير وارد من اللَّه وإنما من الشيطان .

ومعنى ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ أى : من مدة أمانك عليه أما إذا خفت عليه من أى شىء فألقيه فى اليم .

أم تلقى ابنها فى اليم الذى يأتى على بالها فى هذه اللحظة أنه سيضيع أو يغرق ، أو يتعرض للخطر ؛ فلذلك طمأنها ربها وقال لها : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ ، أى : لا تخافى عليه لأنه سيذهب إلى تربية خير من تربيتك أنت فى هذا البيت الفقير لأنه سيتربى عند الملوك ، ولا تحزنى للفراق ، فأنت مطمئنة إلى أنه سيعيش أحسن عيشة وسيتربى أحسن تربية ، ولكن لأنه بعيدًا عنك فلا تحزنى على فراقه لأن هذا الفراق سيعوضك خيرًا ويعوض الدنيا كلها خيرًا لأنه سيقضى على طاغية ويحيى منهجًا لخلق اللَّه فى الأرض .

ظلت أم موسى ترضعه عدة أشهر فى أمان بعيدًا عن العيون وكان قد رأى واحد من رعية فرعون قابلة - داية - خارجة من بيت أم موسى فوقع فى ذهنه أن أحدًا بالبيت فى حالة ولادة فأبلغ رجال فرعون وجاءوا ليفتشوا البيت .

فلما أحست أمه بالخطر خافت عليه فلفته فى قطعة قماش ، ولم تجد ما تخبئه فيه إلا الفرن وكان مسجورًا - مشتعلًا - بالنار ومن لوعتها وخوفها عليه لم تنتبه إلى أن الفرن فيه نار إلا بعد انصراف الجند ولم يجدوا شيئًا فتذكرت أنها وضعته فى الفرن فارتجفت عليه وذهبت لترى ما حدث له فوجدت النار بردًا وسلامًا عليه ولم يحدث له مكروه .

فاطمأنت إلى أن اللَّه حافظ هذا الوليد ولن يحدث له سوء وأن وعد اللَّه حق .

وقصة الوحى إلى أم موسى قد وردت فى القرآن مرتين .. فظن البعض أن القرآن يكرر الآيات بدون داع لذلك ، وقصدوا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] .

والوحى هنا جاء فى وقت الخوف ، وكلمة : ﴿ ٱقْذِفِيهِ ﴾ دليل على الاستعجال واللهفة لأنه ليس هناك وقت للعواطف .. ثم أمر اللَّه سبحانه البحر أن يلقى التابوت إلى الساحل أمام قصر فرعون ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ، فكأن الوحى فى الآية الأولى تمهيد لما يحدث لتستعد نفسيا للعمل ، لكن الآية الثانية جاء وقت الحادث كأنه يقول لها أسرعى وضعى الولد فى التابوت واقذفيه فى اليم .

بعد ذلك قال سبحانه : ﴿ يَأۡخُذۡهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ [طه : ٣٩] عدو لى ؛ لأنه ادعى الألوهية ، وعدو له ؛ لأنه سيقف أمام دعوته ويناصبه العداء وكون فرعون يأخذ موسى ويربية فى قصره ، فهذا دليل على أن اللّٰه تعالى إذا أراد شيئاً ، جعل أعداءه والكافرين به يقومون بهذا الشئ ، ويساعدون فيه دون أن يدروا ، وهم على تغفيلهم وجهلهم ، وإلا فهل يتصور أحد أن فرعون الذى كان يقتل الأطفال ؛ لأنهم قالوا له : إنه سيولد غلام يكون هلاكك على يديه ، بعد ذلك يجد طفلاً يقذف به البحر إلى قصره ، فيأخذه دون أن يفكر من الذى وضع الطفل فى البحر ، ولماذا لم يفكر أن هذا الطفل هو الذى سيقتله ؟ ولكن هذا مراد اللّٰه وليس مراد البشر وتجدُ زوجة فرعون تقول له كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ [القصص : ٩] ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه : ٣٩] فلما رآه فرعون ورأته امرأته ، وقع فى قلبيهما حبه ، فهناك محبة بأسباب الله ، ومحبة بدون اسباب ، ولكن اللّٰه أرادها .

واقرأ إن شئت قول اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] فقلب الإنسان يريد أن يفعل شيئاً ولكن اللّٰه لم يرد ذلك ، فيحول بين مراد القلب وينقله إلى شئ آخر ، وهذا ما حدث مع فرعون ، فهو وامرأته أخذا موسى؛ ليكون لهما قرة عين وأحباه واهتما بتربيته ، فهذه محبة وليست عداوة ، ولكن فى النهاية آل الأمر إلى أن يصبح هو العدو . ففرعون مع أنه ادعى الألوهية ، إلا أنه لم يعرف أنه يربى عدوه الذى سيقضى عليه ؛ لأنه كان مغفلا . بعض الذين لا يفهمون القرآن يقولون : القرآن يقول : ﴿ يَأۡخُذۡهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ثم يكررها فيقول :

﴿ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٩] مع أنهم التقطوه ليكون لهم ابنا وليس عدوا ، وهؤلاء يجهلون أن الآيتين ليستا مكررتين ؛ لأن إحداهما تصف جانباً من عداوة فرعون لموسى ولربه؛ فالعداوة هنا من فرعون ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ لكن فى الآية الأخرى ﴿ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فهنا العداوة من موسى . فمرة تكون العداوة من فرعون ومرة تكون من موسى؛ لأن العداوة حين تكون متبادلة من الطرفين ، تكون عداوة شرسة وتستمر ، ويحاول كل طرف التغلب على الطرف الآخر ، ولكن إذا كانت العداوة من طرف واحد سريعاً ما تهدأ وتنتهى؛ لأن الطرف المعادى يستفز الطرف المسالم فيتحمله ويصبر عليه ، فلابد أن يخجل بعد ذلك ويسكت ، لكن العداوة تكون شرسة حينما تكون موجودة عند الطرفين ، عداوة من فرعون لله ولموسى ، وعداوة من موسى لفرعون ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ أى ليست موجبات ذاتك يا موسى ولكنها تفضل منى عليك .

ومعنى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[1] أن الذى يربيه فرعون ، ولكنه يربيه على عين الله ، فإن تعرض لشئ فى تربيته يتدخل الحق سبحانه لإصلاحه ، ولذلك

---

(١) قال ابن الجوازى فى قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ وقرأ أبو جعفر : ﴿ وَلْتُصْنَعْ ﴾ بسكون اللام والعين والإدغام . قال أبو عبيدة : على ما أريد وأحب . قال ابن الأنبارى : هو من قول العرب : غذى فلان على عينى ، أى : على المحبة منى .

وقال غيره : لتربى وتغذى بمرأى منى ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا رباها؛ وصنع فرسه : إذا داوم على علفه ومراعاته ، والمعنى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ . زاد المسير [٥/١٩٨] .

مرة كان فرعون يداعب موسى وهو صغير فجذبه موسى من لحيته ، فغضب فرعون وكاد أن يقتله وتوجس فيه شرا ، فأخذته منه امرأته وضمته إلى صدرها وقالت له : إنه طفل صغير لا يعقل ولا يعرف التمرة من الجمرة ، فلم يقتنع فرعون وجاء لموسى بجمرة وتمرة فجعل اللّٰه يد موسى تمتد إلى الجمرة ؛ حتى يصرف فرعون عن مراده ، فأخذ موسى الجمرة ووضعها على لسانه فأصابته بلثغة [1] فيه تسببت في عقدة لسانه[2] ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ أى أن فرعون وحاشيته سيربون موسى ولكن لو حدث منهم أى اعوجاج أو تصرف مخالف في هذه التربية ، فإن اللّٰه سيحفظه ويرعاه .

(١) اللثغة : أن تعدل الحرف إلى حرف غيره . والألثغ : الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل : هو الذى يجعل الراء غيناً أو لاماً ، أو يجعل الراء فى طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاء ، وقيل : هو الذى يتحول لسانه عن السين إلى الثاء ، وقيل : هو الذى لا يتم رفع لسانه فى الكلام وفيه ثقل ، وقيل : هو الذى لا يبين الكلام .
لسان العرب [٤٤٨/٨] .

(٢) لما جاء موسى إلى قصر فرعون قالت امرأة فرعون : خذه ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ قال فرعون : هو قرة عين لك ولا لى . قال عبد اللّٰه بن عباس : لو أنه قال وهو لى قرة عين إذا لآمن به ، ولكنه أبى ، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها ، فقال فرعون على بالذباحين هذا هو ، قالت آسية : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ إنما هو صبى لا يعقل ، وإنما صنع هذا من صباه ، وقد علمت أنه ليس فى أهل مصر امرأة أحلى منى ، أنا أضع له حليا من الياقوت وأضع له جمرا ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه ، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبى ، فأخرجت له ياقتها فوضعت له طستا من جمر ، فجاء جبرائيل فطرح فى يده جمرة ، فطرحها موسى فى فيه ، فأحرق لسانه ، فهو الذى يقول اللّٰه عز وجل : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ۝٢٨ ﴾ [طه] . تاريخ الطبرى [٢٧٤/١] .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٠] أم موسى حينما ألقته فى اليم ، قالت لأخته : قصيه - أى تتبعى أثره - فلما حمله البحر إلى قصر فرعون المطل على النيل ، والتقطه آل فرعون ، حرم ربنا سبحانه وتعالى عليه المراضع .

قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] فكلما أتوا له بمرضعة رفض أن يرضع .

فقالت أخته لهم : أنا أدلكم على مرضعة ترضعه لكم . فوافقوا وجاءت أمه لترضعه وبذلك أعاده الله إلى أمه .

فقول الله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠] أى بلغ من فراغ قلبها أنها كادت أن تقول : هذا ابنى . لولا أن ربط الله على قلبها ، فالله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين ؛ لأن الإيمان يمنعك من الضار ويجلب لك النافع ؛ وإن كان الضار فيه شهوة عاجلة لك ، فهذا ابنك حقا ، وأنت ملهوفة عليه ، لكنك لو أظهرت ذلك لفرعون أو أحد من حاشيته سيقتلونه فى الحال ، فالله لا يريد منك ذلك حتى يظل ابنك حيا ، ولكنْ أم موسى مع تثبيت الله لها ، وصبرها على فراق ابنها ، لم تطق أن تترك وليدها فى الماء تتقاذفه الأمواج ، فأمرت أخته أن تراقبه من بعيد حتى تأتيها بالخبر .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] [القصص : ١١] . قصية أى : تتبعى خط سيره ، وانظرى أين يذهب ؟ وماذا يحدث له ؟ وقوله تعالى : ﴿ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ ﴾ دليل على سرعة الحدث ، فلم يقل : إنها قالت لها قصيه فلما قصته بصرت به . لا ، بل قال : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ ﴾ وهذا هو الإيجاز المعجز ؛ لأن المتحدث هو اللّٰه ، وكلمة « بصر » مثل « رأى » ولكنها أقوى منها . ومعنى ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : أنها رأته دون أن يراها أحد أو يعرف أنها رأته .

واقرأ قول اللّٰه تعالى فى قصة السامرى : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طه : ٩٦] ، فـ « بصر » أى : رأى شيئاً دون أن يعرف أحد أنه رآه ، وتتجلى حكمة وذكاء أخت موسى فى أن أمها قالت لها : قصيه ، ولم تقل لها : إياك أن يراك أحد ، أو توارى عن الأنظار ، ولكن هى من نفسها قدرت الموقف ، ولم تعط فرصة لأحد أن يراها وهى تتبعه ، وفى هذا يقول الشاعر :

إذا كنت فى حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصيه

فأخت موسى لم تكن محتاجة إلى من ينصحها أن تتوارى عن عيون القوم وهى تتبع أثر أخيها ، عرفت ذلك من نفسها .

---

(١) قال القاسمى : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ أى اتبعى أثره لتتالى خبره . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ بضم النون وسكونها . أى : عن بعد ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : أنها تتعرف حاله .

محاسن التأويل [١٣/٤٦٩٨] .

يقول تعالى : ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص : ٨] « اللقط » أو « اللقطة »(١) : هى أن تجد شيئاً بدون طلب له ، أن تكون سائراً فى الطريق مثلاً وتجد شيئاً دون أن تبحث عنه ، فاللقطة أن تجد شيئاً لم تطلبه ، و « اللقيط » هو الرضيع الذى تجده ملقى فى أى مكان فى الشارع ... إلخ . فآل فرعون التقطوا موسى ، أو وجدوه أمام قصرهم على الشاطئ فأخذوه .. لم ؟ قالت زوجة فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ ﴾ [القصص : ٩] وجاءت بحيثية أخرى وهى أنهما ليس عندهما أولاد ذكور ، فيكون لهما ولداً مع ابنتهما الوحيدة .

إذن .. علة الالتقاط عندهم يكون قرة عين لامرأة فرعون ، ويصبح ولداً يسند البنت . هذا علة الالتقاط عندهم ، فهل علة الالتقاط ظلت وبقيت كما أرادوها هم ؟ لا ؛ لأن الله أراد شيئاً آخر ، فهم فى الحقيقة التقطوه ، لا ليكون لهم قرة عين أو يكون لهم ولداً ، ولكن التقطوه ليكون لهم عدوا ، فهم أرادوا شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ، فقوله تعالى : ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ ﴾ فالحزن – بفتح الحاء والزاى – معناه ، مثل العدم والعدم ، وسقم وسقم ، وبخل وبخل ... إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٨] فقد أخطأوا فى أخذ موسى وتربيته ليكون لهم قرة عين ، مع أنه سيكون

---

(١) اللقط : أخذ الشئ من الأرض . واللقطة : اسم الشئ الذى تجده ملقى فتأخذه . لسان العرب [٣٩٢/٧] .

واللقيط لغة : ما يلقط من الأرض . ثم استعمل للصبى المطرود .

وفى الشرع : مولود طرحه أهله خوفا من الفقر ، أو فرار من التهمة بالزنا . تيسير القديرى فى الفقه الحنفى [٦٣] .

عليهم وبالا وهلاكاً فالتقاط موسى وتربيته فى قصر فرعون لا يتناسب والمقدمات التى عرفوها ، حيث إنهم كانوا يعرفون أن وليداً سيخرج إلى الدنيا تكون نهاية ملك فرعون على يديه ، وهذا الرضيع الذى وجدوه ملقى فى البحر فى تابوت ، لم يفكروا فى أن أهله فعلوا ذلك ، لينجوه من قتل فرعون ، ولم يدر بخلدهم أن يكون هذا الرضيع هو الذى سيكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يديه ، بل من فرط جهلهم أنهم أخذوه واعتنوا به ، وفى قصر فرعون ذاته . لم يسعفهم سحرهم ولا ألوهية فرعون المزعومة كيف ؟ ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

يقول تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾[1] [القصص : ١٢] فالتحريم هنا ليس كتحريم بعض الأشياء التى حرمها اللّٰه علينا ؛ لأن هذا الطفل لم يبلغ سن التكليف ، ولكن المعنى : منعناه من أن يقترب من أية امرأة تأتى لترضعه ؛ حتى يبحثوا له عن مراضع فتأتى أمه لترضعه ، وهذا كله بقدر اللّٰه . والمراضع جمع مرضع ، واللغة فيها مرضع ومرضعة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج: ٢] .

والمرضع هى التى من شأنها أن ترضع ، أى أن فى ثديها لبناً لكن المرضعة : هى التى يكون ثديها فى فم طفل ترضعه ، فالمرضع صالحة لأن ترضع ولكنها

(١) قال ابن كثير : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ أى تحريماقدريا وذلك؛ لكرامته عند اللّٰه وصيانته له أن يرتضع غير ثدى أمه ؛ ولأن اللّٰه سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه ؛ لترضعه وهى آمنه بعد أن كانت خائفة .

تفسير ابن كثير [٣/٣٦٨] .

لا ترضع الآن ، فالذهول عن التى ترضع أى أن طفلها يكون ملتقماً ثديها وتذهل عنه .

فلما رأت أخت موسى أنه لا يرضع من أحد قالت لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فلما قالت ذلك ، سمعها هامان فسألها إن كانت تعرف شيئاً عن هذا الطفل ، قالت : لا ، ولكنهم ناصحون ، محبون للملك ومخلصون له(١) .

فرده اللّٰه إلى أمه ، قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٣] فرده اللّٰه سبحانه إلى أمه كى تفرح وتقر عينها به ولا تحزن على فراقه ، ولتعلم بجزئية بشرها اللّٰه بها فتحققت ، وأن ما بشرها اللّٰه به سيتحقق كما تحقق جزء منه ، حينما امتثلت لأمر اللّٰه بوضعه فى التابوت ، وإلقائه فى اليم . ووعدها سبحانه برده إليها وجعله من المرسلين ، فوفى اللّٰه بما وعد به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] الأشد : هو القوة ، وهو أن يصل الإنسان إلى قمة نموه ونضجه الجسمى ، وهو ما بين ثمانى عشرة سنة إلى عشرين سنة ،

---

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس : لما قالت لهم ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعته ، فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخاصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً .

تفسير ابن كثير [٣/٣٦٨] .

أما الأستواء : فهو نضج العقل ، فلما بلغ سيدنا موسى قمة النضج الجسمى والعقلى ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وكذلك يجزى الله المحسنين . والمحسن : هو من يزيد فى طاعة الله وعبادته من جنس ما افترضه الله عليه[1] .

ثم تمضى الأحداث فيقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ أى : فى وقت القيلولة؛ لأن قوم موسى كانوا مضطهدين ، وهناك بعض المدن يمنعون من دخولها؛ لأن بها أكثرية من أعدائهم ، وكان موسى واحدا منهم ، ولكن الله جعل موسى يعزم على دخول المدينة – وهى « منف » – فأراد أن يدخلها وقت غفلة من أهلها ، واختار وقت القيلولة لأن الناس يقيلون فيه فى بيوتهم ، فلما دخلها وجد فيها رجلين يتشاجران أحدهما من شيعته أى من بنى إسرائيل ، والآخر من القبط .

ومعنى استغاث : أى طلب الغوث ، فاستغاثه الإسرائيلى على القبطى فوكزه موسى ، أى ضربه بجمع يديه ، فجاء قدر القبطى مع الوكزة ، فلم يمت من الوكزة ، ولكنه مات عندها لا بها فجاء أجله ؛ ولذلك يقولون : فلان قضى لى المصلحة ، وذهب إلى المسئولين ، وقضى حاجتى ، مع أن الواقع أنه لم يفعل شيئًا ؛ لأنه لا يقضى فى الأرض حتى يقضى فى السماء ، ولكن

---

(١) قال الشوكانى فى قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى مثل ذلك الجزء الذى جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله ، وألقت ولدها فى البحر ، وصدقت بوعد الله ، نجزى المحسنين على إحسانهم . والمراد : العموم .

فتح القدير [١٥٨/٤] .

ربنا أراد أن يكرم واسطتك ، فجعله يذهب ليتوسط فى الساعة نفسها التى قضى الله فيها ، فيكون قضى الله المصلحة معه لا به .

لما ضرب موسى الرجل فمات ، حزن وقال : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ عرف أن هذا العمل من فعل الشيطان ؛ لأنه عدو مضل واضح الضلال ، فاستغفر ربه وأناب إليه .

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص : ١٦] ساعة يخطئ الإنسان ويفعل ذنبا ويعرف أنه أذنب لا يكابر فيه ، بل يبادر على الفور ويقول : أنا ظلمت نفسى وحكمك الحق يارب فاغفر لى .

لما غفر الله تعالى لموسى وقبل توبته[1] ، عاهد موسى ربه ألا يكون ظهيرا للمجرمين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى يارب ، بما أنعمت على بالمغفرة وعذرتنى وتبت على ، أعاهدك يا ربى أننى لن أكون معينا للمجرمين .

وأصبح بعد هذا الحادث خائفا يترقب قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ : أى يرقب انفعالات الناس المقبلين عليه ؛ لأنه يخشى أن يؤذوه انتقاما للقبطى الذى مات فى المشاجرة .

---

(١) أخرجه مسلم [٢٧٥٩] . عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

لما أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب انفعالات الناس المقبلين عليه؛ خشية أن ينتقموا منه ، وجد الرجل الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يستصرخه .

كلمة استصرخ من الصراخ ، ونحن نعرف أن الصراخ استنجاد؛ ليخلصك من مأزق ، فمثلاً لو أن إنسانا كان فى بيته ، وفاجأه لص أو شب حريق فى بيته ، تجده يصرخ طالبا النجدة ، فالصراخ استنجاد لمن ينقذه؛ ولذلك نجد فى قول الحق سبحانه وتعالى عن إبليس وأتباعه : ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ .

لما وجد موسى الرجل الذى طلب نصرته بالأمس يستصرخه قال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨] أنت تريد أن تغوينى لأكرر خطأ الأمس ، ومع ذلك حن لنصرته ولم يترك خصمه يفتك به ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٩] .

وعندئذ جاء الرجل المؤمن من آل فرعون من آخر المدينة يسعى إلى موسى ليحذره ، وقال له : ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] ، فكأن الرجل ينصحه بالهرب قبل أن يقتله فرعون وقومه ، ولم يجد موسى بدا من الخروج ، ولكن كان ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٢١] أى خرج من المدينة متخفيا ؛ خشية أن يراه أحد ؛

لأن قوم فرعون كانوا يضطهدونهم دون أن يفعلوا شيئا ، فما بالك إن اعتدوا وقتلوا منهم واحداً ؟ أراد موسى أن يهرب من مصر كلها ، ويتوجه إلى بلاد مدين ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢١] .

كلمة ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ ﴾ أى : جهة ، ولكنه أراد الهرب ، خشية أن يفتك به فرعون وملؤه ، فسلك هذا الطريق فقاده إلى بلاد مدين ؛ لأن الله أراد له ذلك ؛ لأنه لو كان يقصد بلاد مدين بالذات لما قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فكأنه رأى أمامه طريقا فسار فيه ؛ لأنه لم يكن عنده وقت التفكير إلى أى بلد يذهب ، وأى طريق يسلك .

والقضية التى تشغل العالم الآن هى قضية الجنسين : الرجل والمرأة ، وهذه القضية هى رأس الحربة التى توجه دائما للإسلام ، لماذا؟ لأنهم يريدون أن تظهر المرأة مفاتنها وتختلط بالرجال ، فى سن المراهقة أقوى أوقات ثورتها ، فيشغلون الناس بها ، القرآن أتى ليوضح هذا فى قصة موسى ، وهو مهاجر من مصر هربا من القتل ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص : ٢٣] فموسى عليه السلام عندما وصل البئر التى يشرب منها أهل مدين ويسقون أنعامهم ، وجد عندها عددا من الرجال يسقون أنعامهم ، ووجد بعيدا عنهم امرأتين تذودان .

فمعنى قوله : ﴿ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى تمنعان الماشية أن تقترب من الماء ، وهى عملية لفتة للنظر؛ لقد جاءتا لتسقيا ، فلماذا تمنعان الماشية عن الماء ؟ كان طبيعيا أن يسألهما موسى ما خطبكما ؟ يعنى ما حكايتكما ؟ ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[1] جملتان فقط قالتاهما الفتاتان ، لا نسقى حتى ينصرف الرعاة ، وأبونا شيخ كبير ؛ ولذلك فالفتاة فى الإسلام لا تخرج من بيتها إلا لعلة ، والفتاتان خرجتا لأن أباهما شيخ كبير وبقيتا بعيدا عن الرجال ؛ إذن .. فالضرورة هنا على قدرها . وليس الخروج للعبث ، أو لمقابلة الرجال ، أو غير ذلك .

هنا يأتى دور المجتمع الإيمانى فى قوله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ساعة وجد فتاتين اضطرتا للخروج للضرورة قضى لهما حاجتهما على الفور لتعود إلى بيتهما ، ولقد كنت فى مكة وكان معى صديق عزيز ، ونحن فى الطريق أوقف صاحبى السيارة التى كنا نستقلها إلى الكلية ، ونزل منها ، وذهب إلى بيت وأخذ لوح عجين مغطى بقماش ووضعه فى السيارة فسألته ماذا يفعل؟ قال : لوح العجين الذى وضع أمام الباب ، والباب مغلق معناه أن صاحب البيت غير موجود ، ولا يوجد فى البيت إلا النساء ، ولذلك فمن الواجب الإيمانى أن تأخذ لوح العجين إلى الخباز ثم تعيده إلى مكانه بعد أن يتم خبزه ، هذا هو المعنى الإيمانى فى قوله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

يأتى بعد ذلك أن الفتاة التى تخرج للضرورة يجب ألا تستمرئ هذا الأمر ، فإذا وجدت طريقا يحميها من الخروج فلابد أن تلجأ إليه .

---

(١) قال الشوكانى أى : قال موسى للمرأتين : ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ والخطب هو الشأن . قيل : وإنما يقال : ما خطبك لمصاب أو مضطهد أو لمن يأتى بمنكر؟ ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ أى : إن عادتنا التأنى حتى يصدر الناس عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم ، أو عجزا عن السقى معهم . فتح القدير [١٦١/٤] .

ابنتا شعيب حينما عادتا لم تخفيا الأمر عن الأب حتى يفتح أمامهما باب الخروج ، بل سارعتا تحكيان القصة للأب ، ولم يأخذ الأب القصة هكذا ، بل رأى أنه لابد أن يتأكد ويعرف بنفسه هذا الشاب الذى ساعد ابنتيه . وما هى نواياه ؟ ولذلك طلب من إحدى ابنتيه الخروج لتطلب من موسى أن يحضر إلى البيت ليقابل الأب ، ولأن موسى لا يريد منها سوءاً ، مشى أمامها حتى وصل إلى بيت شعيب ، وكان أول شئ يريد شعيب أن يعرفه قصة هذا القادم ، ليختبره ويعرف نواياه ؟

قص عليه موسى القصة ، وشعيب اطمأن له ، والفتاتان وجدتا فى موسى مخرجاً ؛ لكى لا تخرجا لسقى الماشية ، ولو كانتا تريدان الخروج ٢٢٩لما اقترحتا هذا ؛ ولذلك قالت إحدى الفتاتين كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[1] [القصص : ٢٦] .

إذن .. فالمرأة حين ترى طريقة تنهى بها خروجها من البيت واختلاطها بالرجال ، تسارع وتقترحها .

الأب النبى الحكيم رأى أن اشتغال موسى عنده ودخوله البيت وخروجه لا يصح ، وخير طريقة أن يزوجه إحدى ابنتيه ، فتصبح الأولى زوجته والثانية محرمة عليه ، لذلك قال له : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ ﴾ [القصص : ٢٧] . ولكن موسى رجل فقير لا يملك شيئاً فكيف سيدفع المهر؟ المهر يؤدى على أى وضع ؛ ولذلك قال شعيب : ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ ﴾ [القصص : ٢٧] ..وهذا يعنى أن المفاصلة فى المهر مباحة ، وأن المهر يمكن أن يؤدى عملاً بدلاً من المال .

خصوم الإسلام يريدون أن يجعلوا المرأة نصف المجتمع ، ولابد أن تخرج وتشارك الرجل ، مع أن هناك مؤتمرا عقدته نساء أمريكا أوصى بأن تعود المرأة إلى بيتها . فنساء أمريكا يطالبن بعودة المرأة إلى بيتها ، ونساؤنا - هنا - يقلن : لا بد أن تخرج المرأة لتبنى المجتمع . ومع أن المرأة تبنى المجتمع وهى فى بيتها مع زوجها وأطفالها أفضل مما تبنيه وهى فى أرقى المناصب ؛ فطفولة الإنسان هى أطول طفولة بين المخلوقات - حوالى خمس عشرة سنة - وهذه الطفولة طوال هذه السنوات تؤثر فيها الأم فى كل شئ ، فى الدين ، فى القيم ، فى الأخلاق ، فى الأمانة ، وفى كل خلق كريم .

ولذلك عندما تقول المرأة : أريد أن أخرج للعمل ، نقول لها : أنت أم فاشلة ؛ فالأمهات اللاتى خرجن للعمل ووصلن إلى أعلى المناصب لم يخرجن لنا عظيما واحدا ، وكل عظماء الدنيا من الأمهات اللاتى جلسن فى البيوت لتربية أولادهن .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] الأجل هو الثمان سنوات أو العشر . والحق سبحانه أطلق على الزوجة : أهل الرجل ، ونحن نقول إن أهلى معى ، أو أن الجماعة معى ؛ وذلك لأن الزوجة تقضى للرجل ما لا يقضيه غيرها وتزيد شيئا لا يصح أن يقضيه غيرها ، فقامت مقام الأهل أو الجماعة .

ومعنى : ﴿ ءَانَسَ ﴾ أبصر ورأى ، أو أحس بشئ يؤنس ، من الأنس . ﴿ ٱلطُّورِ ﴾ هو جبل الطور بجنوب سيناء ، ومعنى : ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ أى انتظروا فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا ﴾ معناه أنه يخبرها ، وأنها لم ترها ، ولو كانت نارا مادية من صنع البشر لاستوى الأهل معه فى الرؤية ، فكأن هذه حالة خاصة به .

وكلمة ﴿ لَّعَلِّيٓ ﴾ تفيد الرجاء ؛ لأنهما كانا تائهين لا يعرفان أين يذهبان ؟ ولا أين الطريق ؟ فهذا هو الخير الذى يسألان عنه ، وكان الجو باردا يستلزم البحث عن جذوة من النار يستدفئان بها ، فمأرب موسى وأهله فى تلك اللحظة شئ يهديهما الطريق ويعرفهما أين هما ، وشئ يدفئهما من البرد ، فجاءهما الحق سبحانه بهذين الأمرين معا برؤية هذه النار .

فى هذه الآية موسى آنس النار بذاته ، ولكن فى الآيات الأخرى يخبر أهله بأنه آنس هذه النار ، فهذا ليس تكرارا للقصة ؛ لأن موسى عليه السلام آنس بذاته نارا بجانب الطور ، وبعد ذلك قال لأهله : ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا ﴾ ، ومرة يقول لهم : ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا ﴾ ، وهذه عملية منطقية لابد أن تحدث ، فهو وزوجته يسيران فى ظلام الصحراء ، والجو بارد ، والطريق غير واضح المعالم ، فهو يريد أن يهتدى إلى الطريق ، ويحتاج إلى نار؛ ليستدفئ بها . فلما رأى النار ، وأخبر زوجته أنه سيذهب يستطلع الخبر ، لابد أنها ستطلب أن تذهب معه ؛ خشية أن تظل وحدها فى هذا الجو المخيف ، ولكنه سيمنعها من الذهاب معه ويأمرها أن تنتظر حتى يذهب هو ، ويستطلع الأمر أولا ؛ ولذلك جاءت الآية الأخرى بلفظ : ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ ﴾ ؛ أى : انتظروا .

ففى البداية آنس هو النار ، فأخبر أهله بذلك ، وبعد ذلك أمرهم أن يمكثوا ولا يأتوا معه إلى النار ، فالآية قد وردت ثلاث مرات :

الأولى : آنس ﴿ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ ﴾ .

الثانية : قال : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ .
الثالثة : ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ .
وقيل أن يذهب إلى النار ليرى ما عندها قال لأهله :
﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [النمل : ٧] .
ومرة يقول : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ .
فى الآية الأولى قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ .
وفى الآية الثانية قال : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وهذا رجاء ، فما معنى ذلك ؟

قالوا : لأن الإنسان يحتاج إلى شئ ، حين يذهب إليه يكون عنده أمل كبير أن يتحقق ما يريده منه ، فيقول : إنه سيحدث أو سيتحقق ، وبعد ذلك يتيقن ويعود إلى نفسه ، فيشك أن يحدث؛ لذلك قال موسى مرة : ﴿ سَآتِيكُم ﴾ ، ومرة قال : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم ﴾ ؛ وذلك حتى يكون صادقا مع خواطر نفسه أمام شئ غائب عنه .

كذلك تجده فى تكملة الآية يقول : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] .
وفى آية أخرى قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

الشهاب هو النار التى لها لهب . أما الجذوة فهى التى تتبقى من النار بعد انتهاء اللهب ، مثل الجمر أو الفحم . وموسى عليه السلام وضع الاحتمالين ؛ لأنه لا يدرى هل سيصل إلى النار وهى مشتعلة فيأخذ منها شهابا مشتعلاً ، أم أنه سيصل إليها بعد أن يكون قد خمد لهيبها ولم يبق فيها إلا جذوات

أو جمرات ، يحمل منها شيئا إلى أهله ليستدفئوا بها ، والعلة فى الحالتين أن يدفئ أهله .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ والإصطلاء هو التدفئة ، فهو بذلك جاء بكل الاحتمالات .

إذن .. كل تكرار له معنى ، وله سبب ، فكل قصة لها لقطات متعددة تكمل معناها أو أحداثها .

قول اللّه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ إذا كان النبى موسى وزوجته فى الرحلة ، فكيف يسميها القرآن أهله ؟ بعض العلماء قالوا : ربما كان معها الخدم ، أو الرعاة وهذا كلام طيب ، ولكن كلمة أهل هنا لها معنى ، فالإنسان منا يحتاج إلى أشياء كثيرة فى حياته ، قد تتكامل هذه الأشياء بتعدد الناس ، فهذا يطبخ الطعام ، وهذا ينظف البيت ، وهذا يصنع له القهوة والشاى ، وهذا يكوى الملابس ، وهذا يقود السيارة ، وهذا يشترى الخضار ولوازم البيت من السوق .. إلخ ، فهو يحتاج فى خدماته إلى مجموعة من الناس ، لكن هناك شيئاً واحداً لا يستطيع أحد أن يعطيه له إلا زوجته فهو لا يتمتع إلا بها ، ولا ينجب ذرية إلا منها ، وقد تقوم هى بكل هذه الأعمال وتغنيه عن هؤلاء الناس جميعاً ، فكأن الزوجة تغنى عن الأهل كلهم .

فكلمة « الأهل »[1] هنا تعنى الزوجة . وفى اللغة العامية لغالب المصريين تجد الناس يقولون : « فلان حضر هو وجماعته » هنا كلمة جماعته مقصود بها

---

(1) ابن سيدة : أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه . وأهل المذهب : من يدين به ، وأهل الإسلام : من يدين به . وأهل الأمر : ولاته . وأهل البيت : سكانه . وأهل الرجل : أخص الناس به وأهل بيت النبى ﷺ : أزواجه وبناته وصهره ، يعنى عليًا ، وقيل : نساء النبى ﷺ . لسان العرب [٢٩/١١] .

زوجته ، وفي هذا احترام للزوجة ، فهو لم يذكر اسمها ، وذكر لها صفة طيبة ، وهي أنها تقوم بمهام كثيرة لا تقوم بها إلا جماعة من الناس .

ومعنى : « آنس »[1] : أي شعر وأحس بشئ يؤنسه ، وهي ضد التوجس ؛ لأن التوجس معناه الإحساس والشعور بشئ مخيف ، قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ﴾ [طه] في هذه الآية كلمة « آنس » أفادت أنه أبصر ورأى .

ومعنى : ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : خبر يخرجنا من حالة الضياع وعدم معرفتنا الطريق .

ومعنى : ﴿ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ الشهاب : هو النار المشتعلة .

ومعنى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ نودى من النداء ، والنداء : طلب إقبال أحد ، فتقول : يا فلان فيأتيك ، وبعد ذلك تأمره بما تريد .

وهنا النداء لم يذكر فيه اسم نبي اللّه موسى ، مثلما جاء في قوله تعالى : ﴿ ... نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ ﴾ [طه] ولكن في هذه الآية لم يقل : يا موسى ، بورك من في النار ، فليس هذا نداء . فالنداء يطلق ، ويراد به مجرد الخطاب ؛ لأنه ما دام يخاطبه فكأنه ناداه ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في سورة الأعراف : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ

---

(1) ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ قال الفراء : إني وجدت . يقال : هل آنست أحدا ؟ أي : وجدت . وقال ابن قتيبة : آنست بمعنى أبصرت . زاد المسير [٥/١٩٠] .

قَالُواْ نَعَمْۚ ﴾ [الأعراف : ٤٤] . فهم لم يقولوا لهم : يا أصحاب النار ، وإنما أخبروهم بما أعطاه الله لهم من نعيم فى الجنة ؛ فكلمة نادى تعنى : أن تناديه ، فتقول : « يا كذا ... » أو تخبره بما تريد أن تقول له مباشرة .

الآية تقول : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ساعة تسمع كلمة : نودى ، أو قال ، أو وسوس ، وترى بعدها الحرف « أن » ، فاعلم أنه تفسير للنداء ، ولكن كيف يبارك الله فى النار وهى التى تحرق ما يلقى فيها ؟ قالوا : هناك خلق لا تؤثر فيهم النار مثل الملائكة ؛ ولذلك قال المفسرون : إن نبى الله موسى رأى هذه النار فى فرع شجرة ، وكلما زادت النار اشتعالا ، زادت الشجرة خضرة ونماء ، فلا النار تحرق الخضرة ، ولا رطوبة الخضرة تطفئ النار ، فمن الذى يقدر على هذا إلا الله سبحانه وتعالى ؟!

إياك أن تقول كيف يحدث هذا ؟ بل نزه الله عن تصرفاتك وقدرتك أنت ؛ لأنه سبحانه القادر على كل شئ : يقول للشئ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] [النمل : ٨] أى : إن كنت ترى نارا فى خضرة الشجرة ، فلا النار تحرق اخضرار الشجرة ، ولا الشجرة بما فيها من مائية تطفئ النار ، إن كنت ترى عجيبا فهو عجيب عندنا ، ولكنه ليس بعجيب عند من له القدرة التى تخرق النواميس .

(١) قال ابن كثير : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] أى : إنما يأمر بالشئ أمرًا واحدًا لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد ، إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له : ﴿ كُن ﴾ قوله : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ . تفسير ابن كثير [٣/٥٦٠] .

(٢) قال الطبرى فى قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : تنزيها لله رب العالمين مما يصفه به الظالمون . تفسير الطبرى [٩/٤٩٧] .

إذن .. فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ هو خبر وهناك آية أخرى فى القرآن الكريم ، تدل على أن النداء لا يكون معناه طلب الإقبال ، بل هو مجرد الخبر ، وذلك فى قصة نبى الله عيسى لما كلم أمه مريم عليهما السلام ، كما ورد فى قول الله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾[1] [مريم : ٢٤] فهو لم يقل لها : يا مريم ، أو يا أمى ، ولكن خاطبها ألا تخافى وألا تحزنى ، فالخطاب نفسه هو النداء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] قال المفسرون إنه لما أتاها وجد نورا يتلألأ فى شجرة وهذا النور الذى يتلألأ فى الشجرة لا خضرة الشجرة تؤثر عليه فتبهته ، ولا النور يطغى على خضرة الشجرة فيضعفها . . مسألة عجيبة لأن الضوء الشديد حين يسقط على الخضرة يبهت لونها والخضرة الشديدة تبهت الضوء ، ولكن هذا لم يحدث مع النور الذى رآه موسى عليه السلام على الشجرة .

بعد ذلك قال له الحق سبحنه وتعالى : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ فحينما سمع موسى ذلك لم يتعجب مما رأى من النور والخضرة الذى لم يطغ أحدهما على الآخر ، ولم يتعجب من سماع الكلام دون أن يرى من يكلمه ، لأن هذا الشئ من عند الله تعالى ، ولا يقاس بأحداث البشر ، فاطمأن على أنه فى حضرة ربه الأعلى سبحانه وتعالى . وساعة يتكلم الحق عن ذاته سبحانه يأتى بالضمير المفرد : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ لكن ساعة يتحدث عن فعله سبحانه يأتى

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ أى : جبريل لما سمع قولها . وكان أسفل منها تحت الأكمة . وقيل تحت النخلة . وقيل المنادى هو عيسى .

فتح القدير [٣/٣٣٢] .

بضمير الجمع مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] .

فقال : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ لم يقل إننى الرب المطلق ولكن قال له أنا ربك أنت ، وذلك لأن الرسل لهم تربية خاصة تختلف عن باقى الخلق جميعاً ؛ ولذلك قال له فى آية آخرى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : ٣٩] وقال أيضاً : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه : ٤١] فهو سبحانه يعطيك من التربية بما يناسب مهمتك عنده .

وأول أمر وجهه الحق سبحانه لموسى فى هذا الموقف أن يخلع نعليه ، وعلة ذلك أنه بالوادى المقدس الذى اسمه : « طوى » .

وفى آية آخرى يقول : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [القصص : ٣٠] وهذا ليس تكرار فى القرآن ، ولكن كل آية تعطى لقطة ، فلو جمعنا اللقطات تعطينا القصة كاملة فالوادى المقدس اسمه : « طوى » ، وفى الآية الثانية حدد المكان أكثر وبين أنه فى : ﴿ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ . فهذا تحديد للمكان ، ولكن لماذا أمره بخلع نعليه ؟ قالوا : لأنه مادام واديا مقدسا لا يصح أن تفصل جسمك بشئ يفصلك من هذا الوادى مع أنه يمكنك أن تصلى فى نعلك ما دام طاهرا ولكن هنا الوادى مقدس أى مطهر ولذلك بعض الناس كانوا يمشون حفاة فى المدينة المنورة لعلهم يصادفوا موطئا لقدم الرسول ﷺ [1] .

---

(١) عن عاصم الأحول عمن حدثه قال : « كان ابن عمر إذا رآه أحد ظن أن به شيئاً من تتبعه آثار النبى ﷺ » . أخرجه أبو نعيم فى الحلية [١/٣١٠] واللفظ له ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى [٤/١٤٤] .

ومعنى ﴿ فَٱسْتَمِعْ ﴾ أى هيئ كل جوارحك لأن تسمع ، لأن الأحاسيس مختلفة . هناك أذن تسمع ، وهناك عين تبصر ، وأنف يشم ، ولسان يتكلم ، ويد تلمس ﴿ فَٱسْتَمِعْ ﴾ أى جند كل جوارحك وأعضائك للسمع واستحضر قلبك ونفذ المطلوب الذى ستسمعه .

ولذلك ربنا سبحانه وتعالى حينما تجلى للجبل جعله دكا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[1] [الأعراف : ١٤٣] ، فإذا كان موسى صعق من رؤية المتجلى عليه فكيف لو رأى المتجلى سبحانه ؟

إذن .. ربنا لا يكلم أحدًا ولا يراه أحد أبدًا فى الدنيا وهذه عظمته سبحانه ، فلو أحسه الناس بأية حاسة ما استحق أن يكون إلها ؛ لأن من خلقه سبحانه ما لا يحس مثل الروح التى إذا خرجت من الجسد يموت ويتعفن ، فهل علمت أين كانت الروح فيه ؟ هل شممتها أو أبصرتها أو سمعتها أو لمستها ؟ لا .

إذن .. الروح وهى مخلوقة لله لم تستطع أن تدركها بأية حاسة من حواسك ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم تستطع أن تدركها فكيف تدرك خالقها ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . فمن عظمته تعالى أنه لا يرى ، ولا يحس ، كثير من الناس يتمسحون بالحق ويقول لك الواحد منهم أنا

---

(١) عن أنس : أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ وقال حماد : هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ، وقال : فساخ الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .
أخرجه الترمذى [٣٠٧٤] وقال حديث حسن غريب صحيح ، واللفظ له ، وأحمد فى المسند [١٢٥/٣] والحاكم فى المستدرك [٢٥/١،٣٢١/٢] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٥٨] .

أعرف الحق وأقول كلمة الحق ولكن إذا سألته ما شكل الحق أو لونه ؟ لا يعرف ! كذلك العدل معنى من المعانى ، فإذا كانت هناك مخلوقات لله لا يمكن للعقل أن يدركها ، ولا للحواس أن تحسها فكيف تدرك خالقها؟ إذن من عظمته سبحانه وتعالى أنه لا يدرك .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] أى : أنا الله صاحب الأمر والنهى . لماذا قال الله له ذلك ؟ لأنه سيكلفه والتكاليف دائما شاقة على النفس ، فعطاء الألوهية تكليف بينما عطاء الربوبية نعم وخيرات ينهل منها العبد فى الدنيا ، وكلمة : « لا إله إلا الله » هى المنتهى وهى الينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيمانى وهى كلمة التوحيد التى قال عنها الرسول ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله »(1) وما دام لا إله إلا هو سبحانه ، فلا يصح أن نتلقى عن غيره ولا نعتمد إلا عليه ولا نشغل بالنا إلا بذكره سبحانه .

ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه]

الحق سبحانه يعلم نبيه ﷺ أن يوطن نفسه على أن الساعة آتية لا محالة . هذه الساعة هى عمر الكون ، بينما أعمار المخلوقين فى الكون متفاوتة .

إذن .. يجب أن نفهم أن الساعة نوعان ؛ ساعة لكل صاحب أجل ، فمن مات قامت قيامته ، وساعة للكون كله ، وهى القيامة الكبرى والحق سبحانه

(1) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال : إن رسول الله ﷺ قال :
« أفضل الدعاء دعاء يوم عرفه ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

أخرجه مالك فى الموطأ [٦١] .

أخفى ساعة الفرد كما أخفى ساعة الكون ، حتى تحذر أن تلقى اللّه على معصية ، فتستعد للموت فى كل لحظة ، كما أنك لا تعرف موعد الساعة الكبرى ، فلا تأخذ نعم اللّه وتتمتع بها وتظن أنك هربت بها من الله ، لأنك ستعود إليه فى النهاية . ومعنى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ لم يقل : « مأتى بها » مع أن اللّه هو الذى يأتى بها ، ولكن قال : ﴿ ءَاتِيَةٌ ﴾ فكأن القيامة شئ مضبوط على الموعد وسيأتى وحده فى موعده وكلمة : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ كاد بمعنى « قرب » ، تقول كاد زيد يجئ ، أى قرب زيد أن يجئ . فهو لم يأت بعد فمعنى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أقرب من أننى أخفيها وهى مخفية ؛ لأنك لا تعرف موعدها .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] أى أن كل نفس ستحاسب على عملها ، وتأخذ عليه الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ولولا هذا الجزاء الأخروى لكان المنحرفون الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا فى الوجود ، أكثر حظا من المؤمنين الملتزمين بمنهج اللّه .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه : ١٦] لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يتمنى ألا تكون هناك آخرة ولا حساب .

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾[1] [القصص : ٣١] ما هذه

---

(١) قال الزمخشرى : وقالوا : أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد فى إكرامه . وقالوا : انقطع لسانه بالهيبة فأجمل . وقالوا : اسم العصا « تبعة » . وقيل فى « المآرب » : كانت ذات شعبيتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه ، فعلق بها أدواته من =

العجائب ؟ فى البداية النار تزداد اشتعالا فى الشجرة ، والشجرة تزداد اخضرار ؛ لا النار تحرق الشجرة ، ولا الخضرة تطفئ النار ، ويأتى الكلام - كلام اللّٰه من كل جانب - وبعد ذلك العصا تنقلب حية ، مع أن العصا أصلها فرع شجرة جاف ، فكان من الممكن أن تكون المعجزة بأن تنقلب العصا شجرة خضراء ؛ لأن الشجرة من جنسها ، ولكن العصا هنا تعدت مرحلة النباتية ، وذهبت إلى مرحلة الحيوانية ، وليست الحيوانية الهادئة العادية ، ولكنها انقلبت ثعبانا بكل ما فى الثعبان من صفات .

وأمام هذا المنظر المخيف ولى موسى مدبراً أى : جرى إلى الخلف فناداه ربه : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ ﴾[1] أى : ارجع ثانية ولا تخف ، وأعطى له القضية التى يجب أن يصحبها موسى فى كل تحركاته فى الدعوة : ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ لم يقل له الحق سبحانه : أنت هنا فى أمان ، ولكن قال له : ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ فهى قضية مستمرة طمأنه اللّٰه بها؛ لأنه فى معية الله ،

= القوس والكنانة والحلاب وغيرها ، وإذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه . وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البشر ، وتصير شعبتاها دلوا ، وتكونان شمعتين بالليل ، وإذا ظهر عدو حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وسقاه ، فجعلت تماشيه ، ويركزها فينبع الماء ، فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام . الكشاف [٢/٤٣٠] .

(١) يقول ابن جرير : وقوله : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره : فنودى موسى : يا موسى ، أقبل إلى ولا تخف من الذى تهرب منه ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ من أن يضرك ، إنما هى عصاك .

تفسير الطبرى [١٠/٦٩] .

فإذا كنت ستخاف وأنت فى معية اللّٰه ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟ ولذلك جعل اللّٰه لموسى دربة معه ، وجعل له دربة مع فرعون وخاصته ؛ ليعده للجولة الأخيرة مع فرعون وخاصته وجمهوره والسحرة والقوم كلهم ، فكان لابد أن يؤنسه مرة ومرة؛ حتى يقبل على مواجهة المواقف بلا خوف ولا وجل ، ويثق من نصر اللّٰه وتأييده له .

انتفع موسى عليه السلام بهذه المواقف كلها ؛ ولذلك لما جاء قوم فرعون وراءه وكادوا يدركونه حينما خرج من مصر ببنى إسرائيل ، ماذا قال أصحاب موسى ؟ قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، فلما قالوا ذلك قال موسى بملء فيه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[1] [الشعراء : ٦٢] قال هذا الكلام من الرصيد الموجود عنده من وعد اللّٰه له بالتأييد والنصر ، مع أن كلامه هذا كان يمكن أن يكذب فى الحال ؛ لأن فرعون وجنوده من خلفه والبحر أمامه ، فكلمة : ﴿ كَلَّآ ﴾ لم يقلها موسى من فراغ ، ولكن قالها من الرصيد الذى عنده وهو ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴾ ، وانتفع بها الرسل جميعاً ؛ لأنهم يدعون

---

(١) ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم شئ مما تحذرون ، فإن اللّٰه سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير هاهنا بكم ، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد .
ولما انتهى موسى عليه السلام إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شئ ، والمكون لكل شئ ، والكائن بعد كل شئ ، اجعل لنا مخرجا ، فأوحى اللّٰه إليه : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء : ٦٣] . تفسير ابن كثير [٣/٣٢٥] .
قال ابن جرير : وقوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ قال موسى لقومه : ليس الأمر كما ذكرتم ، ﴿ كَلَّآ ﴾ ، لن تدركوا ؛ ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . يقول : سيهدينى لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه .

تفسير الطبرى [٩/٤٤٧] .

إلى الله ، والله معهم ولن يخذلهم ، فلا يخافون من أحد قال تعالى : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾(1) [الصافات] .

رسول الله ﷺ قد انتفع بهذا أيضاً وقصها عليه القرآن وقرأها ، فلما كان في الغار ساعة الهجرة ومعه أبو بكر رضى الله عنه ؛ لحرصه على رسول الله ﷺ كان منتبهاً ، ولما نظر رضى الله عنه من فتحة الغار وجد القوم يسيرون عند باب الغار ، فقال : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فماذا قال الرسول ﷺ ؟ قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾(2) [التوبة : ٤٠] فما دمنا في معية من لا تدركه الأبصار ؛ فلن تدركنا الأبصار .

قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء] إلقاء العصا أخذ في القرآن ثلاث مراحل :

(1) يقول ابن جرير : وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : ولقد سبق منا القول لرسلنا : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ أي : مضى بهذا منا القضاء والحكم في أم الكتاب ، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة بالحجج . ثم قال : وقوله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ يقول : وإن حزبنا وأهل ولايتنا ﴿ لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ ، يقول : لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر بنا ، والخلاف علينا .

تفسير الطبري [١٠/٥٤١] .

(2) أخرج البخاري [٣٦٥٣] عن أبي بكر رضى الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار : لو أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » .

المرحلة الأولى : هى التى واكبت اختيار اللّه لموسى عليه السلام ليكون رسولاً حينما قال اللّه له ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] .

اللّه سأل موسى عن الذى فى يده ، موسى كان يمكن أن يجيب بأنها عصا ، ولكنه إنسان كرم بأن يكلمه ربه فأراد أن يطيل أنسه بكلام اللّه سبحانه ، فذكر صفات العصا واستخدامها وفوائدها له .

ولكن أخبره اللّه تعالى أن لها مهمة أخرى عنده وأمره أن يلقيها ، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه] . فلما ألقاها انقلبت حية بعد أن كانت عصا ، والعصا معروف أنها كانت غصناً من شجرة ، ولم تصبح عصا إلا بعد أن انتهت حياتها النباتية ، وصارت جماداً بعد قطعها من الشجرة ، ومع ذلك فهى لم تنقلب إلى شجرة كما كانت فى الأصل ولكنها تجاوزت مرحلة النباتية التى كانت عليها فى البداية ، وانتقلت إلى مرحلة الحيوانية ، وهى مرتبة أعلى من النباتية .

موسى ساعة رأى هذا المنظر خاف ، فطمأنه ربه وقال له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ٢١] فأمسكها فصارت عصا ، فكأن اللّه تعالى يدربه على المهمة ، فحينما يقابل فرعون يكون قد جربها قبل ذلك ؛ لأنه لو بدأها مع فرعون قد يخاف من إلقائها؛ خشية ألا تتحقق المعجزة ، ولكنه بعد أن تدرب عليها اطمأن قلبه وأصبح واثقاً من المعجزة .

والمرحلة الثانية : حينما ألقاها أمام فرعون وحاشيته .

والمرحلة الثالثة : حينما ألقاها أمام السحرة فى يوم الزينة .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝ ﴾ [الشعراء] ومعنى ثعبان مبين أى واضح « الثعبانية » من حياة وحركة وشكل وكل شئ .

والقرآن الكريم يصف عصا موسى بعدة أصناف : مرة يصفها بالتعبان ، ومرة بالحية ، ومرة بالجان ، وهذه الأوصاف كلها مجتمعة فيها فهى حية وثعبان وجان؛ فهى فى خفة حركتها كأنها جان ، وفى شكلها المرعب كأنها حية ، وفى تلوينها كأنها ثعبان . فى الوقت الواحد تأخذ كل هذه الأوصاف .

موسى عليه السلام كان أسمر اللون ، ومن معجزاته أنه سيضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء لها شعاع وبريق يأخذ الأبصار ، فالجيب ليس هو جيبك الذى تضع فيه المنديل أو النقود ، ولكن الجيب معناه فتحة الصدر[(١)] ، موسى أخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين .

يكون هلاك فرعون على يديه ؛ ولأن اللّٰه تعالى يحول بين المرء وقلبه ، فقد نجى اللّٰه تعالى موسى من بطش فرعون الذى كان يقتل الأطفال الذكور ، ويترك الإناث ، وجعله يتربى فى بيت فرعون وهو الذى يرعاه ويعتنى به ، وهذا دليل على أن اللّٰه إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم .

---

(١) قال ابن كثير قوله : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١]
قال سعيد ابن جبير ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وليشددن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى على النحر والصدر ، فلا يرى منه شئ . تفسير ابن كثير [٣/٢٨٤] .
أخرج البخارى [٤٧٥٨] عن عائشة رضى اللّٰه عنها قالت : يرحم اللّٰه نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرت بها .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه : ٢٤] علة الذهاب أن فرعون طغى ، والطغيان هو مجاوزة الحد ، ومجاوزة الحد هى أن تأخذ ما ليس لك ، وتبالغ فى أخذ ما ليس من حقك ، وفرعون لم يعتد على حق من حقوق بشر مثله ، ولكنه اعتدى على حق من حقوق الله بادعائه الألوهية ، وموسى حينما سمع اسم فرعون بدأ يتذكر ما حدث له فى مصر قبل سفره إلى مدين ، حينما وكز الرجل فقتله ، وتآمر عليه القوم ليقتلوه ، وخرج هارباً يترقب ، وتذكر أن فرعون هو الذى رباه ، وكيف سيواجهه بعد هذه الأحداث .

خواطر كثيرة جالت فى ذهن موسى فى هذه اللحظة ، وشعر أن العبء أصبح ثقيلاً عليه فقال : يارب أوامرك نافذة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى أشياء كثيرة طلب من الله أن يعينه بها ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ ﴾[1] [طه]

فطلب من الله أن يشرح له صدره ، حتى لا يقابل هذه المهمة بانقباض ؛ لأنك لو أقدمت على مهمة بانقباض فقدت ثلاثة أرباع قوتك ، ولكن إذا أقدمت منشرح الصدر تكون مجتمع القوى .

---

(١) قال ابن كثير : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فوضعها على لسانه ، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل بحيث يزول العى ويحصل لهم فهم ما يريد منه ، وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية .

تفسير ابن كثير [١٤٣/٣] .

وبعد ذلك أتى بعلة هذا الطلب فى أن يكون هارون معه فى هذا المهمة ، فقال : ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[1] [القصص : ٣٤] وهارون بالإضافة إلى أنه أفصح من موسى قالوا : إنه كانت فيه صفات أخرى حميدة ، منها أن موسى كانت فيه حدة أى أنه سريع الغضب ، أما هارون فكان فيه لين وحلم؛ ولذا طلب موسى أن يكون معه؛ ليجبر عقدة لسانه بفصاحته ، وليعالج بلينه شدة موسى وحدته ، فيكمل كل منهما الآخر .

وموسى حينما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ، لم يقل ذلك حتى يريح نفسه من عناء الدعوة ومواجهة فرعون وقومه ، ولكنه فعل ذلك حتى يكون أداء المهمة على خير وجه ؛ حيث يكمل كل منهما الآخر ، وأراد أيضاً ألا يبدد طاقته كلها فى الدعوة ، وأن يبقى شيئاً منها لعبادة اللّه وذكره وتسبيحه ، فقال : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ ﴾ [طه] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ يعنى أن تكليف هارون بالدعوة يكون من قبل اللّه تعالى ؛ حتى لا يكون تفضلاً من موسى عليه .

ومعنى : ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ ؛ التسبيح : التقديس ، تقديس اللّه ذاتاً وصفاتا وأفعالاً .

---

(١) قال ابن كثير : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ أى وزيراً ومعينا ومقويا لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن اللّه عز وجل ؛ لأن خبر الاثنين أنجع فى النفوس من خبر الواحد . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهمهم عنى ما لا يفهمون .

تفسير ابن كثير [٣/٣٧٥] .

ومعنى : ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أى : إنك قيوم علينا ، ترى وتسمع ما نقوم به من عمل وتعلم نيتنا فيه .

فلما ذهب موسى وهارون إلى فرعون وطلبا منه أن يرسل معهما بنو إسرائيل قال له فرعون : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ ﴾ [الشعراء] أى أنا الذى ربيتك وأنت صغير ، ورعيتك حتى صرت شاباً قوياً .

والعلماء يقولون : أن موسى ظل فى بيت فرعون ولم يتركه ، إلا فى سن الثامنة عشرة أو فى سن الثلاثين[1] ، ففرعون رباه ولبث معه سنين ، وهنا فرعون يذكره بالرجل الذى قتله قبل أن يهرب إلى أرض مدين ومعنى : ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إما من الكافرين بألوهية فرعون أو الكافرين بنعمنا عليك لأننا ربيناك وأكرمناك ، والفعلة التى فعلها موسى هى قتل خباز فرعون حينما ضربه بيده فقضى عليه ، مع أنه لم يكن يقصد قتله .

فرد عليه موسى ليبرئ نفسه : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ ﴾ [طه] أى أننى لا أنكر أننى قتلت ، ولكن كنت جاهلاً بما سيترتب على هذه العملية ،

(١) قال ابن جماعة : هى ثمان عشرة سنة ، وقيل : اثنتا عشرة سنة ، وقيل : ثلاثين .
غرر التبيان [٣٧٢] .

وقال ابن الجوزى : فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : ثمانى عشرة سنة ، قاله : ابن عباس .

والثانى : أربعون سنة ، قاله : ابن السائب .

والثالثة : ثلاثون سنة ، قاله : مقاتل . زاد المسير [٦/٣٣] .

وما كنت أعتقد أبداً أن وكزة كهذه ستميت أحداً ، فكلمة ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ هنا ليس معناها أنه كان ضالاً عن الهدى ؛ لأن هذه الكلمة لها استعمالات متعددة ، فالذى ضل فى الصحراء هل هو تعمد أن يضل ؟ لا .

وحين يقول ربنا لرسوله ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾(1) [الضحى : ٧] فهذا ليس معناه أن الرسول كان ضالاً عن الحق ؛ لأنه لم يكن عنده منهج من الله وتركه إلى غيره ، ولم يحدث هذا .

ومعنى ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ [الشعراء : ٢١] أى حكمة تجعلنى أضع الأشياء فى مواضعها؛ لأننى خرجت مظلوماً ولم أقصد قتل الرجل ، فأعطانى ربى من الحكمة؛ حتى لا أضع الشئ إلا فى محله .

بعد ذلك يقول موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢١] أى هل تمن على بهذه الأشياء التى فعلتها معى من تربية ورعاية ، هل هذه الحسنة تقارنها بما تفعله مع بنى إسرائيل ، من ذبح الأطفال الذكور واستحياء النساء واستعباد الرجال ، فهل هذا يقارن بما تفعله فى حق قومى ومعنى : ﴿ عَبَّدتَّ ﴾ أى جعلتهم عبيداً .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] أى من هو رب العالمين الذى تتحدث عنه؟ فرد موسى ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ [الشعراء : ٢٣] .

---

(1) قال ابن كثير : منهم من قال : إن المراد بهذا أن النبى ﷺ ضل فى شعاب مكة وهو صغير ، ثم رجع . وقيل : إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام وكان راكبا ناقة فى الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالرحلة إلى الطريق . تفسير ابن كثير [٤/٥٢٥] .

السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأبراج ، ورب هذه الأرض بما فيها من زرع وثمار وجبال وبحار وأنهار وحيوان ، وهو الذى خلقها قبل أن توجد أنت يا فرعون .

موسى رد على فرعون بشئ ثبت فى الكون قبل وجوده ، فما الذى زدته أنت فى الكون يا من تدعى الألوهية ، ثم تلطف معه فى الحوار فقال : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٤] أى إن كنتم تظنون أن هذه الأشياء لم يخلقها أحد .

استغرب فرعون هذا الكلام من موسى فـ ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ فرعون قال ذلك لأنه كان ينتظر من أتباعه بمجرد أن ينفى موسى عنه الربوبية والألوهية ، وينسبها إلى من خلق السموات والأرض ، أن يهبوا لإسكات موسى والرد عليه ، لأنه حقر إلههم ، ونفى عنه ما يدعى فقال لهم مستنكراً سكوتهم ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أى أما سمعتم ما قاله فى حقى ؟ فلماذا تسكتون ؟ وهم سكتوا لأنهم يعلمون أنه كاذب فى الألوهية ، ويتمنون فى قرارة أنفسهم أن ينصر اللّٰه موسى عليه ، حتى يتخلصوا من جبروته وطغيانه .

موسى سارع فى بسط حجته ، قبل أن يتدخل أحد من القوم فى الحوار ، فـ : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦] أى من الذى كان إله آبائك وأجدادك يا فرعون قبل أن توجد أنت .

حينما رأى فرعون أن موسى سيهزمه بالحجة والمنطق ، أراد أن يخرج من هذا الجدل فاتهمه بالجنون ، وهذه أيسر تهمة للدعاة عند الحكام المستبدين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٧] هذا الأسلوب يفضح فرعون ، فهو يعترف أن موسى رسول مرسل ، وما دام

مرسلا فلابد أن هناك من أرسله وهو الله ، فكلامه فيه شهادة ضده مع أنه لم يستطيع أن يرد على كلام موسى ، فاتهمه بالجنون ولكن موسى لم يعبأ بقوله ومضى فى عرض دعوته ، و ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٧] أى أن ربى رب المشرق والمغرب وما بينهما ، وجاء بمقابل الجنون الذى اتهمه فرعون به ، فقال : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إن كان عندكم عقل تقيسون به الأمور .

ولما ضاق فرعون به ذرعا ولم يجد حجة يرد بها عليه ، هدده بالسجن ، شأن كل حاكم طاغية لا يتفاهم ، ولا يقتنع بالحوار مع معارضيه .

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] وهذا إفلاس فى الحجة ، فكونك تقوى على الغالب وتأخذه إلى السجن ، فأنت لم تقو على الحجة فلو كانت عندك حجة لقرعت الحجة بالحجة ، والناس الذين يسمعون الحوار لو أنهم فهموا مادار فيه ، كان عليهم أن ينقلبوا عليه؛ لأنك حين تحاور إنساناً يجب عليك أن ترد على حجته بحجة مضادة ، ولا يحق لك أن تسكته وتحبسه حتى لا يتكلم ، موسى يعرف سجن فرعون وكان من عادته أنه إذا سجن أحداً يظل فى السجن حتى يموت .

رغم كل هذا الجدل ، موسى لم يظهر معجزته بعد ، ولكنه أخرها إلى نهاية الحوار ، فلما وجده لم يقتنع بالحوار وهدده بالسجن أراد أن يريه الآيات و ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ فبعد أن هدده بالسجن أراد اللَّه أن تظهر حجة موسى أمام الناس ، فجعل فرعون يوافق أن يعرض موسى ما عنده من آيات أمامه ، فقال له : أتجعلنى من

المسجونين حتى لو جئتك بشئ مبين واضح ، فى أنى صادق فى البلاغ عن الله ، فطلب منه فرعون أن يُريه هذا الشئ إن كان صادقاً فيما يقول .

وهنا ألقى موسى عصاه فى صالة القصر الفسيحة ، تحولت أنظار الواقفين جميعًا إلى العصا وهى ترتطم بأرض الصالة الرخامية لم تكد العصا تلمس الأرض حتى تحولت إلى ثعبان هائل يتحرك بسرعة .

اتجه الثعبان الهائل نحو فرعون .. شحب وجه فرعون من الخوف وانكمش فى كرسيه وصرخ أن يبعدوا عنه الثعبان . مد موسى يده إلى الثعبان فعاد فى يده إلى عصا كما كان .. سقط الصمت بعد هذه الآية .

عاد موسى يكشف أمام الواقفين معجزته الثانية ، أدخل يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى بيضاء كالقمر .. شحبت كل أضواء القصر وشموعه أمام هذا النور الجديد ، ظهر وجه فرعون أخضر من الخوف ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء] .

صمتت الأصوات فى القصر وانغرس تأثير المعجزتين فى النفوس يحمل تيار من الخوف أول ما يحمل ثم أعاد موسى يده إلى جيبه فعادت كما كانت ، ذاب النور المدهش الذى حملته الآية الثانية إلى المكان .

ماذا كان موقف فرعون والملأ من هاتين المعجزتين ؟

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

يبدوا أنهم كانوا يضيقون بغطرسته وتسلطه وكانوا يريدون أن يروا هزيمته ماثلة حتى يتخلصوا منه ، ومن هنا أشاروا عليه أن يبقى موسى وأخيه وأن

يجمع لهما أمهر السحرة ، وأن يواجههما بهم وبعد ذلك تم تجميع السحرة فى المكان المعلوم ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ۝٤٠ ﴾ [الشعراء] .

الميقات هو الوقت من اليوم المتفق عليه ، هناك آيات أخرى حددت اليوم بأنه يوم الزينة وهو اليوم الذى يتزين فيه الناس بملابسهم الجديدة وتتزين فيه الفتيان بأبهى زينة . ﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ ، فهذه الآية حددت اليوم والوقت بأنه وقت الضحى ، ثم تكلم فى آية أخرى عن المكان ﴿ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ ومعنى سوى إما أنه وصف للمكان الذى ستقام فيه المباراة السحرية فى مكان مستو من الأرض حتى يتمكن كل واحد من رؤية المنظر فهو مكان مستوٍ ليس فيه علو أو انخفاض أو أنه مكان وسط المدينة وليس بعيدًا فى أطرافها حتى يسهل على الناس الحضور إليه ، وكل هذا حرص على إتمام المعركة من جانبى الطرفين لأن كل طرف يريد أن يتغلب على الآخر .

﴿ فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ ﴾ [طه] .

وبعد ذلك بدأت الدعاية بين الناس حتى يتجمعوا فى هذا اليوم لمشاهدة ما سيحدث ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ۝٤٠ ﴾ [الشعراء] . أى : أنهم سيجتمعون وعندهم أمل فى أن يتغلب السحرة على موسى ويبطلوا حجته .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴾ .

هنا السحرة وهم فريق المباراة الذى سيقف فى صحف فرعون أرادوا أن يتفقوا معه قبل قيامهم بهذه المهمة وقالوا له : أنت تسخر الشعب بدون أجر ولكن هذه المسألة يجب أن تأخذ عليها أجرًا ، فهل ستعطينا أجرًا إن تغلبنا على موسى وانتصرنا عليه ؟

قال فرعون : لن أعطيكم الأجر فقط بل سأجعلكم من رجالى المقربين الذين أستعين بهم فى مثل هذه المواقف ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ . وحينما اطمأن السحرة إلى الأجر واطمأنوا إلى أنهم سيكونون من المقربين حينما تيقنوا من هذا كله التفتوا إلى موسى فقد جاءت لحظة التحدى ، تلك اللحظة التى إن غلبوا فيها أخذوا مالًا وأصبحوا من المقربين ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٥] . أى : أن السحرة بدأوا بالتحدى وأعطوا موسى الاختيار فى أن يبدأ هو أو يبدأوا هم وذلك لفرط ثقتهم فى أنفسهم ، فهم أمهر السحرة وهم جمع وهو واحد ، ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه] .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] [طه : ٦٨] أى أنك منصور ومؤيد من الله ولكن هنا النفس البشرية تتحرك كيف سينتصر؟ هنا يأتى الأمر الإلهى

---

(١) قال ابن القيم : قول الله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، ها هنا دقائق :

أحدها : الإتيان بلفظة « إن » المشددة لتفيد تأكيد ثبوت ما بعدها .

وثانيها : تكرير الضمير يدل على تأكيد ما يتعلق به .

وثالثها : ذكر ﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ معرفاً يدل على أن غيره لا يكون كذلك بخلاف عالى وأعلى .

ورابعها : إن ﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ بصفة أفعل يشعر بزيادة العلو .

=

لموسى ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ إذن فالعملية الثانية هى اللقف ، وكلمة ﴿ تَلْقَفْ ﴾ تعطيك الصورة الحركية ؛ لأن معنى لقفت الشئ أى : أخذته بسرعة وشدة ، ومنها تلقفه أيضاً .

فالحق سبحانه طمأن موسى فى البداية أنه لا يخاف؛ لأنه هو الأعلى وأنه منصور من الله ، وهذا كلام نظرى يحتاج إلى عمل يحققه ، وبعد ذلك أمره بإلقاء العصا وأخبره بأنها ستلقف ما صنع السحرة من سحر ، فكأن الحق سبحانه مع رسوله فى كل الحركات ، وهذا تأكيد لقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] وذلك حتى يرد على السامع بما يناسبه ويرد على الرؤيا بما يناسبها ، ودائماً يرهف أذن الرسول وقلبه إلى أن التوجيهات تصدر له من عند الله ، فقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، كلام مطمئن لموسى عليه السلام ، وتحقيق ذلك جاء من خلال الأمر بأن يلقى ما فى يمينه ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٩] ، الحق سبحانه وتعالى علل تلقف العصا لهذه الأشياء بأنها كيد ساحر ، والذى يصنعه موسى بقدرة الله ، فكيد الساحر لا يقف أمام قدرة الله ، ومعنى :

= وخامسها : حذف لام العلة يفيد زيادة علة ؛ لعدم الخوف لأن قوله : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ علة لعدم الخوف ؛ لأنه نهى عنه ، واشتقاقه بعد ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ منع أيضاً من الخوف لأن الأعلى لا يخاف الأدنى .

وبهذه الطريقة أخذ إمام المعطلة فرعون قومه حين قال للسحرة لما ظهرت حجة موسى عليه وصحت دعوته وصحت نبوته ، وألقى السحرة ساجدين إيمانا بالله ، وتصديقا برسوله .

بدائع التفسير [٣/١٦٢،١٦٣] .

﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ أى : مهما أوتى الساحر من قدرة على تسخير الجن لعمل شئ فوق طاقة الإنس ، فذلك لا يعطيه قدرة على شئ .

وبعد ذلك يقول لنا الحق : إياكم أن تفهموا أن اللّه ملك مصالحكم لهؤلاء؛ فالساحر يفعل ما يريد ، لكن الإصابة والأذى مرهونان بأمر اللّه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(1) [البقرة : ١٠٢] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ قضية منسحبة على الوجود كله إلى أن تقوم الساعة ، فالساحر لا يفلح فى أى زمان أو مكان .

بعد ذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ شئ عجيب ، كما قال الزمخشرى : من العجيب أن هؤلاء ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود(2) . فهم قد دخلوا هذه المعركة وهم كفره جاحدون ، وخرجوا منها وهم مؤمنون موحدون ؛ وذلك لأنهم جمعوا كل كيد السحر وفنونه ،

---

(1) قال المراغى : فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أى : أن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط اللّه به مسبباتها ، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فإن ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

تفسير المراغى [١/١٨٢] .

(2) قال الزمخشرى : سبحان اللّه ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، وروى أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنه والنار ، ورأوا ثواب أهلها . وعن عكرمة : لما خروا سجداً ، أراهم اللّه فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة . الكشاف [٤٤٠/٤٤١] .

ووجدوا أن العملية ليست من هذا النوع أبداً ، فالساحر يرى الأشياء على حقيقتها ، وهم لم يروا عصا موسى على حقيقتها ، بل رأوا لها حركة حياة ، فأيقنوا أن هذا ليس من فنون السحر ، ولكنه شئ أعلى ، وهذا يدل على أن الفطرة الإيمانية فى النفس تطمسها الأهواء ، هذه الفطرة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة »(1) ، فالهوى يطمس على الفطرة الإيمانية ، ولكن أحياناً تستيقظ هذه الفطرة ، وحين تستيقظ الفطرة الإيمانية ، فأقل شئ يصادف هذا الاستيقاظ يؤثر عليه . والذى يدل على أن هذه العملية جاءت على هوى السحرة : أنهم سيقولون لفرعون : ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فهذا دليل على أن طبائعهم وفطرتهم كانت تأبى هذا ، لكن فرعون هو الذى كان يكرههم على السحر ، وحين يكبر الواحد منهم فى السن يأمره بأن يأخذ مجموعة من الغلمان ليعلمهم السحر ؛ لأن هذا يناسب شعوذة فرعون وادعاءه الألوهية .

لما سجد السحرة وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون اغتاظ فرعون منهم ؛ لأنهم خذلوه ولم ينصروه كما كان يظن ، فأقسم على الانتقام منهم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ .

---

(1) أخرج البخارى [١٣٨٥] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاءَ » .

فرعون جمع السحرة لينصروه على موسى ، ولكن اللّه جعل خذلانه وهزيمته عل يد من توسم فيهم عزته ونصره ، ولكنه أراد أن يتماسك أمام الناس ، فأعلن سخطه عليهم ؛ لأنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ؛ وزعم أنهم لو فعلوا ذلك لأذن لهم ! وزعم أن موسى هو كبير السحرة الذى علمهم السحر ؛ ولذلك آمنوا به .

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه : ٧٢] وقلنا إن الإيثار هو : ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر ، قولهم : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ تعبير فى منتهى الدقة وهو تعبير واع وحكيم ؛ لأنه كان من الممكن أن يقولوا : لن نؤثرك على موسى ، ولكنهم لم يذكروا موسى ، وذكروا البينة التى جاء بها؛ فكأنهم قالوا لفرعون : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ على يد موسى ، ولن نؤثرك على أعلى من ذلك وهو الذى فطرنا . وربما كان قولهم : ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ قسم ، مثلما نقول : لن أفعل كذا وكذا والذى خلقك ، كأنك تقسم على هذا الأمر ألا يحدث ، وهذه حيثية عدم الرجوع فيما أعلنوه من إيمان برب هارون وموسى . بعد ذلك انتقلوا إلى ما هددهم به فرعون ؛ من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل ، فقالوا له : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أى : نفذ ما أنت حاكم به من تقطيع الأيدى والأرجل والتصليب فى جذوع النخل .

أو أن المعنى : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أى : أفعل ما بدالك ، حتى لو كان أشد مما قلت .

هكذا أراد فرعون أن يهدد السحرة بالعذاب الدنيوى ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] .

ولكن الإيمان الذى ملأ قلوب السحرة جعلهم يستهينون بتهديدات فرعون لأنه إذا قتلهم فهو يجعل لهم الجزاء الأوفى من الله ، ولذلك رد السحرة ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٥] . أى أنك لو لم تُمتنا هذه الميتة فمصيرنا إلى الله مقطوع به ، فنحن ميتون سواء قصر الأجل أو طال ، ثم قالوا لفرعون : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] . الإفراغ هو إخراج مافى إنا إلى إناء آخر ليغمره كأنما السحرة يناشدون الله أن يفيض عليهم بالصبر حتى يغمر قلوبهم فلا يجعل فيها مكانًا يضعف من عذاب فرعون وتقطيعه لأيديهم وأرجلهم .

وقولهم ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أى : لا تجعلنا نكفر ونعود إلى ملة فرعون بل اجعل الموت هو السابق فى هذا ؛ ولذلك قال العلماء عن سحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة وكانوا آخره شهداء بررة ، وعلى أثر ذلك انطلق رجال فرعون يقتلون الأبناء ويعتدون على السيدات ووقف موسى يدعوهم إلى الصبر وبشرهم بأنهم سيرثون الأرض إذا اتقوا الله .

أما قومه فبدوا متضجرين متشائمين حتى أنهم قالوا له : إننا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما أتيتنا ، وهكذا استمروا على شكايتهم رغم أن موسى وعدهم بأن الله سيهلك عدوهم ثم يستخلفهم فى الأرض .

بعد ذلك يأتى تأديب الله آل فرعون ، فهل جاء التأديب هكذا فوراً ؟ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

إذن .. لم يأت الهلاك فورا بل جاء على مراحل ، وهذا من رحمة اللّه سبحانه أنه يأخذ الكافرين بالشدة ليذكرهم بقوته وقدرته لعلهم يتوبون إلى اللّه ويرجعون إليه والسنة هى العام ، ولكنها تطلق على الجدب والقحط ، فإذا كانت السنون هى الجدب والقحط فما هو النقص من الثمرات ؟

يدل على أنه من رحمته أنه ترك لهم بعض الثمرات لتحفظ لهم حياتهم ، فلو أنه انقطع الثمر تمامًا ما وجد الناس قوتهم وما بقيت هذه الزروع على الأرض لأنه لابد من بذور لتزرع حتى يبقى النوع فى الأرض ، ولذلك كان لابد من ثمرات قليلة تحفظ نوع النبات وتبقيه وتحفظ حياة الإنسان وتعطيه القدر اللازم لاستبقاء حياته . ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣١] .

﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ ﴾ أى : نستحقها لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج وجرت العادة قديما بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ثم يبذرون الحب وينظرون الثمار فإن جاءت لهم سيئت مثل أخذهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى ، فإذا ما جاءتهم سيطيرون أى يتشاءمون لأن الطيرة هو التشاؤم من موسى والحق سبحانه يقول : لا تظلموا موسى لأن شؤمكم أو حظكم السيىء ليس من موسى .

ويبين الحق عقابه لهم على ذلك ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

وكلمة : ﴿ ٱلطُّوفَانَ ﴾ يراد بها طغيان الماء .. والماء هو سبب الحياة وقد يجعله اللّه سببا للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بطائيتها بل بتوجيهات القادر

عليها ، وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقى فيبقى واقفا لأنه لو جلس يموت ويظل هكذا .. وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بنى إسرائيل لا تلمسها المياه .. وهذه معجزة واضحة .

ودخل الطوفان على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى وقال له كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان لكنهم عادوا إلى الكفر ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ - الرزع - فلما رأوا أثره عرفوا أنه لا يبقى الزرع .

و ﴿ وَٱلْقُمَّلَ ﴾ هو غير القَمْل ، فالقمل هو الآفة التى تصيب الإنسان فى بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فهو السوس الذى يصيب الحبوب ، وقيل هو ما نسميه بالقراد والحشرات التى تهلك النبات والحرث .

وكذلك أرسل الله عليهم الضفادع ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده فى شيء يجد فيها الضفادع ، فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والمياه التى يشربونها تنقلب لهم دمًا .

وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب .

إذن .. فهم آمنوا بأن موسى مرسل من إله وهم قد فهموا أن العذاب الذى عاشوا فيه لن يرتفع إلا من إله موسى وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٥] .

﴿ ٱلرِّجْزَ ﴾ هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر] .

هناك نوعان من القتل فى قصة موسى مع فرعون ، النوع الأول قبل ميلاد موسى : عندما قيل له إن زوال ملكك وألوهيتك هذه سيكون على يد غلام من بنى إسرائيل ، هذه واحدة .

والثانية : هى بعد إيمان السحرة بموسى وانتشار دعوته وافتضاح أمر فرعون .

﴿ ذَرُونِىٓ ﴾ أى : اتركونى ، مثلما يقال عندنا فى الريف - سيبونى عليه - وهى دليل على أن قوة تمنعه من القتل وأن هناك من يعارضه ، إن المعارضين لابد أنهم إناس خميرة الإيمان فيهم متيقظة لأنهم يمنعون فرعون مما يريد ، يقولون له : إنك إن قتلته لفهم الناس إنك لم تطق حياته لأنه فضحك وأنك خفت أن يهدم عرشك وألوهيتك .

إذن .. فقد دخلوا عليه من ناحية أنهم يحافظون عليه حتى لا يفهم أنهم يدافعون عن موسى ، ويشم منهم رائحة الخيانة العظمى لألوهيته .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ٢٧] . أى : أنه سبحانه ربى وربكم رغم أنوفكم ، ولم يذكر كلمة « فرعون » لأنه هو الذى رباه اعترافا له بحق الرعاية والتربية ، وفرعون يدخل ضمن هؤلاء المتكبرين لأنه فى قمة التكبر حيث ادعى الألوهية وكفر بيوم الحساب .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] . هذا الرجل المؤمن كان قبطيا من آل فرعون قيل كان ابن عم فرعون ، وكان يكتم إيمانه عن قومه ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ فأخذته غضبة للّه عز وجل وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما قال النبى ﷺ ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون .

﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٨] . وهذا احتياط فالأحوط ألا نقتله ، كأنه يريد أن يستبقى حجة الحق لعله توجد آذان تنصره فربما يكون هذا الرجل الذى تريدون قتله صادقًا فيضيع عليكم ما أنتم فيه ، ولو كان موسى الذى يزعم أن اللّه أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون لكان أمره بينًا يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله ولما هداه اللّه وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال محذرًا قومه زوال نعمة اللّه عنهم وحلول نقمة اللّه بهم .

بدا واضحا أن فرعون لن يؤمن لموسى ولن يكف عن تعذيبه لبنى إسرائيل ، ولن يكف عن استخفافه بقومه ولم يعبأ بما قاله الرجل المؤمن .

هنالك دعا موسى وهارون على فرعون : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس] .

وجاء الإذن لموسى بالخروج من مصر واصطحاب قومه معه ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ ،

فجمع موسى بنى إسرائيل وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقًا إلى الأرض المقدسة فى فلسطين فتبعهم فرعون وجنوده فأصبحوا فى خوف شديد لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقًا فى البحر .

ومعنى ﴿ أَسْرِ ﴾ أى امش بالليل ؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون ، ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [طه] ، هنا الحق سبحانه فى هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له ، ولكنه ذكر ما قالوه فى لقطة أخرى ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] . إذا تكررت القصة فافهم أن فى كل تكرير لقطة جديدة ، فإذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة ، فلما قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ طمأنهم موسى بقوله : ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ ، قال لهم ﴿ كَلَّآ ﴾ ، وهذه ليست من عندى ولكنها من عند الله ؛ لأنه ربى الذى سيهدينى إلى طريق النجاة .

وكلمة : ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ معناها غطاهم من البحر ما غطاهم ، وأنت حين تبالغ فى شئ تقول : لقد حدث ما حدث ، وحصل ما حصل . فأنت تبهم الشئ ؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل . كذلك قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ؛ أى أنه أمر مهول لا يمكن حصره ، وهذه لقطة غير موجودة فى القصة هنا ، فموسى حينما مشى فى الطريق « اليبس » ونجا بقومه - بنى إسرائيل - تبعه فرعون بجنوده ، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون وراءهم ، وكان هذا اجتهاداً منه ، ولكن الوحى الإلهى أمره أن يترك البحر كما هو ، قال تعالى : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان] ، وكانت الحكمة من ترك البحر

على حاله إغراء فرعون وجنوده بالسير فى الطريق اليبس ، حتى إذا كان الجنود داخله أرجع اللَّه الماء إلى استطراق سيولته ؛ فيغرق فرعون وجنوده ، فيكون اللَّه تعالى قد أنجى وأهلك بالشئ الواحد .

ومعنى ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٩] أى : أنه قادهم إلى طريق الضلال والهلاك ؛ لأنه كان دائماً يدعى أنه يقود قومه ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٩] ففرعون كذب فى هذا الزعم ؛ لأنه قادهم إلى الهلاك والغرق ، ولم يهديهم إلى سبيل الرشاد .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ ؛ ولم يقل : اجتاز بنو إسرائيل البحر؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية ، وإنما تم بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى التى هى فوق الأسباب ، وحينما نقرأ قول اللَّه سبحانه : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ ، نعرف أن اللَّه سبحانه وتعالى كان قد أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية ؛ ليكونوا عبرة لكل طاغية يدعى الألوهية ؛ ذلك لأن فرعون أخذ بأسباب الأرض ، ونسى قدرة اللَّه المسبب . ولو أن البغى والعدوان لم يكن بداخله ، لعرف بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر ، أن إله موسى سينجيه ولن يتركه يهلك ، ولوقف أمام هذه المعجزة ليفيق من كفره ، بل إن انشقاق البحر كان معجزة مرئية ، تكفى لكى يؤمن فرعون برسالة موسى؛ لأنه لا يقدر على هذه المعجزة إلا الخالق سبحانه وتعالى ، فليس من قدرة البشر ، ولا غير البشر أن يشقوا البحر ويتحول الماء إلى جبلين بينهما ممر ، ولكن غرور فرعون وعدوانه لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التى وضعها اللَّه أمامه عله يفيق ، لقد كان مشغولاً بألوهيته وجبروته ، وكان الكفر يملأ قلبه ، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه .

ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ والإدراك : أن يقصد المدرك أن يلحق بالشئ الذى يريد أن يدركه ، ويبذل كل جهده فى ذلك ، والغرق هو أن يغطى الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس ، فيدخل إلى جسده بدلاً من الهواء ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ ، كأن الغرق جندى من جنود اللّٰه وله عقل ، وقد تلقى الأوامر من الله ، ليحيط بفرعون وجيشه ويغرقهم ، ماذا قال فرعون عندما أدركه الغرق ؟ قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ .

فرعون وهو يغرق كان فى إيمان الإجبار ؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته ، وإيمان الإجبار لا ينفع ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس : ٦١] ؛ أى أنك يا فرعون وأنت تواجه الموت تقول : آمنت ، بينما كان عندك زمن طويل ؛ لتعلن إيمانك بعد أن أراك اللّٰه معجزات كثيرة على يد رسوله موسى ، ولكنك عصيت وأصررت على الكفر ؛ ولذلك فإن الإيمان لا يتقبل إذا بلغت الروح الحلقوم ، وعرف الإنسان أنه سيموت يقيناً ؛ لأن هذا إيمان إجبار .

واللّٰه سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر ، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار ، لقهر اللّٰه سبحانه وتعالى على الإيمان ، وما استطاع واحد أن يكفر باللّٰه ؛ لأن كل ما فى الكون خاضع لأمر اللّٰه سبحانه وتعالى[1] ، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء ، ولكن الحق جل جلاله يريد بإعطاء الإنسان الاختيار ، أن يأتيه عن محبوبية ، ولا يتم إيمان المحبوبية إلا إذا كان

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

الإنسان مختارا أن يؤمن أو لا يؤمن ، فالذى يأتى عن طريق الاختيار ، تكون له منزلة كبيرة عند الله ، إذن فالمردود ليس القول ، ولكنه زمن القول .

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس : ٩٢] أى بجسدك المجرد من الروح ، إن سبب حفظ أبدان الفراعنة ؛ أن اللَّه سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تحنيط الجسد البشرى ؛ لكى تكون أجسادهم عبرة لمن يجئ بعدهم ، ويرى الناس أولئك الذين ادعوا الألوهية وهو أجساد لا حركة فيها ولا قدرة ، وأراد اللَّه أن يرى قوم فرعون جسد فرعون ، ذلك الطاغية الذى كان يدعى الألوهية ويقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] .

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، أى أن اللَّه تعالى عجل لهم العقاب فى الدنيا قبل الآخرة . والأخذ معناه : أن الآخذ عنده قدرة على أخذ المأخوذين جميعاً فى قبضته مرة واحدة ، ويلقيهم أينما شاء ، وهذا ليس فى قدرة البشر ، وإنما فى قدرة اللَّه وحده . لذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٣] الكتاب : هو التوراة ، آتاه اللَّه لموسى بعد أن أهلك القرون الأولى ، الذين كذبوا رسله ، وحاربوا دعوته ، هذا الكتاب أنزله اللَّه على موسى ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ ليعطيهم البصيرة والنور ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ لهم من ربهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ فضل اللَّه عليهم ؛ فيؤمنون به . قال رسول اللَّه ﷺ : « ما عذب اللَّه قومًا ولا قرنًا ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل اللَّه التوراة على

موسى»(١) فالله عز وجل منذ بعث موسى عليه السلام لم يهلك قوما عاندوا الرسل وصدوهم ، بل تولى الرسل وأتباعهم أمر مقاومة من يحاربون دعوة الله ويتصدون لها ، ويمنعون وصولها إلى الناس .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [البقرة] ولقد عرفنا من قبل كيف أن من خرج مع موسى من القوم لم يكونوا كلهم من المؤمنين ، لقد أرسل الله موسى بالآيات المعجزات الأولى إلى فرعون وآله عندما آنس من جانب الطور ناراً ، وبعد ذلك تجلى له الله بالكلمات ؛ ليرسله رسولاً ؛ ليخلص بنى إسرائيل من عذاب فرعون .

وبعد نجاة موسى ومن معه كان لابد من أن ينزل منهج الحق على موسى؛ ليهدى به القوم ، ذلك أن قوم موسى بعد أن أخرجهم الله من البحر وشق لهم طرقاً مروا بقوم يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنما يعبدونه ؛ فيوبخهم موسى عليه السلام وفى ذلك يقول الحق : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا

---

(١) عن أبى سعيد قال : « ما أهلك الله قوما قط بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعدما أنزلت التوراة ، يعنى ما مسخت قرية » . قال البزار : هكذا رواه يحيى موقوفاً ، ورفعه عبد الأعلى .

مختصر زوائد البزار [١٤٩٦] .

وعنه رضى الله عنه رفعه إلى النبى ﷺ قال : « ما أهلك الله تبارك وتعالى قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعد موسى » ، ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ . قال البزار : إن شاء الله مثله .

مختصر زوائد البزار [١٤٩٧] .

يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف] .

لقد ترك موسى قومه ليتلقى عن الله المنهج : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَاۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف] .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، « الميقات » هو الوقت الذى يعد لعمل من الأعمال ، وموسى عليه السلام جاء فى الميقات أى فى الميعاد المحدد ، ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ هو قول يدل على أن كلامًا حصل من الله لموسى لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه لله .

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موصى استشراف اصطفائى وكأنه قال لنفسه : ما دام قد كلمنى فقد أقدر أن أراه لأن استطابة الأنس تمد النفس بسبل الأمل فى الامتداد فى الأشياء ، لم يقل موسى أرنى ذاتك بل قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، فرد الحق سبحانه عليه : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ وكلمة ﴿ لَن ﴾ تأتى تأبيدية أى تؤبد المستقبل ، أى لا يحدث ولا يتحقق أن يرى الله فى الدنيا .

وسبحانه يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح لن ترانى ، ولكن حتى أُطمئنك إنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتى ، ﴿ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ ، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، فإن استقر مكانه يمكنك أن ترانى ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ اندك ، والدك هو الضغط على الشىء من أعلى ليسوى بشىء أسفل منه .

ولكن أيقدر المتجلى عليه على هذا التجلى أم لا يقدر .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ اندك . إذن .. فمن الممكن أن يتجلى اللَّه على بعض خلقه ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلى أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلى للَّه ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ ، ويقال خر الشىء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماءة الطويلة ، ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أى أفاق من الغشية التى حصلت له من الصعقة وكأنه تساءل لماذا انصعقت ؟ ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ، يراد بها التنزيه للَّه من الحدث الذى نحن بصدده وهو رؤيته تعالى ، وتوبة موسى هنا من أنه سأل اللَّه ما ليس له به علم ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل لقد كلمه اللَّه فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التى يعطيها اللَّه له ويتنعم بفيض جود لا ببذل مجهود ؟

هنا تظهر منزلة موسى عند الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] .

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسرى عن موسى ، الذى أحس بنوع من لوم نفسه على تجاوزه حينما قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ فقال له الحق سبحانه وتعالى ما معناه : لا تلتفت يا موسى إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك . والله يريد بهذا أن يلفتنا جميعاً إلى ألا ننظر إلى ما منعناه إياه ، ونحاول أن نضخمه ؛ ولكن فلننظر إلى عطاءاته وفيوضاته وهى كثيرة أجل من أن تحصى[1] ، وهو سبحانه يذكره بها فى هذا المقام . فالله قد اصطفاه أى اختاره وميزه على الناس ، وهذه دقة الأداء ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ ٱصۡطَفَيۡتُكَ ﴾ ولم يقل ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، لكان معنى هذا هو الاصطفاء المطلق على كل خلق الله ، حتى الملائكة المقربين ، ولكن الحق سبحانه وتعالى ، يفهمنا أن هذا الاختيار والتفضيل ، هو فى دائرة البشر ، ولكن الله أصطفى من الرسل غير موسى ؛ فلذلك نقول : هناك فرق بين اصطفاء أو تفضيل برسالة منفردة ، وبين تفضيل برسالة ومعها شئ زائد ، تماماً كما يتميز أحد أولادك فتعطية مكافأة ، ويتميز ابنك الثانى أكثر فتعطية مكافأة ومعها هدية ، الاثنان أخذا المكافأة ، ولكن أحدهما تميز بالهدية ، والرسل اصطفاهم الله سبحانه وتعالى بالرسالات ، ولكن موسى عليه السلام اصطفاه الله بالرسالة والكلام ، على أننا نلاحظ قول الحق : ﴿ بِرِسَٰلَٰتِي ﴾ مع

(١) قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .
وجاء فى الأثر : أن داود عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة منك على ، فقال الله تعالى : الآن شكرتنى يا داود . أى حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم . تفسير ابن كثير [٢/٢٣٦] .

أن موسى له رسالة واحدة وهى اليهودية ، نقول : إن الرسالة على الأنبياء تتنزل على مراحل ، وسيدنا رسول الله ﷺ استمر يتلقى الوحى ثلاثة وعشرين عاما ، وكل ما يأتى من الوحى فى كل مرة هو رسالة من الله ، إذن فالمجموع رسالة واحدة ، إلا أنها رسالات متعددة ، تشمل كل ما نزل على الرسل السابقين وتضيف عليه ، أى إنها رسالة جمعت رسالات كثيرة ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ أى أن النعم التى أعطيتها لك تستوجب الشكر؛ لأن فيها تفضيلاً كبيراً على ما أعطيته للناس ، والإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله ، لابد أن ينظر إلى ما بقى من النعم ، لا إلى ما سلب منه ، والمؤمن المتفائل إذا رأى كوباً مملوءا إلى نصفه بالماء يقول نصف الكوب مملوء ، والإنسان المتشائم [1] يقول : نصف الكوب فارغ . ولذلك فإن جعفر الصادق كان ذاهبا إلى دمشق لمقابلة الخليفة ، وأثناء الرحلة من المدينة إلى دمشق جرحت قدمه ، ولما لم تكن هناك عناية طبية ، فقد تقيحت قدمه وتسممت ، ولما ذهبوا به إلى الأطباء قرروا قطع قدمه ، فقال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً ، أى مخدرا حتى لا يحس بالألم . فرفض جعفر الصادق رضى الله عنه وقال : لا ، لا أريد أن أغفل عن ذكر ربى طرفة عين ، فلما قطعوا قدمه أخذوها ليدفنوها ، قال : أحضروها فجاءوا له بها ، فقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء .

---

(١) أخرج البخارى [٥٧٧٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٢٢٥/١١٩] . عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، إنما الشؤم فى ثلاث . فى الفرس ، والمرأة ، والدار » .

وهكذا يجب أن تكون نظرة المؤمن ، ليست إلى النعمة التى سلبت منه ، ولكن إلى النعم التى أعطيت له ، وهنا يريد اللَّه أن يلفت موسى إلى ذلك ، فيقول له ما معناه : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، ولكن انظر إلى أنى فضلتك على الناس برسالاتى وبكلامى فكن شاكرا لنعمتى عليك[1] .

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ ﴾ [طه] موسى كان على موعد مع ربه ؛ ليتلقى منه المنهج ، وكان من المفترض أن يحضر معه النقباء أو رؤساء الوفود ، ولكنه ذهب وحده فقال له ربه : ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أى لماذا لم تأت مع قومك ؟ فقال موسى : ﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ أى أنهم سيأتون خلفى ، ولكنى عجلت إليك يارب لترضى .

فنبى اللَّه موسى عليه السلام قال لربه إن القوم آتون وراءه ، ولكنه تعجل لقاء اللَّه ليرضى بأن يطبق منهجه؛ لأن القوم حين يرون موسى قد تعجل لقاء اللَّه فى الموعد الذى حدده ، يعلمون أن هذا الأمر لولم يكن خيراً ما سبقهم إليه ، وبذلك يجدون فى طلب هذا الأمر ويهتمون به؛ لأن موسى نبيهم وقدوتهم سبقهم إليه .

---

(١) قال القرطبى فى قولة تعالى : ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أى من المظهرين لإحسانى إليك وفضلى عليك ؛ يقال : دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف . والشاكر معرض للمزيد كما قال : ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلمة اللَّه تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور اللَّه عز وجل .

تفسير القرطبى [٧/٢٨٠] .

يعطينا الحق صورة أخرى من صور كفر قوم موسى رغم كل النعم التى أنعمها عليهم ، فيقول الحق سبحامه وتعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات الله ، وبعد أن استخلف هارون على قومه وقوله : ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ والحلى هى : ما يتزين به الناس من الذهب والأحجار الكريمة والجواهر ، ولكن الحلى سيدها دائما هو الذهب .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ يدل على أن جسد العجل لم تكن فيه الروح التى تعطيه الخوار ، أو الصوت الذى يصدره البقر ؛ ولذلك اضطر صانعه - وهو السامرى - أن يجعل فيه فتحات للهواء من الأمام ومن الخلف؛ ليدخل منها الهواء ويخرج ؛ فيحدث صوتا أشبه بصوت الخوار .

ولكن لماذا اختار السامرى العجل دون سائر مخلوقات الله؟ لأن بنى إسرائيل كانوا خارجين من مصر ، وكان المصريون القدماء يعبدون العجل ؛ لميزات فيه ، فالمصريون القدماء عبدوا الأشياء التى كانوا يرون فيها خيرا وقوة ، فعبدوا الشمس ، وعبدوا النيل ؛ لأن الشمس قوة تبقى لهم مظاهر الحياة على الأرض ، والنيل قوة تغمر لهم الأرض بالخير ، ويخرج منها الزرع ، ويأتى لها بالخصوبة ، والعجل قوة يجر المحراث ويلقح البقرة ؛ فتأتى لهم بالخير من عجول تعينهم فى الحياة وزراعة الأرض ، وأبقار تعطيهم اللبن والخير . ولكن كيف عبد قوم موسى العجل بعد أن من اللّٰه عليهم بكل هذه النعم ، فأنجاهم من فرعون ، وأورثهم الأرض ، وأغرق عدوهم ؟

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حين أعطى قوم فرعون كل هذه النعم بمجرد أن عبروا البحر مروا على قوم يعبدون أصناما ، فقالوا لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ونسو أن الإله لا يجعل ، ولكنه هو الخالق والموجد ، ونسوا أن العبادة لابد أن يكون لها منهج ، وإلا فكيف ستعبد إلها دون أن يبين لك منهج عبادته ؟!

ويلفتنا الحق إلى منهج العبادة الذى يجب أن يرسل للبشر لهدايتهم ، فيقول : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ أى : ألم يفطنوا إلى أنه لا منهج له ولا يهدى للحق ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٨] أى أنهم كانوا ظالمين حينما أعطوا حق العبودية لجسد عجل ، وهذا ظلم فى حق الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ، ثم يقول الحق تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ ﴾ وهذا دليل عل أنه كان بينهم من ذوى البصيرة من نبهوهم إلى سفاهة ما فعلوا ؛ فندموا على ذلك .

وكأن الندم قد بلغ أشده منهم لما أحسوا بعظم جريمتهم ، وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أى أنهم حينما أحسوا بالجريمة الكبرى التى ارتكبوها ، طلبوا رحمة اللّٰه وغفرانه ، وبقوا كذلك حتى عاد إليهم موسى ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ .

فكأن موسى قد عاد إليهم وهو فى حالة شديدة من الغضب والأسف ، مما يدل على أنه أخبر من اللّٰه بما حدث ، والغضب هو : ثورة من عدم وقد قال

الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَسِفًا ﴾ استخدما لصيغة المبالغة؛ ليلفتنا إلى الحزن الشديد الذى كان فى نفس موسى .

ثم تأتى بعد ذلك مظاهر الغضب ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أى أنه أراد أن يعبر لهم عن قبح ما فعلوه بعد أن تركهم ؛ فقال بئس ما فعلتم أى خزياً وعارا ، ثم قال أعجلتم أمر ربكم ، أى هل استبطأتم عودتى إليكم بعد ميقات ربكم ؛ حيث إنه قد تأخر عشرة أيام ، أى حينما أبطأت فى العودة إليكم اعتقدتم أننى لن أعود ، فبدأتم تبتعدون عن المنهج مع أن بطئ فى العودة لم يكن يؤدى إلى ذلك ؛ لأنكم تعبدون الله ولا تعبدوننى .

فقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] أى أن غضب موسى انصب على أخيه هارون ؛ فأخذ برأسه وقد أعماه الغضب عن الأخوة ، وأخذ يجره إليه ، ماذا كان رد هارون ؟ ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ يعنى : يا ابن أمى ، فكأن هارون يذكر موسى بصلة الرحم ، ثم يحاول أن يبرر له ما حدث فيقول : ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ أى أن هارون يريد أن يقول لموسى : إننى وقفت ضد هؤلاء الذين عبدوا العجل ، ووقفت ضدهم بقوة ، حتى وصلت المسألة إلى أنهم كادوا يقتلوننى ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ الشماته هى : إظهار الفرح لمصيبة تقع على خصم ، والأعداء هم الذين عبدوا العجل ، ووصفهم بالأعداء دليل على أن هارون وقف منهم موقف العداوة ، وأن ما يفعله موسى سيجعلهم يشمتون .

بعد ذلك سأل موسى السامرى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾(1) [طه] .

كلمة ما خطبك ، تقال فى الحدث المهم ، وهو الحدث الجلل الذى يصلح لأن تقال فيه : خطب .

لما سأل موسى السامرى رد عليه بقوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ هناك بصرت ، وأبصرت ، كلمة : أبصرت للرؤية الحسية ، وكلمة بصرت للرؤية العلمية ، فكأن السامرى يقول لموسى أنا رأيت بعلمى وأن هذا شئ لم يعرفه القوم ، فاجتهاده قاده إلى جمع الحلى ، وعمل العجل والعكوف عليه ؛ لأنه رأى قومه طلبوا من موسى : أن يجعل لهم إلها مثل القوم الذين مروا عليهم ، ووجدهم يعكفون على أصنام لهم .

فقال : هذه مسألة فى بالهم ، وانتهز فرصة غياب موسى وقام بهذا العمل ، وزاد على ما طلبه القوم من موسى بأنه لم يجعله صنما من حجارة ، وإنما جعله عجلا له صوت ، وله خوار .

ومعنى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ فقبض على الشئ أى أخذه بجمع يده ، قوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ روى عنه العلماء روايات متعددة ،

---

(1) يقول السيوطى عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ قال : لم يكن اسمه ، ولكنه كان من قرية اسمها سامرة ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ يعنى فرس جبريل .
وعن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ قال : من تحت حافر فرس جبريل . الدر المنثور [٥/٥٩٦] .

فقالوا : إن السامرى لما كان جبريل يتعهده حين أخفته أمه في كهف أيام تقتيل فرعون لأبناء بنى إسرائيل ، وكان يأتيه على جواد ، فلاحظ أن الجواد كلما مر بحافره على شئ اخضر مكان الحافر ، أى دبت الحياة فى مكان الحافر ، وهذا قول الذين قالوا إن العجل كان عجلاً حقيقيا له صوت طبيعى ، وليس بمرور الهواء يحدث منه صوت الخوار ، ولكن العلماء الآخرين قالوا كلاما غير هذا فقالوا : إن معنى ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ الرسول كما نعلم هو المبلغ لشرع الله ، وهو حامل المنهج المكلف به . فالرسول هنا هو موسى ؛ لأن بنى إسرائيل لم يروا جبريل ، بل ولم يسمعوا منه ، ولكنهم سمعوا من موسى ، فهو الذى بلغهم أمر اللّٰه ومنهجه .

وإذا كان الرسول جاء ليبلغ شرعا من اللّٰه ، فهذا هو أثره الذى يبقى بعد انتقاله ، فقبض قبضة من هذا الأثر .

ومعنى ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أبعدتها عن مخيلتى ، وتركت لنفسى العنان فى أن تفكر أى تفكير ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ ومعنى سولت له نفسه ، أى أنها دفعته إلى معصية؛ بأن يأخذ شيئا من آثار الرسول ووحيه الذى جاء به من الله ، وينبذها عن منهجه ، وبعد ذلك يسير بمحض فكره ومحض اختياره ، ولذلك لا يقال : سولت لى نفسى الطاعة .

بعد ذلك ماذا فعل موسى مع السامرى .

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه : ٩٧] .

إذن .. فمعنى ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ ﴾[1] أن تنعزل فى حياتك عن الناس وتبتعد عنهم ، ولا تحتمل أن يمسك أحد أو يقترب منك .

قالوا : فانعزل السامرى عن المجتمع ، وهام على وجهه فى البرارى لا يمس أحداً ولا يمسه أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ أى انظر إلى هذا العجل الذى ظللت على عبادته عاكفا – أى مقيما – لأن العكوف هو : الإقامة ، فمعنى اعتكف فى المسجد أى أقام فيه وانقطع عن المجتمع الخارجى . ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾ : أى لنصيرنه كالمحروق ، ﴿ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ ننسفه أى نطيره ، ونزروه فى الهواء ، وبعد أن بين الحق سبحانه وجه البطلان فيما فعله السامرى ، وفيما فعله القوم الذين اتبعوه فى عبادة العجل ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ [طه : ٩٧] .

قصة نبى اللّه موسى وقومه مع فرعون ، أخذت حيزا كبيرا من القرآن الكريم؛ لأن اليهود قوم عللهم وأمرضهم كثيرة حتى أنهم من جهلهم يفتخرون بأنهم أكثر الأمم أنبياء ، ويعتبرون ذلك من مفاخرهم ، مع أن النبى لا يرسل إلا عند شقوة [2] قومه ، فكأن بلادتهم لم يكفها نبى واحد ،

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ ﴾ أى قال موسى فاذهب ، أى من بيننا ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ ﴾ أى لا ولا أمس طول الحياة . فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ، ولا يقربوه ، ولا يكلموه ، عقوبة له واللّه أعلم . تفسير القرطبى [١١/٢٤٠،٢٤١] .

(٢) الشقاء والشقاوة بالفتح : ضد السعادة ، يمد ويقصر ، شقى وشقاء وشقاوة وشقوة وشقوة . وفى التنزيل العزيز : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا ﴾ [المؤمنون : ١٠٦] . لسان العرب [١٤/٤٣٨] .

ولكنها تحتاج إلى مجموعة من الأنبياء ، مثل العملية الخطيرة أو المريض الخبيث الذى يحتاج إلى مجموعة من الأطباء ، ولا ينفع لعلاجة طبيب واحد .

فكثرة الأنبياء فى بنى إسرائيل حجة عليهم ، ودليل ضدهم ليس لصالحهم .

ولكن حينما تجد قصة نبى الله موسى تتكرر فى القرآن ، تجد التكرار عبارة عن لقطات من القصة يكمل بعضها بعضا ، فربنا سبحانه وتعالى لا يحكى - حدوتة أو تاريخا - ولكنه يقص على الرسول ﷺ موطن العبرة ليثبت به فؤاده[1] .

وتثبيت الفؤاد يتكرر بقدر ما يتعرض له الرسول من مواقف صعبة خلال دعوته ، فكلما احتاج فؤاده إلى التثبيت ، جاءه القرآن بلقطة جديدة من القصة[2] .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

قال القرطبى فى تفسير : ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ أى : على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا ويقينا .

وقال ابن عباس : ما نشد به قلبك . وقال ابن جريج : نصبر به قلبك حتى لا تجزع .

وقال أهل المعانى : نطيب ، والمعنى متقارب . تفسير القرطبى [١١٦/٩] .

(٢) قال ابن كثير : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢] . أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتاب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك ، بأنه إنما نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ؛ ليثبت قلوب المؤمنين . تفسير ابن كثير [٣٠٧/٣] .

قصة موسى والخضر قصة العجائب الغيبية التى يقف أمامها العقل البشرى خاشعاً ومسلماً ، فهى قصة رسول موحى إليه ومعه منهج حياة ممثلاً فى التوراة ، فيه افعل ولا تفعل ، وقصة عبد صالح آتاه اللَّه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، ولكل خصوصيته .

روى التاريخ أن موسى عليه السلام قام خطيباً فى بنى إسرائيل فلما انتهى من خطبته سأله رجل هل تعلم أحد أعلم منك ؟

قال : لا . فأوحى اللَّه إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك . قال موسى لربه : فكيف لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت تجده هناك ، فأخذ موسى حوتاً فى مكتل ، واصطحب فتاه يوشع بن نون ، وقال له : إذا فقدت الحوت فأخبرنى . ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه ، حتى وصلا إلى الصخرة وغشاهما النعاس ، فناما ، ومس الحوت بعض الماء فاضطرب فى المكتل ، وأخذ سبيله فى البحر سرباً . فرآه يوشع وهو بين النوم واليقظة ، فلما استيقظ موسى نسى أن يسأل يوشع عن أمر الحوت ، ونسى يوشع أن يخبره بما حدث . فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغداة وقد أجهدهم السير ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً لم نعهده من قبل – ذلك أن موسى لم يجد من التعب مثل مالاقاه منذ جاوزا الصخرة – ولما هم يوشع لإعداد الطعام تذكر الحوت الذى تسرب إلى البحر ، فقال لموسى : أرأيت إن أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ، وقد اتخذ سبيله فى البحر بحالة تدعو إلى العجب .

فقال موسى : إن فقدان الحوت هو ما كنا نبتغيه ؛ لأنه أمارة على الفوز بما نطلبه ، فرجعا فى الطريق التى جاءا منها ، حتى أتيا الصخرة فوجدا العبد الصالح .

إن اسم هذا العبد الصالح مسألة لا يحدث عليها جدال ، إنما هو عبد علمه اللّٰه من لدنه علما – واللّٰه سبحانه حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم ، يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة ، ولا يريدنا أن ندخل فى مجادلة حول من هذا الشخص أو من هذه المرأة – ذلك أن الأسماء هنا لا قيمة لها – وإنما القيمة الحقيقية فى الموعظة والحكمة .. ولذلك لم يعرف اللّٰه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلا اسمين هما مريم ابنة عمران وعيسى ابن مريم لأن ما حدث لهما لن يحدث لغيرهما لذلك كان التعريف هنا واجبا ... أما فرعون وذو القرنين وكل ذلك تركه اللّٰه سبحانه بلا تعريف – حتى لا ندخل فى جدل حول الأسماء ونترك الحكمة ... ففرعون هو كل رجل يريد أن يُعبد فى الأرض ، وذو القرنين هو كل من أعطاه اللّٰه الأسباب للأشياء . إلى آخر ذلك .

إن الذى يجب أن نلتفت إليه فى هذه القصة أن هناك أشياء ظاهرة فى الكون وهناك أشياء تخفى الحقائق قد لا نتنبه لها .

إن سبب ما نعانيه من متاعب فى الدنيا ، هو أننا نقف عند الأشياء الظاهرة فقط فإذا حدث أمامنا شىء نكرهه اعتقدنا أنه شر وإذا حدث أمامنا شىء نحبه اعتقدنا أنه خير .

وأقول لك إياك من هذه الظواهر ، إياك أن تجعل نفسك حكما لأقدار اللّٰه فى كونه .

إن أحدا منا لم يؤت من العلم ما يجعله يعرف ما هو خير وما هو شر .
والأحداث تقع أمامنا بظاهريتها فقط، ولكن قد يكون الشيء الذى نحسبه خيرًا هو شر كبير ، والشيء الذى نحسبه شرًا يكون خيرًا وخيرًا عميما .

هذا هو ما أراد اللَّه سبحانه أن يلفتنا إليه فى قصة موسى ، والعبد الصالح ، فهذه القصة ظهرت لنا بعض أسرار اللَّه سبحانه فى ظواهر الكون ، وكيف أن الحقيقة تختلف عن الظاهر .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] والحقب جمع حقبة ، وهى فترة طويلة من الزمن قدروها بسبعين سنة تقريبًا ، فإذا كانت الحقب جمع حقبة وأقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن موسى عليه السلام كان مستعدا أن يمشى أكثر من مائتى سنة فى سبيل أن يلقى هذا الرجل الذى أ خبره اللَّه أنه أعلم منه .

وكلمة لا أبرح ، أى لا أترك ما أنا بصدده ، فإن كنت قاعدًا لا تبرح القعود ، وإن كانت ماشيًا لاتترك المشى - وموسى عليه السلام يريد أن يقول : لا أترك المشى ، حتى أصل هذا المكان ولو مشيت مائتى سنة وعشرًا .

وإصرار موسى على بلوغ مجمع البحرين أو بمعنى حقبًا دليل على أن طلب العلم يجب على الإنسان أن يسعى إليه ولو بالجهد والمشقة فمع أنه رسول إلا أنه سعى إلى طلب العلم وتحمل المتاعب فى سبيل الوصول إليه . ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [الكهف : ٦١] المجمع هو مجمع البحرين وهو مكان التقاء البحرين أو النهرين ليصبحا بحرًا واحدًا مثل دجلة والفرات حينما يجتمعان فى شط العرب .

والحوت نوع من السمك وموسى وفتاه كان معهما حوت مشوى ليأكلاه عندما يجوعان .

وكلمة : ﴿ نَسِيَا ﴾ الذى نسى الحوت هو الفتى ولكن القرآن قال نسيا لأن موسى لم يذكر الفتى بالطعام الذى كان معه ، ولأنه هو المسئول عن الرحلة ، ورئيس القوم لا بد أن يتنبه إلى كل جزئية من جزئيات الركب معه .

ولكن الذى حدث ، أن الحوت بعد أن نسياه اتخذ سبيله فى البحر سربا ، مع أنه مشوى والسرب مثل السرداب أو الشق فى الأرض ، ولكن كيف تسرب الحوت ؟ قالوا إنه قفز من المكتل أو المخلاه التى كان بها ، وهذه آية ، ثم اتجه إلى البحر لأنه يعلم أنه مكان إقامته وفيه حياته وفى سير إلى البحر ترك علامة أو شقًا فى الأرض من المكان الذى كان فيه حتى دخل مياه البحر .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الكهف] .

فلما تجاوزا المكان المطلوب ، شعر موسى بالجوع والتعب ، فطلب من الغلام أن يأتيه بالطعام ، ونلاحظ أنه لم يتعب إلا بعد أن وصل مجمع البحرين وتجاوزه ، وهذا التعب هو الذى سيدله على المكان .

والنصب هو التعب ، ومعنى ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ أى أعلمت ، و ﴿ أَوَيْنَآ ﴾ أى لجأنا إلى الصخرة التى كانت عند مجمع البحرين لنستريح من تعب السفر ، فإنى نسيت الحوت فى هذا المكان وفى الآية السابقة قال نسيا .

لأن الأولى كلام الله فى الإخبار عنهما ، ولكن فى الثانية كلام الفتى الذى اعترف بأنه نسى لأنه المكلف بحمل المكتل وما فيه من طعام .

واعتذر عن النسيان بأن الشيطان أنساه ذكر الموت .

فى الآية السابقة قال : ﴿ سَرَبًا ﴾ ، لأن هذا حال الموت ولكن هنا قال : ﴿ عَجَبًا ﴾ أى : عجيبا لأنه خالف المألوف لأنه حوت مشوى ثم دبت فيه الحياة فقفز من مكانه وسعى نحو البحر فهذه مسألة عجيبة عند من رآها .

بعد ذلك قال الحق سبحانه : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ ﴾ [الكهف] .

أى قال موسى ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أى : أن المكان الذى كنا نريده هو الذى ذهب فيه الحوت ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى عليه السلام ، ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أى : رجعا إلى هذا المكان لأنه معروف لهم .

ومجمع البحرين اتفق العلماء على أنه التقاء بحرين مع بعضهما ليصبحا بحرًا واحدًا ، وهذه الصورة لا توجد بالنسبة لمسرح بنى إسرائيل إلا فى جنوب سيناء ، عند التقاء خليج العقبة بخليج السويس ، عند قمة رأس محمد فى أقصى الجنوب من سيناء ، وعندما وصلا إلى هذا المكان وجدا هذا الرجل الذى جاء موسى لمقابلته ، وهو عبدًا للّه وهذا شرف كبير أن تكون عبدا للّه دون سواه .

ومعنى ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الكهف : ٦٥] قال العلماء : أن الرحمة وردت فى القرآن بمعنى النبوة لأن الكفار حينما قالوا : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] كان رد اللّه عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

إذن .. الرحمة هنا بمعنى النبوة وإذا نظرنا إلى هذه الآية نجد كلمة ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ ﴾ وكلمة : ﴿ مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى : أن الحق سبحانه هو الذى أتاه رحمة من عنده وعلمه علما مباشرًا بدون ملائكة ، فكأنه لا حرج على اللّٰه أن يختار عبدًا من عباده ويعطيه شيئًا من العلم بدون نبوة .

ولا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ أى أن هذا العلم جاء من اللّٰه مباشرة للعبد الصالح ، ولم يأت عن طريق اطلاع أو قراءة ، أو عن طريق موسى عليه السلام ولكنه كان من اللّٰه إلى العبد الصالح مباشرة ، وبهذا أصبح العبد الصالح فى الأشياء التى علمها اللّٰه له يعلم الظاهر والباطن ، يعرف ما هو حادث ويعرف السر وراء الحدث ولكن لابد أن ننتبه إلى هذه النقطة لأن العبد حين يكون صالحا ، ويأخذ من اللّٰه فيوضات يأخذها عن طريق ما أمره به رسوله ، وإن كان المأخوذ هناك ليس هو المأخوذ من الرسول ، فالمأخوذ من الرسول هو الحكم الظاهرى الخاص بالتكاليف ، ومخالفة التكاليف إنما الشيء الآخر هو علم وراء الظاهر .

فالرسل يأتون بالأحكام التى أمروا بتبليغها للناس ، بأن يفعلوا كذا وكذا ويمتنعوا عن كذا وكذا فمثلا الرسل يدعون الناس إلى عدم الإعتداء على النفس أو المال ، ولكن هذا العبد سيقتل الغلام ، ويتلف السفينة ، فهذا فى ظاهره مخالف لأحكام الرسل لأن هناك أحكاما أخرى لها علل باطنة فوق الأحكام الظاهرة ، وهذا العبد الصالح كما أخبر عنه النبى ﷺ اسمه الخضر .

ولكن هل هذا الخضر موجود الآن أم أنه مات ؟

قالوا لكل زمان خضره .. ففى كل زمان يعطى الحق سبحانه أحدًا من عباده بعض الفيوضات من عنده .

ولذلك الخضر قال لموسى : أنت لن تستطيع معى صبرا لأنك لا تستطيع أن تصبر عن شيىء لم تعلم خلفياته ومراميه ، فلو أن موسى علم العلة فى خرق السفينة لبادر هو إلى خرقها .

وانظروا إلى أدب النبوة ، وأدب تلقى العلم ، فمع أن اللّه تعالى أمر موسى بالذهاب إلى الخضر ليتلقى عنه العلم إلا أنه يستأذنه بأدب .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ ﴾ [الكهف] .

فمع أن الذهاب كان بأمر من اللّه ، كان أدب التلقى من موسى فلم يقل له أنا سأتبعك لأن اللّه أمرنى بذلك .. ولكنه استأذنه فى أن يسمح له بأن يتبعه ، وهذا أدب المتعلم مع المعلم .

ومعنى : ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ الرشد هو حسن التصرف فى الأشياء ، وسداد المسلك فى علة ما أنت بصدده ، أى تعلمنى سداد التصرف وحكمة تناول الأشياء وقوله : ﴿ تُعَلِّمَنِ ﴾ تدل على أنه يطلب شيئًا لم يكن معلوما له لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء ٨٥].

وقال الرسول ﷺ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

ولذلك الشاعر يتحدث عن النفس المعزورة بما عندها من علم فيقول :

قالت النفس قد علمت كثيرا   قلت هـــذا الكثير نذر يسـير
تملأ الكنوز غرفة من محيــط   فـــيرى أنه المحيــــط الكبير

بعد ذلك انظرو إلى الشروط التى يمليها العالم على من يطلب العلم ، قال الخضر لموسى : أنت مذهبك غير مذهبى وسنختلف وأنت لن تستطيع معى

صبرًا - أى لن تستطيع أن تصبر على تصرفاتى لأنك لن تفهم ما وراءها وكيف تصبر على شىء لم تحط به خبرًا أى ليس عندك خبر عنه .

بعد أن قال الخضر لموسى هذا الكلام وحذره من أنه لن يستطيع أن يصبر على ما سيفعله الخضر ، لأنه ليس عنده علم به قال له موسى : ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴾ .

هذا كلام من يريد أن يتعلم ولا يتكبر على العلم ، فهو يقبل هذه الشروط ولن يجادل أو يعترض على الخضر ، هكذا قال موسى للخضر قبل بداية الرحلة وقدم المشيئة بأنه سيكون صابرًا ولن يعصى له أمر ، فكأنه أصبح مأمورًا .

فهنا الخضر أراد أن يؤكد هذا الكلام مع موسى فقال : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴾ [الكهف : ٧٠] .

أى لا تسألنى عن شىء افعله لأننى أنا الذى سأشرحه لك بعد ذلك ، لم يخبره عن هذه الأشياء وقت حدوثها حتى يعلمه ويعلمنا معه أدب تناول العلم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الكهف] فانطلقا أى مشيا ثم ركبا فى السفينة فهى سفينة ركاب .

فالخضر لما ركب فى السفينة خرقها ، أى أحدث فيها ثقبا ، يدخل منه الماء ، فاستغرب موسى هذا الأمر مع أنه وعد الخضر بأنه سيطيعه ويتبعه ولن يعصى له أمرًا ، إلا أنه لما حدث هذا الأمر أمامه فى الواقع لم يستطع أن يصبر ، وأنكر ذلك الفعل ، فكأن اللّه سبحانه يريد أن يعلمنا أن الكلام النظرى غير الفعل .

إن موسى لم يستطع أن يسكت ، حينما وقع أمامه أمر يخالف طبعه وعقيدته ، ولم يسأله لماذا فعلت ذلك فقط ، بل قال له أنت خرقت السفينة حتى تغرق ركابها لقد فعلت شيئًا بشعًا وفظيعًا .

وموسى فعل ذلك واستنكر ما حدث ، لأنه استحضر الحكم الشرعى فى إتلاف مال الغير والتسبب فى إغراق زكاب السفينة ، فشعر بفداحة الأمر ومن هنا كان اعتراضه على الخضر . فرد عليه بقوله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٢] فكأنه يذكره بأنه صدق فيما قاله له من البداية من أنه لن يستطيع معه الصبر فتذكر موسى عليه السلام العهد الذى قطعه على نفسه قبل بداية الرحلة فقال : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ . أى : اعذرنى لأننى نسيت ولا تحملنى من أمر اتباعك عسرًا ومشقة .

ثم سارا بعد ذلك فقابلهما غلام فقام الخضر بقتله ، والجريمة صارت أكبر من الأولى لأن الأولى كانت اعتداء على مال الغير ، ولكن هذه المرة اعتداء على نفس ، والغلام كما نعلم هو الذى لم يبلغ سن الرشد .

فموسى استنكر هذا الأمر وقال له كيف تقتل نفسا طاهرة صافية بغير ذنب لقد فعلت فعلا منكرًا .

قال تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف : ٧٤] .

فهنا رد الخضر عليه برد مختلف عن الرد الأول ، فقال ﴿ أَلَمْ أَقُل ﴾ أى : أننى قلت لك : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فالكلام مطابق للحال ،

فاعتذر موسى للخضر بإنه لن يسأله عن شيء بعد ذلك ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف : ٧٥] .

ولذلك كان رسول اللّه ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم رحمة اللّه علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ .

سار موسى والخضر حتى دخلا إلى قرية من القرى ، وكان أهلها لئاما لا يكرمون الضيف ولا يحسنون على الفقير ، وصلا إليها وقد بلغ منهما الجوع مبلغًا شديدًا ، فطلبا الطعام من أهلها فرفضوا وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ .

استطعم أى طلب الطعام – وقالوا طلب الطعام أصدق سؤال ، فالذى يسألك عن مال ربما كان يدخر هذا المال ويكنزه ، ولكن الذى يطلب منك طعامًا يأكله ، فهذا أصدق سؤال .

ومعنى : ﴿ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ أى أنهما طلب الطعام من أهل القرية جميعًا سألوا هذا وهذا ولم يعطهم أحد شيئًا ولم يستقبلهم أحد .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ ولم يقل : فأبوا أن يطعموهما ، لأن الذى حدث أنهما طلبا طعامًا ، ولكن أهل القرية لم يمتنعوا عن إعطائهم الطعام فقط ، ولكنهم رفضوا أن يستضيفوهما حتى بدون طعام ، فهذا منتهى اللؤم والخسة والبخل فلما مرا فى القرية بعد فشلهما فى الحصول على طعام وجدا جدارًا يريد أن ينقض أى يوشك على السقوط .

وكلمة : « إرادة » نحن نفهمها للعاقل الذى له إرادة – ولكن ساعة تذكر مع غير العاقل نقول فبدت عليه علامات الميل والتصدع والتشقق الذى ينذر بالسقوط .

هذا هو الكلام السطحى ولكن صاحب العقل المتسع المدرك أن المتحدث هو الله وأن كل شيء فى الكون له حياة تناسبة ولله أن يخاطبه ويرد عليه .

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ . فلما أصلحه ورممه غضب موسى وقال للخضر : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ .

أى كان يجب أن تأخذ منهم الأجر على هذا العمل لأنهم قوم لئام لا يصح أن نعمل لهم عملا بدون أجر فلا بد أن نأخذ منهم الأجر .

فرد عليه الخضر وحسم المسألة بقوله : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٨] .

كلمة : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ ﴾ دستور من الله على أن المذهبين لا يلتقيان لأن كل واحد منهما فى طريق وعلى كل واحد منهما ألا يعترض على الآخر ويلزم أدبه .

وقرار الخضر هذا موافق لما قاله موسى قبل ذلك حينما قال له : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ .

والخضر لم يترك موسى يذهب دون أن يشرح له الأشياء التى اعترض عليها إن هذا من أدب الصحبة فما دام واحد اصطحب الآخر فى سفر أو مهمة وسارا معا فمن أدب الصحبة ألا يفترقا على خلاف بل يفترقا على وفاق وتفاهم ، لأن الافتراق على خلاف يوسع الفجوة بينهما ، ولكن التفاهم

يوضح ما خفى من أسباب على الطرف الآخر ، فإذا عرف الحقيقة فربما ارتاح ضميرة ووضحت أمامه الرؤية وأصبح راضيا عن صاحبه .

وبعد ذلك تناول الخضر الوقائع التى حدثت ليشرحها لموسى فقال : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] .

السفينة كانت مملوكة لمساكين « واللام » لام الملكية .

وهذه الآية حسمت الخلاف بين العلماء حول معنى الفقير والمسكين ، والفرق بينهما ، إن الفقير هو الذى ليس عنده شىء أى لا يملك شيئًا .

والمسكين : هو الذى عنده ماليس يكفيه لأنهم يملكون سفينة ، ولكنها لا تكفيهم فهم مساكين .

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ مع أنه فى النهاية سيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ ولكنه نسب المسألة إلى نفسه فقال : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ولم يقل : فأراد اللّه أن يعيبها فنسب العيب إلى نفسه ولكن عند كنز الفلاحين قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف : ٨٢] ومعنى : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ سَفِينَةٍ ﴾ الغصب : هو أخذ الشيء من صاحبه بالقوة ، أى أنه كان يصادر هذه السفن من أصحابها وما دام يأخذ كل سفينة صالحة ، فالخضر أراد أن يجعل السفينة غير صالحة حتى يتركها لهم الملك .

وكلمة وراءهم هنا تعنى أمامهم لأن السفينة تسير إلى الأمام ، وتمر على هذا الملك الظالم المتسلط الذى يترصد للسفن التى تمر ليصادر الصالح منها ويأخذه لنفسه .

إذن .. العلة فى خرق السفينة لم تكن واضحة لموسى لأن خرق السفينة اعتداء على ملك الغير ، وهو منهى عنه شرعًا .

أى أن الخضر خرقها لينجيها من ملك ظالم والسؤال أيهما خير - أن تبقى للمساكين سفينة فيها عيب يستطيعون إصلاحه ، أم لا تبقى لهم سفينة على وجه الإطلاق ؟

لو أن هؤلاء المساكين خُيروا ، لاختاروا ما حدث ووجدوا فيه الخير العميم ، لأن الذى حدث هو شىء بسيط أنقذ لهم السفينة وأبقاها ، ومن هنا فلو عرفوا الحكمة لاختاروا الواقع ، ولكن غياب الحكمة عن موسى جعله لا يطيق صبرًا على الواقع ويعتبره شرًا .

أما الغلام فالحق سبحانه وتعالى ، علم أزلا أن هذا الغلام لو كبر سيفتن والديه المؤمنين ، والله يحب لهما أن يظلا على إيمانهما واستقامتهما ، كما أراد للغلام أن يدخل الجنة لأنه مات صغيرا قبل أن يكلف .

وإذا أردنا أن نقرب هذه الصورة إلى الأذهان نقول هب أن أبوين صالحين رزقا بطفلة وتوفاها الله وهى صغيرة ، ثم أطلعهما الله على الغيب ، فإذا بهما يعرفان أن هذه الطفلة عندما تكبر وتصبح امرأة ناضجة ستنحرف ألا يحمدان الله على أنه توفاها وهى صغيرة ورحمهما مما كان سيحدث .

رحمها لأنها ما دامت قد ماتت قبل سن التكليف ، فستدخل الجنة بغير حساب ، ورحمهما بأن جنبهما الشقاء الذى كان سيحدث فى حياتهما نتيجة سلوك هذه الإبنة ؛ كذلك فى قصة هذا الغلام الذى قتله الخضر هذا القتل ، كان رحمة بالأب والأم بأن جنبهما الله شقاء كان سيأتى على يد هذا الغلام ، يملأ حياتهما بالطغيان ويقودهما إلى الكفر والعياذ بالله ولم يشأ الله أن

يتركهما بلا ذرية فرزقهما غلاما صالحا خيرا منه زكاة يملأ حياتهما بهجة وينسيهما فقد الأبن الأول ورحمة بالغلام بأن توفاه قبل أن يدخل سن التكليف ليدخل الجنة .

ولو رأى الأبوان الصالحان الغيب لاختارا الواقع لأنهما يعرفان يقينا أن هناك حسابا وبعثا ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

وأما الجدار الأيل للسقوط ، فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وتحت الجدار يوجد كنز يخصهما ، وأهل هذه المدينة لئام وليس عندهم أدنى شىء من المروءة ، بدليل أنهم رفضوا أن يطعموهما ورفضوا حتى أن يؤوهما حتى الصباح ، فلو أن الجدار وقع لظهر الكنز وخطفه أهل المدينة وضاع اليتيمان .

إذن .. الخضر حينما أصلح الجدار وأقامه ليستر الكنز ، فقد رد على خسة القوم ولؤمهم ، وانتقم منهم بأن حرمهم من رؤية الكنز ، والاستيلاء عليه فلو وقع الجدار وظهر بريق ذهب الكنز لأخذه القوم اللئام ولم يبق لليتيمين شىء ، فالله سبحانه أرسل الخضر فى هذا التوقيت الذى يكاد أن يقع فيه الجدار ويظهر الكنز ليصلح الجدار ويحمى الكنز من الضياع .

وقالوا : إن الخضر بنى الجدار بناء موقوتًا ، بحيث يظل هذا البناء حتى يبلغ الغلامان رشدهما فقد كان لهذا الجدار عمر افتراضى كما نقول نحن الآن .

وبلوغ الأشد ، أى : القوة ومعنى ذلك أن أجهزة تكوينه الإنسانية قد اكتملت ، لأن الإنسان تكتمل أجهزته حينما صبح قادرا على إنجاب مثله .

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ [الكهف : ٨٢] .

فالرحمة هنا أن مال اليتيمين يحفظه اللّه لهما ، ولا يحدث له مكروه .

وما فعلته عن أمرى : أى ليس هذا بذكائى ولا شطارتى ، ولكنه بأمر اللّه فهنا الخضر لم يغتر بعلمه ويفخر على موسى لأنه أعلم منه ، ولكنه قال له : أنا لست أفضل منك أو أعلم منك ، لأن ما أفعله بأمر اللّه وليس بذكائى وفراستى ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

○ ○ ○

موسى عليه السلام .. وقارون

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] .

و « البغى » هو تجاوز الحد فى الظلم .. وقارون كان عنده المال الكثير الذى يستطيع بسطوته أن يظلم ويبغى عليهم والبغى إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس وإما بالاحتقار أو الازدراء وإما بالبطر عليهم وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بحيثية البغى فيقول : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ .

﴿ مَفَاتِحَهُۥ ﴾ جمع مفتح ، فإن كانت بكسر الميم فهو المفتاح الذى يفتح به ، أى : آلة الفتح .

وإن كانت بفتح الميم فهى الخزانة التى يوضع فيها الأشياء .

فإن كانت الأولى يكون المعنى أن مفاتيح خزائن المال التى عند قارون لو حملتها عصبة تنوء بها ... وإن كانت الثانية أى أن الخزائن ملأىٰ لو حملتها عصبة تنوء بها . لأنها كثيرة وثقيلة .

ونحن نقول فلان ناء بالحمل إذا جاء يحمل الحمل على ظهره فجعله الحمل ينخ من ثقله .

ومعرفة خفة الحمل من ثقله عن طريق الفصل فالأثقل يجهد عضلك أكثر من الأخف فتعرف الأخف من الأثقل عن طريق حاسة العضل .

والعصبة هم القوم الذين يتعصبون لمبدأ من المبادئ بدون هوى بينهم والعصبة من ثلاثة إلى عشرة .

وقد نصحه قومه ألا يغتر بما أتاه الله من النعم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] .

فهذا نهى عن الفرح ... والفرح هو انبساط النفس لأمر يسر الإنسان ، وهذا الأمر قد يسر الإنسان لأنه يمتعه أو لأنه ينفعه .

وهناك فرق بين المتعة والمنفعة فالمتعة شيء تنبسط له وتتلذ به ولا تهتم بما يحدث لك بعد ذلك ، فمريض السكر ممنوع مثلا من أكل الحلويات والفواكه والعسل ، ومع ذلك تجده ساعة يأكل هذه الأشياء ويتلذذ بأكلها ، غير عابئ بما يحدث له بعد ذلك ، فهذه متعة وليست نفعًا .

فما هو الفرح المحظور ؟ الفرح المحظور هو أن تفرح بالمتعة ، لأن الأصل أن تفرح بالنافع .. فمثلا الولد الذى أعطاه أبوه نقودًا فذهب واشترى لعبة ليلعب ويتسلى بها ، لكن ولد آخر أخذ النقود من والده واشترى بها مصحفًا أو كتابا فهذا جعل الله متعته فى الشيء النافع بعكس الأخر الذى اشترى فهذا فرح يصح أن تفرح به وذاك لا يصح أن تفرح به .

فحين يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ .
المقصود به فرح المتعة ولكن افرح الفرح النافع .

فلا تفرح فرح متعة لأن الله لا يحب الفرحين الذين يفرحون بالأشياء انبساطا وقتيا وبعد ذلك يحدث منه الضرر .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان قوم قارون الناصحين له : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أى أطلب بما أنعم اللّه عليك من الرزق .. اطلب به الدار الآخرة .. لأنك لو انفقته فى ملذات الدنيا سيفنى معك ومع الدنيا .. فأما أن تترك هذا المال بالموت وإما أن يتركك هو بالفقر ، والدنيا لا تدوم على حال .

فإن كنت تحب المال وتعشقه أعمل به شيئًا ينفعك فى آخرتك ، حتى يظل معك دائمًا .

ولذلك تروى السيدة عائشة أنهم ذبحوا شاة ، وكان النبى ﷺ يحب لحم الكتف ، فأبقته له فقال لها النبى ﷺ ما بقى من الشاة يا عائشة ؟ قالت ما بقى منها إلا كتفها لأنها تصدقت بها كلها إلا كتفها أبقته للنبى ، فقال لها النبى ﷺ بقى كلها إلا كتفها فهو ﷺ نظر إلى ما يبقى لا إلى ما يفنى .

فإن كنت تحب المال ولا تريد أن يفارقك ، فاجعله يسبقك إلى الآخرة ، ولذلك قال رسول اللّه ﷺ يقول : « ابن آدم مالى مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » وكان بعض الصالحين حين يدخل عليه سائل يسأله يقول له مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وحينما سأل رجل الإمام على كرم اللّه وجهه وقال له أريد أن أعرف يا إمام هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال له : الجواب ليس عندى ولكن عندك أنت فقال الرجل كيف ؟

قال إذا دخل عليك من تعوّد أن يهديك هدية ، ودخل معه مَن تعود أن يطلب منك شيئًا فبمن تفرح ؟

فإن كنت تحب الدنيا تفرح بمن جاءك بهدية ، وإن كنت تحب الآخرة تفرح بمن سيأخذ منك صدقة ، فهذا هو المقياس ، لأن كل إنسان يحب من يعمر له الدار التى يحب .

بعض الناس يفهمون قوله : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ على أنه حث على أن نأخذ نصيبنا من الدنيا ، مع أن معناها أن العاقل كان يجب أن ينظر إلى هذه الدنيا نظرة لا تستحق الاهتمام ، فربنا نصح بالعدل حتى لا ينسى الدننا ، وقيل نصيبك من الدنيا هى الحسنة التى تظل معك : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أو أن قارون كان بخيلا على نفسه مقترًا عليها ، فنصحه الناس ألا يحرم نفسه من هذا الخير الذى أنعم اللّٰه به عليه .

ولذلك قيل إن الدنيا أهم من أن تنسى ولكنها أتفه من أن تكون غاية فلا تنسها لأنها الوسيلة التى ستأخذ بها الآخرة ولكن لا تجعلها غاية فى ذاتها بل اجعلها وسيلة توصلك للآخرة .

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يتخلق خلقه بخلقه أى يتخلقوا بأخلاق اللّٰه لأن اللّٰه يمدك بالنعم ويعطيك فلا تبخل على الفقير والمسكين وقد نهاه قومه عن خمس .

الأولى : ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ .

الثانيــة : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ ﴾ .

والثالثــة : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ .

والرابعــة : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ .

والخامسة : ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ .

إنها خمسة أشياء لا بد أنهم نهوه عنها ، لأنهم وجدوا من تصرفاته ما يناقضها ، وبعد ذلك ما كان من قارون إلا أن رد على هذه الخمسة بقوله . ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ فكأنه يقول لا تتدخلوا فى هذه الأشياء ،

لأن من أعطانى هذا المال علم أنى أهل له ، وما دام أنه علم أنى أهل له فقد ائتمننى عليه فلا حاجة لنصيحة منكم .

وكلمة ﴿ أُوتِيتُهُۥ ﴾ تدل على أنه فهم أنه جاءه من أين من علمه وخبرته فقال : ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ أى من الأعمال التى تكسب وتربح فلنصدق جدلا أنك أوتيته على علم فهو كان مشهورًا بأنه حسن الصوت فى قراءة التوراة وكان حافظا لها وكان حسن الصورة إذن فهو على صلة بالتوراة وهذه الصلة معروفة .

إذن .. فما دمت أوتيته على علم ، فلم لم يفدك هذا العلم فى أن اللّٰه أهلك من هو أحسن منك ؟ فكان الأحرى بك ألا تفوت عليك هذه .

فلو كان عنده علم حقيقى كان لابد أن يعلم هذه الحقيقة .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [الشعراء : ٧٨] .

كلمة جمع مرة تكون مصدرًا ومرة تكون اسما للجماعة كأن له عصبية كبيرة جدا أو جمع مصدر أى جمع للمال فهى تصلح لجمع المال أو جمعًا للعدد والناس .

وبعد ذلك قال : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

فما علاقة : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ هذه ؟

أى لا يأخذه بانذار ، بل يأخذه على غرة فلا يقول له يا قارون أنت فعلت كذا وكذا وسأخسف بك الأرض لن يقول ذلك - لأن هذا معلوم لديك وأن الحيثيات التى فعلتها من البداية كفيلة بأن تفاجئك وذلك حتى يعلم أن الخسف يمكن أن يأتى له فى أى وقت بعد أن قال ذلك وحصل الرد وقالوا له

أفعل كذا وكذا لم يستجب وكان فرحًا فخورًا وكان أيضًا باغيا للفساد فخرج كمن يخرج لسانه للناس سخرية منهم .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦٓ ﴾ .

ولك أن تتخيل قارون يوم زينته .

وذكر العلماء هذه الزينة بعدة آلاف جارية وفرس ، وهذه مسألة ينقصها الدليل ، فلما خرج فى زينته انبهر الناس وانقسموا قسمين .

البعض قال : ياليت لنا مثله ، وهم من أخذهم بريق الزينة وزهو النعمة وترف الحياة ، فأخذت بشريتهم وراءه ومدوا أعينهم إلى ما هو فيه قال تعالى .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ولذلك حذرنا اللّٰه بقوله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [النساء : ٣٢] .

إن كل واحد يأخذ ما قدر له لأن اللّٰه وزع أسباب فضله على خلقه ، لأنه سبحانه ليس له صاحبة ولا ولدًا فكل الخلق لديه سواء ... أعطى لهم مجموع كل فرد يساوى مجموع الفرد الآخر ، ولكن هذا حصل على عشرة على عشرة فى القوة ، وتانى فى الذكاء ، وثالث فى الصحة ، فلكل واحد درجة لماذا ؟

لأن حركة الحياة تتطلب أفعالا شتى ، وليس من الممكن لنفس واحدة أنها تقوم بكل الأعمال .

فإذا وجدت أحدًا متقنًا فى مهنة ما ، فاحمد اللّٰه لأن حسنه سوف يعود عليك أنت ، وربما قد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، وادع له بالتوفيق كى تسير الأمور .

ولكن الله لا يخلى الناس من أهل الحق فماذا قالوا ؟

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] .

ولذلك قال الشاعر :

إن الذى جعل الحقيقة علقما لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

فلم يدع المولى عز وجل من أرادوا الحياة الدنيا يشككون الناس فى قدر الله ويجعلونهم يتمردون على مشيئة الله ويقولون : لماذا قارون عنده كل هذا ويكفروا بالله ويجحدوا نعمته ، وهؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا لم يظفروا بمجرد سطحية العلم ولكن الذين أوتوا العلم عملوا مقارنة فالدنيا عندهم عمرها بمقدار عمر الفرد فيها والعمر موقوت فإن أردت الاختيار أفتراه فى فانية أم فى باقية ؟ لا بد أنك ستختار الباقية وتعمل لها .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ﴾ أى أنكم بتفكيركم هذا وتمنيكم أن تكونوا مثل قارون تستحقون الهلاك لماذا ؟ لأنكم تمردتم على قدر الله فى ذواتكم وحقدتم وحسدتم عليه فى نعمته فأنتم لكل الويل - أما إن أردتم الآخرة - فثواب الله خير من دنيا قارون لأنكم أنفسكم لمتموه فى أشياء خمسة فقد شجبتم تصرفاته أى لا ترضونها فكيف يكون منكم ذلك ثم تقولون يا ليتنا نكون مثله ؟

﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ أى : أنه لا يلقى قضية العلم فى أنه لا يقبل الحياة الدنيا ويقبل ثواب الله لأنه خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون . ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] .

ما هو الصبر ؟ الصبر هو احتمال ما يؤذى فى الظاهر ولكنه ينعم فى الباطن هذا هو الصبر وله مراحل :

الأولى : صبر على مشقة الطاعة .

الثانية : صبر النفس على شهوة المعصية أى صبرك على نفسك .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص : ٨١] .

وخسف الأرض يكون بانشقاقها ثم ابتلاعه هو وداره التى فيها كنوزه ، فلم ينفعه شيىء كما لم يغن عمن قبله أحد ، رغم كونهم أشد قوة وأكثر جمعا ، لم ينتصر لنفسه بذاته ، ولم يجد قوما ينتصرون له مما يدل على عدم وجود عصبية له .

﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾

« وي » هذه تفيد الندم أو للتعجب أحيانا .

فعندما قالوا : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ ثم تركوا قارون وداره بعد الخسف قالوا « وي » أى أنهم نادمون على ما قالوه فهم يخطئون أنفسهم لماذا ؟ كأن اللّه فى رزقه حكم وقدر .

يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدره لمن يشاء ، وليس بسط الرزق دليل الكرامة فقد خسف اللّه به وبدار الأرض وليس قلة الرزق دليل الإهانة وقد تعرضت لها سورة الفجر ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر] .

إذن .. لا إتياء المال دليل كرامة ، ولا سلبه دليل إهانة ، وكل شىء له قدر بل لحكمة فى البسط وحكمة فى القدر .

أو لم تتمنوا مكانه فلم تجعلوا مع أمانيكم أن تذهبوا معه ؟

لكنهم يعترفوا بأن اللّه من عليهم ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢] .

« وي » هنا بمعنى التعجب ، وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بقضية عامة ، لكى يفصل فى هذه المسألة ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

ويروى أن موسى عليه السلام بعد أن أذن اللّه له وأمر الأرض أن تطيعه دعا عليهم قائلاً : « يا أرض خذيهم » ، فأخذتهم إلى أقدامهم .

ثم قال : « خذيهم » ، فأخذتهم إلى ركبهم

ثم إلى مناكبهم .

ثم قال : « أقبلى بكنوزهم وأموالهم » ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها .

ثم أشار موسى بيده فقال : « اذهبوا بنى لاوى » ، فاستوت بهم الأرض ، وخسف بهم إلى الأرض السابعة ، وصح عن النبى ﷺ أنهم يخسف بهم كل يوم إلى يوم القيامة (١) ؛ ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

وقد قص اللّه تعالى تلك القصة ؛ حتى يعلم الناس أن أحداً لن يفلت من عذاب اللّه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأنه : ﴿ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢] ، وأن ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ [يوسف : ٢١] ولن تغنى عنهم أموالهم ولا قوتهم من اللّه شيئاً .

وحتى يعلم كل ظالم أنه ليس له من اللّه ناصر : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ، و ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] وهى دار القرار ،

(١) أخرج البخارى [٥٧٩٠] عن سالم بن عبد اللّه أن أباه حدثه أن رسول اللّه ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره خُسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » .

وهى التى يغبط من أعطيها ، ويعزى من حرمها ، وأنها معدة للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

علينا أن نعرف أنه حينما نلتقى بقول الحق : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ فإننا نفهم منه هنا : شبه القسم ، إن الحق سبحانه وتعالى يقسم بالقول الفصل ، لقد أعطى موسى الكتاب وهو التوراة ،وأرسل من بعده الكثير من الرسل لبنى إسرائيل؛ لعلهم يهتدون إلى الحق ، ونحن نعلم أن التوصل إلى الحقائق يتم بثلاث وسائل :

الوسيلة الأولى : هى إقرار صاحبها على نفسه .

والوسيلة الثانية : هى الشهادة من غيره عليه .

والوسيلة الثالثة : هى القسم .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقرر لنا بالوسائل الثلاث فى آن واحد استيفاء كل أركان تقرير الحقيقة[1] .

إن موقف بنى إسرائيل من رسالة موسى ، يتماثل مع موقفهم من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لقد وقفوا مع موسى عليه السلام موقف التعنت

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ينعت تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة ، فحرفوها وبدلوها ، وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبين من بعده الذين يحكمون =

وضيق الأفق والتلكؤ ، ومحاولة الابتعاد عن تطبيق منهج الله بكل السبل ، وبحيل إطارها الغباء ، وضيق الأفق ، ومادية الرؤية ، وعدم القدرة على استيعاب الحقائق التى أرادها الله ؛ هداية للإنسان فى الكون ، وبعد أن يقرر الحق الموقف المتعنت من بنى إسرائيل ، يقول سبحانه : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ [البقرة : ٨٧] أى أنه أرسل لهم الرسل تباعا ، بعضهم خلف بعض ، أى أن الحق لم يرسل إليهم موسى عليه السلام فقط ، ولكن أرسل إليهم أيضاً رسلا وأنبياء؛ ولنا أن نعرف أن كثرة الأنبياء الذين بعثهم الله لبنى إسرائيل ليست شهادة لهم ، ولكنها شهادة عليهم ، إنهم يتفاخرون بغباء فى الاستدلال على أن الحق اختصهم بالكثرة من الأنبياء ، وهم ينسون أن الحق لا يبعث الأنبياء ولا يرسل الرسل ، إلا لإبراء البشرية من أدوائها ، فكلما كثر الرسل والأنبياء إلى قوم ، دل ذلك على أن تلك الأدواء متأصله فيهم ، بحيث لم يكف فيها طبيب واحد ، وكان من رحمة الله وحكمته أن أرسل لهم هذه الكوكبة من الأنبياء ؛ وذلك حتى يقطع عنهم الحجة بأن هناك فترة من غفلة .

أن الحق تبارك وتعالى أرسل إليهم من الأنبياء والرسل : يوشع ، واشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان ، واشعيا ، وارميا ، وحزقيل ، والياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ابن مريم ، عليهم السلام .

إنه موكب طويل من الرسل أرسلوا إلى بنى إسرئيل من بعد موسى . وهكذا لا نجد فترة من الزمن من بعد موسى وحتى عيسى عليهم السلام قد خلت من

= بشريعته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٤] الآية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ .

تفسير ابن كثير [١/١١٦-١١٧] .

رسول أو نبى ، وكما نعلم أن أى نبى لا يذهب إلى قومه متطوعا ، إنما نبيا ومرسلاً من قبل الحق جل وعلا ، والفرق بين الرسول والنبى هو فرق الكلام العقدى ، ومعنى ذلك هو أن النبى لا يأتى بتشريع جديد ، ولكنه مرسل أيضا من قبل الحق ؛ ليكون قدوة للناس ، والرسول هو نبى أرسله الحق بتشريع للناس يوضح لهم سبل الهداية ومنهج الحق جل وعلا(1) ، وفى ذلك يقول الحق جلا وعلا : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .

إن الحق جل وعلا يخبر نبيه الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام ، أنه لا يرسل رسولا إلا بالوحى إليه ، أن يبلغ قومه بأن الخالق الأكرم هو وحده المستحق للعبادة؛ ذلك أن بعضا من كفار العرب ، وبعضا من بنى إسرائيل؛ قد زعموا أن الحق قد اتخذ ولدا ، وزعموا أن الملائكة بناته ، وتنزه الحق جل وعلا عن أن يكون له ولد ، وتنزه الحق جل وعلا أن يكون الملائكة بنات له ؛ بل الملائكة عباد مكرمون بالقرب من اللّه والعبادة له ، ولا يسبقون الحق بقول إلا بعد أن يأذن لهم ، وهم بأمره وحده يعملون ، ولا يتعدون حدود

(1) قال الشيخ الحكمى فى معنى الرسل : وهم كل من أوحى إليه ، وأمر بالتبليغ ، أما من أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبى فقط ، وليس برسول ، فكل رسول نبى ولا كل نبى رسول . معارج القبول [٦٧٥/٢،٦٧٦] .

ما يأمرهم به الحق جل وعلا[1] ، يعلم كل أحوالهم وأعمالهم ، وهم فى خشية دائمة من الحق وتعظيم دائم له ، والرسل أيضا من البشر يصطفيهم اللَّه ، لا أحد فيهم يزعم أنه ابن اللَّه ، بل الرسل عباد مكرمون ، يدعون إلى عبادة الحق ويبلغون أقوامهم رسالة الخالق الأكرم ومنهجه .

إذن .. فكل من النبى والرسول مختار من قبل الحق . ومرسل من قبل الحق ، النبى مرسل بالأسوة الحسنة والقدوة ، وتطبيق المنهج الحق الذى جاء به الرسول من قبل ، والرسول مرسل من الحق لإبلاغ منهج حدده له اللَّه تعالى .

○○○

---

(١) عن قتادة رضى اللَّه عنه قال : قالت اليهود : إن اللَّه عز وجل صاهر الجن ، فكانت بينهم الملائكة ، فقال اللَّه تكذيباً لهم : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى الملائكة ليس كما قالوا ، بل هم عباد أكرمهم اللَّه بعبادته ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ يثنى عليهم ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ ﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ قال : لأهل التوحيد .

الدر المنثور [٥/٦٢٤] .

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ ﴾ نزلت فى خزاعة ؛ حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً فى شفاعتهم لهم .

تفسير القرطبى [١١/٢٨١] .

نبى الله يوشع عليه السلام[1]

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

(١) هو يوشع بن نون بن أفرايثيم بن يوسف بن يعقوب - وهو إسرائيل - بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله ، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .ذكر ذلك فى الطبرى فى تاريخه [١/٣٦٤] وذكر أنه فتى موسى عليهما االسلام .

وهو أحد الرجلين الذين ذكرا فى صورة المائدة : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ [المائدة : ٢٣] . ذكر ذلك القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن [٦/١٢٧] والطبرى فى تاريخه [١/٤٣٠] .

وهو الذى بعثه الله لبنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهم السلام . وهو الذى دخل ببنى إسرائيل قرية الجبارين - أريحا - لحرب من فيها ، قيل : فى حياة موسى عليه السلام . وقيل : لم يسر يوشع إلى أريحا ولا أمر بالمسير إليها إلا بعد موت موسى بن عمران ، حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين ، وقالوا : مات موسى وهارون جميعاً فى التيه قبل خروجهما منه ، وكان بنو إسرائيل قد لبثوا فى تيههم أربعين سنة ، وناهض يوشع بمن بقى معه منهم مدينة الجبارين ، فقاتلهم يوم جمعة قتالاً شديداً حتى أمسوا وغربت الشمس ، ودخل السبت دعا الله أن يرد عليه الشمس ، فردت عليه ، فزيد له النهار يومئذ ساعة فانهزم الجبارين . ومات عليه السلام وله من العمر سته وعشرون ومائة سنة . وتدبيره أمر بنى إسرائيل منذ توفى موسى إلى أن توفى يوشع عليهما السلام سبعاً وعشرين سنة .

تاريخ الطبرى [١/٤٣٥ وما بعدها] .

لقد اجتمع الملأ من بنى إسرائيل وقالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل معه فى سبيل اللَّه ، وكلمة ملأ : تعنى ازدحام الإناء بحيث لا يكون فيه مكان يتحمل زائداً ، أى أن الظرف قد شغل بالمظروف شغلا لم يعد يتسع لسواه ، وتطلق كلمة الملأ (١) على أشراف القوم ووجوههم (٢) ، الذين يملكون إدارة الجماعة الكبيرة ولا يزاحمهم فى ذلك أحد .

إن أشراف هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من بعد موسى قد اجتمعوا للتشاور ، ثم ذهبوا إلى نبيهم يسألونه أن يعين لهم ملكا ، يقاتلون تحت إمرته (٣)

هؤلاء القوم من بنى إسرائيل المجتمعين عند نبيهم ، جاءوا بالعلة الموجبة للقتال ، لقد أخرجوا من ديارهم فلماذا قال نبيهم لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾ إن نبيهم يعرفهم ؛ لذلك يحذرهم ويخشى إن كتب اللَّه عليهم القتال ، قد يتولى الكثير منهم ولا يقاتلون ، فماذا كان جوابهم : ﴿ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ

---

(١) الملأ : الأشراف . ذكره الشوكانى ، وأورد عن الزجاج قوله : سموا بذلك لأنهم مليئون بما يحتاج إليه منهم .

(٢) وجوه القوم : سادتهم ، واحدهم : وجه وكذلك وجهاؤهم ، واحدهم : وجيه . لسان العرب [١٣/٥٥٦] .

(٣) قوله تعالى : ﴿ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ﴾ قيل يوشع بن نون ذكره قتاده عن عبد الرزاق . وذكر ابن كثير عن الطبرى أن هذا القول بعيد ؛ لأن عليه السلام بدهر طويل ، وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام كما هو مصر به فى القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة . وقال وهب بن منبه : بأنه شمويل ابن بالى ابن علقمة . ويقال له : شمعون . وبه قال السهيلى فى « التعريف والإعلام بما أُبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام [ص : ١٨] ، وانظر تفسير ابن كثير [١/٢٨٤] .

﴿ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ [1] ولنا أن نلحظ الدقة فى اللفظ القرآنى ؛ لنتعلم سعة عطاء اللّه ، لقد قالوا : ﴿ نُّقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهم خلطوا هذا القتال فى سبيل اللّه بالأسباب الموجبة للقتال ، وهى أنهم أخرجوا من ديارهم وتركوا أبناءهم ، وهم إما أسرى فى أيدى الذين أخرجوهم وإما عبيد .

ولماذا أراد الحق أن يورد لنا الأمر بهذه الدقة ؟ لماذا قال عن هؤلاء أنهم : ﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؟ لقد قص اللّه علينا خبر هذه القلة ؛ لنعرف قيمة الثبات على التعاقد الإيمانى ، إنه الاستثناء المطلوب للتنبيه ؛ وذلك حتى يعلم المؤمن حينما تنحسر الجمهرة عنه ، فلا يقل : إنى قليل لماذا ؟ لأن المؤمن حينما يدخل قتال فى سبيل اللّه ، فإن له رصيدًا ضخماً من القوة متمثلاً فى إيمانه بالإله القوى القادر ، وذلك عكس عدوه الذى لا يملك أى رصيد من هذا الإيمان ، فحتى هذا العدو لو كان كثير العدة والعدد فالمؤمن قادر بإيمانه بربه أن يهزمه بإذن اللّه ، واقرأ قول الحق تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

---

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا ﴾ أخرجهم العمالقة : جالوت وقومه .

تفسير ابن كثير [١/٢٨٤] .

وقال الطبرى : كانوا قد وطنوا بلاد بنى إسرائيل وقتلوا رجالهم وسبوا ذراريهم ، وضربوا عليهم الجزية وأذلوهم ، وغلبوهم على التابوت الذى فيه السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وبه كان بنو إسرائيل ينصرون على عدوهم إذا لقوه .

تاريخ الطبرى [١/٤٦٧] .

إنَّ القلة المؤمنة التى تعرف أنها سوف تلقى اللّٰه ، تؤمن أن النصر ليس بالقلة ولا بالكثرة ، ولكن النصر من عند اللّٰه .

إذن .. فالشيء يكون واحدًا ، لكن النظرة إليه تختلف من إنسان لآخر على قدر الرصيد الإيمانى .

وهكذا الأمر فى المعارك .. فهناك من يرى العدو كثيرا ويرى نفسه ومن معه قليلًا ، وهناك من يحسب نفسه على أنه مع اللّٰه فلا ترهبه كثرة العدو أو عدده أو عدته .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

إذن .. فالتولى والإعراض ظلم للنفس ، ومعنى الظلم أنك تنقل حقًا لغير صاحبه ، إنهم أخرجوا من ديارهم وظلوا على هذه الحال ، فظلموا أنفسهم ، وظلموا أولادهم ، وظلموا مجتمعهم ، وظلموا القضية العقدية .

وهؤلاء الذين تولوا هم يقومون بالتخذيل[١] المستتر وقتل الروح المعنوية ، والذين يطلق عليهم فى العصر الحديث : « الطابور الخامس » . الذين يثبطون الروح المعنوية ، دون أن يراهم أحد ، ولكن اللّٰه يعرفهم ، وهو سبحانه عليم بهم .

لقد طلب القوم - من بنى إسرائيل - من نبيهم أن يبعث لهم ملكا وكان يكفى النبى أن يختار لهم الملك ؛ ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم كعادتهم فى التلكؤ واللجاجة يريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين[٢] .

كيف ؟

---

(١) خذله وخذل عنه يخذله خذلًا : ترك نصرته وعونه . والتخذيل : حمل الرجل على خذلان صاحبه وتثبيه عن نصرته . لسان العرب [١١/٢٠٢] .

(٢) يقول ابن كثير وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف . تفسير ابن كثير [١/٢٨٥] . =

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] [البقرة : ٢٤٧] .

إنهم يريدون الوجاهة والحسب والأصل والمال ، إنهم يسألون النبى المرسل إليهم أن يسأل اللّٰه أن يبعث لهم ملكًا ، فيقول لهم نبيهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ

= وفى موضع آخر فى قصة البقرة : أخبر تعالى عن عنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ؛ ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق اللّٰه عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع - يعنى أجزأت - . عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . ا.هـ .

تفسير ابن كثير [١/١٠٥] .

وهذه هى عادة بنى إسرائيل فى كل أمورهم ، يقول اللّٰه عز وجل وهو أعلم بقلوب عباده توبيخًا لهم على ما شاهدوه من آيات اللّٰه تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) قال الطبرى : اسم طالوت بالسريانية شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحرت بن أفيح ابن أيش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

تاريخ الطبرى [١/٤٧٥] .

وقال البغوى : كان دباغا يعمل الأديم . وقيل كان سقاء يسقى على حمار .

معالم التنزيل [١/٢٩٧] .

﴿ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾[1] . إن النبى المرسل يريد أن يطمئنهم إلى أن اختيار هذا الملك ليس مصدره بشريته هو ، إنما أمر الاختيار جاء من عند الله ؛ إن النبى المرسل إليهم ينحى بشريته عن هذا الأمر ، لكنهم يدخلون فى الجاجة والتلكؤ ؛ فيقولون : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ .

لقد دخلوا فى مثل هذه اللجاجة ؛ لأنهم قسموا أنفسهم إلى قسمين :

القسم الأول : هو نسل يأخذ النبوة ، وهذا القسم الذى يأتى من نسل بنيامين .

القسم الآخر : يأخذ الملوكية ، وهو الذى يأتى من نسل لاوى ابن يعقوب .

لما عرفوا أن الله قد بعث طالوت ملكًا عليهم ، بدأوا فى النظر فى صحيفة نسبه ، فلم يجدوه من نسل الملك أو نسل الأنبياء ، فبدأوا فى اللجاجة والتلكؤ ومحاولة رد الأمر على الآمر .

فالذى بعثه ملكا هو الله ، وهو أدرى بمن يناسب الموقف ، وهذا يدلنا على أن الله يعلمنا أنه حين نريد الإختيار لرجل فى مهمة ، فإياك أن يغريك حسب

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ ﴾ أى اختاره وهو الحجة القاطعة ، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت ، وهو بسطته فى العلم الذى هو ملاك الإنسان ، والجسم الذى هو معينه فى الحروب وعدته عند اللقاء ؛ فتضمنت بيان بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة ، وأنها مستحقة بالعلم وفضائل النفس ، وأنها متقدمة عليه ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته ، وإن كانوا أشرف منتسبا .

تفسير القرطبى [٣/٢٤٦] .

الرجل ونسبه أو جاهه ، ولكن اختر الرجل القادر على قدر المهمة والرجل اللائق بها ، وكأن الحق يحسم هنا قضية أهل الثقة وأهل الخبرة .

إن الحق يعلمنا أن أهل الخبرة هم الذين يجب أن يكونوا أهل الثقة ؛ لأنه أهل الثقة قد تنقصهم الخبرة ، فلا يصلون للمهمة بل يفسدونها . والقضية التى نحن بصددها الآن تثير سؤالًا : ألستم أيها القوم تطلبون ملكًا لكم ؛ حتى يسوس أموركم أو يقودكم فى الحرب إلى النصر ؟ إن هذه المهمة تحتاج صفتين :

الصفة الأولى : أن يكون الرجل جسيمًا .

الصفة الثانية : أن يكون الرجل عليماً . والذى اختاره ملكًا لهؤلاء القوم ، إنما كان يتمتع بالصفتين فى آن واحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ .

ولنا أن نتأمل دقة القرآن الكريم ، تلك الدقة المتناهية فى أداء الكلمة للمعنى وفى تصوير الموقف الذى أراد الحق إبلاغه للخلق ، لقد قال النبى المرسل لهؤلاء القوم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وكلمة : ﴿ بَعَثَ ﴾ لا تجرح مشاعر هؤلاء القوم ، ولا تفيد أن طالوت أفضل من أى واحد منهم ، لكن بعد أن ردوا بلجاج وغطرسة وقالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ هذا هو قولهم وهو ناشئ عن عدم فهم لطبيعة المهمة التى أرسل لها طالوت ملكا ؛ لذلك كان الرد : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ .

يريد نبيهم أن يكسر موجة عنادهم لاصطفاء اللّه لطالوت ملكا ، فيخبرهم بآية حسية تدل على اصطفاء اللّه لطالوت ، وأنه الصالح لهذه المهمة ؛ مهمة الملك قال لهم : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨]
وما دام الحال قد وصل إلى العناد عند استقبال أمر طالوت ملكا ، فإن الحق يأتى بالمعجزة التى تؤكد اختيار اللّه له ملكا ، والمعجزة أن هناك آية لملك طالوت . لقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبأ اختيار طالوت بأدب ودون لجاج ؛ لأن الذى يحمل لهم نبأ الاختيار هو نبيهم الذى وثقوا به ولجأوا إليه ، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب .

ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بآية مرسلة من الحق سبحانه وتعالى ، إنها الآية الربانية التى تدل على صلاحية طالوت للملك باختيار من اللّه ، تلك الآية هى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ونأخذ من هذا القول الحكيم ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : إن التابوت كان غائباً مفقوداً .

المسألة الثانية : إن التابوت كان أمره معروفا لكل هؤلاء القوم

المسألة الثالثة : إنهم كانوا فى شغف للحصول على هذا التابوت .

فما هو التابوت ؟

إنه التابوت الذى جاء فيه قول الرحمن : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ .

فالتابوت[1] الذى جاء آية لملك طالوت ، هو التابوت الذى أوحى اللّٰه إلى أم موسى أن تضع فيه ابنها ، وتلقيه فى اليم ؛ ليلقه اليم بالساحل ، وهو الصندوق الذى كانت به التوراة .

وما الذى كان فى هذا التابوت ؟

يقول تعالى : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ .

وكيف يأتى ؟ يقول تعالى : تحمله الملائكة .

إذن .. مادام التابوت يحمل تلك الآثار ، وفيه السكينة لهؤلاء القوم بما يحمله من آثار آل موسى وآل هارون ، ومادام هذا التابوت يأتى وتحمله الملائكة ، فلا بد أن أمره جليل وله مساس بأمور العقيدة ، إذن فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا ؛ ليدلنا على أنه كان مفقودا من بنى اسرائيل ، وكان افتقاده إما بسبب عدو قد غلبهم ، وحاول اقتناص المقدسات التى كانت فى بلادهم ،

(١) قوله : ﴿ ٱلتَّابُوتِ ﴾ : هو صندوق من الخشب الشمشار فيه صور الأنبياء . نقله البلنسى عن ابن عطية ، وهو قول ابن عباس رضى اللّٰه عنهما . ووجود صور الأنبياء فيه يعنى قبل تحريمها فى شرعنا . أنظر زاد المسير [٢٥٨/١] .
قوله : ﴿ سَكِينَةٌ ﴾ : هو تسكين قلوبهم . وقيل : روح من اللّٰه كان يتكلم فيما يختلفون فيه ، وقيل : طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء ، أعطاها اللّٰه موسى عليه السلام ، فوضع فيها الأواح . وقيل غير ذلك كما هو وارد فى كتب التفسير ، انظر تفسير ابن كثير [٣٢٣/١] ، الدر المنثور [٣١٧/١] ، زاد المسير [٢٥٩/١] وغيرها .
قوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ ﴾ : هى لوحان من التوراة ورضاض ما تكسر منها . وقيل : عصا موسى ونعلاه ، وعصا هارون وعمامته أورد هذين القولين ابن الجوزى فى زاد المسير [٢٥٨/١،٢٥٩] .

وإما أن هذا التابوت قد فقد لتخاذلهم فى أمر العناية به ، رغم ما به من مقدسات عقدية ، إن الحق سبحانه وتعالى يعيد إليهم التابوت تحمله الملائكة ، إنه التابوت الذى توجد فيه بقية من آل موسى وآل هارون ، إنه الذى يذكر بفضل اللَّه على بنى إسرائيل إذ أرسل موسى نبيا مرسلا وهارون ليشدد أزر أخيه موسى ، وكان لابد لهم أن يحافظوا عليه لكنهم لم يفعلوا .

وصورة مجئ التابوت تحرك المواجيد الدينية ، وعندما يأتى التابوت محمولاً بواسطة الملائكة ، نعرف أن التابوت قد جاء بصورة تنخلع لها القلوب والتابوت يحمل آثاراً مما ترك أل موسى وآل هارون ، فقد يكون بالتابوت جزء من عصا موسى عليه السلام .

وتقبل هؤلاء القوم طالوت ملكا لهم ، وبدأ يمارس المهمة التى جاء من أجلها لقد جاء لينظم القوم ليخوضوا حربا ضد عدو أخرجهم من الديار وأسر الأبناء ؛ لذلك كان لابد أن يفصل طالوت الجنود عن القوم .

وذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ ﴾ (1) [البقرة : ٢٤٩]

ماذا يعنى الفصل ؟ إنه يعنى عزل شئ عن شئ آخر .

---

(1) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ فَصَلَ ﴾ معناه خرج بهم ، فصلت الشئ فانفصل ، أى قطعته فانقطع .

وقوله : ﴿ بِٱلْجُنُودِ ﴾ : هم سبعون ألفا ، قال ابن عباس .

وقيل : كان الجيش ثمانين ألفا ، فشرب منه ستة وسبعون وتبقى معه أربعة آلاف .

وعن براء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضعة عشر بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوز معه إلا مؤمن .

أخرجه البخارى [٣٩٥٩] .

وهكذا نفهم معنى قول الحق : فلما فصل طالوت بالجنود أى : فصلهم عن غير المقاتلين وقسمهم إلى جماعات مرتبة ، كل جماعة لها مهمة ، وكلمة « جنود » هى جمع لكلمة « جندى » وأصل كلمة : جند هى الأرض الغليظة الصلبة القوية [1] .

بعد أن فصل طالوت بالجند ، بدأ أول مباشرة لمهمته ، فقرر ألا يدخل المعركة بدون تجربة القوم الذين اعترضوا على أمر تعيينه ملكا ، إنه يريد أن يدخل على أرض صلبة ، وبجند مستعدين للقتال الفعلى . وكأن الحق قد وضع لطالوت منهج الاختبار .

ذكر الله تعالى أن طالوت قال لجنوده : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

هذا هو الابتلاء ، وساعة نسمع كلمة ابتلاء فلا يجب أن نفسرها على أنها بلاء بمصيبة ؛ لأن الابتلاء هو الامتحان أو الاختبار ولا يخاف من الاختبار إلا من لم يستعد له .

والابتلاء لا يخيف فى بدايته ، ولكن يخيف فى نهايته من لم يستعد له تماما كالتلميذ الذى يمر بالامتحان ، إن التلميذ الذى اجتهد لا يخاف من الامتحان ، والتلميذ غير المجتهد هو الذى يخاف من الامتحان .

يقول الحق تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا

---

(١) الجند : العسكر ، والجمع : أجناد . والجند : الأرض الغليظة : وقيل : هى حجارة تشبه الطين . لسان العرب [٣/١٣٢] .

قَلِيلًا ﴾ . إنه قول يوحى بمعان جمة وعميقة ، إنهم سوف يمرون بعد عطش على نهر ، والمأمون على القتال هو من يمر على النهر وهو عطشان ؛ لأنه يلتزم أمر اللّٰه بعدم الشرب من النهر ، إنه إنسان يؤثر مطلوب اللّٰه على مطلوب بدنه ، لذلك هو مؤتمن على القتال ، لم يقس اللّٰه فى الابتلاء ، بل أذن سبحانه بما يهدئ الإحساس بالعطش ، وهو أن يشرب الإنسان ملء غرفة من يده .

لقد سمح اللّٰه بقليل من الماء على قدر الضرورة ، فلماذا كان الابتلاء هكذا ، وما صلة ذلك بالعملية الحربية المقبلين عليها ؟

إننا نعرف أن المقاتل أثناء العملية قد ينفد منه الزاد ، وهو عرضة لأن يحاصر بواسطة العدو ، فإن امتلك المقاتل الشئ الضرورى الذى يسمح له بالحياة ، واستطاع أن ينتصر على شهوته فهو قادر على الانتصار ، وهو صالح للمهمة الحربية .

إذن .. فالاختبار الذى وضعه اللّٰه كان مناسباً للمهمة التى هم مقبلون عليها ؛ لذلك نجد منهم من شرب من الماء ونسى المهمة ، ومنهم من خضع لأمر اللّٰه ولم يشرب إلا بالقدر الذى سمح به ، ومنهم من لم يشرب . لقد مروا على أكثر من نقطة اختبار :

أولاً : بأن كتب اللّٰه عليهم القتال فتولوا إلا قليلا منهم .

ثانياً : بمسألة تعيين طالوت ملكا عليهم ، جادلوا واعترضوا حتى جاءهم التابوت دليلاً على أن طالوت قد تم اصطفاؤه ملكا لهم بأمر من اللّٰه .

ثالثاً : باختبار المرور على نهر وهم عطشى ، فلم يثبت إلا القليل منهم ، وهم الصالحون للقتال .

إن التصفية المتكررة تتيح للمؤمن أن يعرف كيفية ميثاق الابتلاء ؛ ليكون مستعداً للجهاد فى سبيل الله ، فلا مجاهد فى سبيل الله إلا المأمون على هذا الجهاد .

ونفهم من سياق النص القرآني أن الذين جاوزوا النهر هم القلة التى لم تشرب منه ، والقلة التى شربت مقدار غرفة من يد ، أما الذين شربوا كثيرا من ماء النهر فقد استبعدهم طالوت من الجيش المقاتل .

وتحين التصفية الأخيرة ؛ لقد جاوز طالوت النهر والذين آمنوا معه ويظهر لهؤلاء موقف جديد ، لقد نجحوا فى أكثر من اختبار ، لكن بعضهم عند الاختبار الأخير قال : ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

وقال البعض الآخر : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٠] .

لقد طلبت القلة المؤمنة المقاتلة أن يفرغ عليهم ربهم وخالقهم : الصبر ، وأن يثبت أقدامهم فى القتال ؛ إنهم ينادون الرب القوى المتولى تربيتهم وهنا يتضح لنا أن مطلوب الألوهية عبودية وتكليف ، ومطلوب الربوبيه عطاء يحد بالأسباب .

إنهم يطلبون من الله أن يملأهم بالصبر ، ويكون أثر هذا الصبر واضحا فى الثبات أمام العدو ، وغاية الصبر وتثبيت الأقدام أن يتحقق النصر على القوم الكافرين ، وهذا بعض عطاء الله لمن يقاتل فى سبيله : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١] . وتحقق أمر اللّٰه ، وانتصر المؤمنون ، وانهزم جيش طالوت وقتل جالوت .

○ ○ ○

نبى الله إلياس عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الصافات] .

إن الياس وآل ياسين علم على مسمى واحد أى أنهما اسم لنبى واحد . وهو إلياس النشبى بن العازر بن هارون ابن لاوى ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى حثهم وحضهم على تقوى الله والخوف منه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أى تعبدون بعلا وهو صنم لا ينفع ولا يضر وتتركون الإله الحق أحسن الخالقين ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فهذا موجز رسالته لم يتعرض لحكم من الأحكام ولكنه جاء لينقى العقيدة الأم مما شاب قمتها ، وهى : العبادة ، فإذا ما صحت هذه العبادة صدر عنه من التكليف ما يناسب تصحيح هذه العقيدة فى نفوسهم ، إن موكب الرسالات منذ آدم . إنما جاء ليصحح صلة المخلوق بالخالق فأثبت للخالق أولًا أنه هو العليم والقادر والحكيم والواحد وهو الذى خلقك وأنعم

عليك حتى تتلقى أوامره برضا وتقبل عليها باطمئنان فإن لم تكن جزاء على ما قدم لك من نعم خلقها لك قبل أن توجد فليكن خوفًا منه لأنك ستعود إليه .

إن الحق سبحانه واجب الوجود ويعطيك وجودًا ، لكنه لا يدوم وليس له موعد محدد ينتهى فيه كذلك هو قادر فيعطيك قدرة ولكنها قدرة موهوبة منه ويسلبها عنك فتمرض وتذهب قدرتك وهو حكيم فيعطيك حكمة تزاول بها الأشياء ، ويعطيك قهارية تزجر بها الذين تحت تصرفك حتى يستقيموا فى أمورهم ويعطيك رحمانية حتى تحنو بها على اليتيم والصغير والضعيف والمسكين . لذلك يحذر اللّه الإنسان أن يفهم أنه أصيل فى الوجود بل عليه أن يفهم دائمًا غير أصيل فى الوجود هو خليفة للّه فى الأرض فكما توكل إنسانًا فى عمل فاعتبر نفسك وكيلًا فقط لا أصيل فى هذا الكون لأنك لو اعتبرت نفسك أصيلًا ستضيع نفسك وتضيع الدنيا معك ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ [العلق] . لقد ضربنا بذلك مثلًا بالولد مع أبيه ، قلنا الولد حينما يكون محتاجًا لأبيه ويأخذ منه مصروفه كل شهر لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر حين يأخذ المصروف ، فالذى جعله يود أبيه هى الحاجة ، فلو أعطى مصروف الشهر كله قد لا يهمه رؤية أبيه فى فترات متقاربة .

إذن .. يجب أن نفسر فلسفة الحاجات التى تعوز النفس لأنها التى تجعلك تلجأ إلى ربك ، ولذلك الإنسان لا يلجأ إلى اللّه بحق إلا إذا اختل شيء عنده ولم يجد غير اللّه ، لكن حين تكون عنده النعمة نادرًا ما يذكر اللّه ويلجأ إليه، فماذا كانت نتيجة دعوته لقوم ؟ ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ .

كشأن كل قوم يأتيهم رسول ليهديهم ويخرجهم من الظلمات والفساد الذى هم فيه إلى النور والحق والهداية لماذا ؟

لأن الفساد الذى هم فيه ينتفعون به ، فالسادة والكبراء يخدمهم الأتباع ، فهم يمتصون دماءهم وعرقهم ليستفيدوا به لمصلحتهم منهم يستفيدون من استمرار الفساد فالذى يتصدى للرسل هم السادة الذين يأخذون خيز الضعفاء .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

كلمة : ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى موقوفون ومعروضون على اللّه يوم الحساب فلا تظنوا أنكم هربتم من اللّه أو أفلتم من يده ، لأنكم ستقفون بين يديه وتنالون جزاءكم ثم يقول تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ، كأن الإحسان فرع للإيمان فهو ما كان محسنًا إلا لأنه كان مؤمنًا .

○ ○ ○

نبى الله حزقيل عليه السلام (1)

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

---

(١) هو حزقيل بكسر الحاء بن بوذى بن العجوز ، وهو الذى أقامه الله على أمر بنى إسرائيل بعد كالب بن يوفنا الذى خالف يوشع بن نون ، لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضيين وأمور الأمم السالفين فى ذلك . وهو الذى أصاب قومه الطاعون ﴿ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ .
انظر تاريخ الرسل والكلوك للطبرى [٤٥٧/١] وما بعدها ، والمعارف لابن قتيبة [ص : ٥١] وجامع البيان [٥٨٦/٢] . وغيرها .
[٣٦٣٩٥٨٢] روى ذلك ابن جرير عن السدى عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ . تاريخ الرسل والملوك للطبرى [٤٥٨/١] .
وأورد السيوطى فى الدر المنثور [٣١١/١] القول الأول : أنهم فروا من جهاد فرض عليهم ، رواية عن ابن عباس .
وعن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال : « الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل ، أو على من قبلكم . فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه » .
أخرجه البخارى [٥٧٢٨] ، ومسلم [٩٢/٢٢١٨] واللفظ له ، وأحمد فى المسند [١٨٢/١،٢١٣/٥] .
ولا يعنى هذا أنه لا يصاب به المسلم ، وإنما هو وباء على أنواع يجب الاحتراز منه ، وصح عنه ﷺ « الطاعون شهادة لكل مسلم » أخرجه البخارى [٢٨٢٩،٥٧٣٢] .

إنهم بعض من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، وكانوا ألوفا فهربوا وخافوا من الموت ، فأماتهم الله عدة أيام ثم أحياهم .

وقال بعض المفسرين : إنهم بعض من بنى إسرائيل ، جاءهم نبأ وباء شديد الفتك بالناس ، فهربوا وتركوا ديارهم حذر الموت ، أو خوفاً من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم .. لماذا ؟ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحدا لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله ؛ لذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أراد للناس أن تهرب من الطاعون ، قالوا له : أنفر من قدر الله ؟

قال عمر : إنما نحن نفر من قدر الله إلى قدر الله [1] . إن ذلك يجعل الإنسان فى تسليم مطلق بملء جوارحه لله ، صحيح أن على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذى يريده الله سوف ينفذ ، والمؤمن يأخذ بالأسباب ويسلم أمره لله .

ويقول سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، وعندما يقول إنسان لإنسان « ألم تر » فمعنى ذلك أنه يسأله ، هل شاهد هذا الأمر بنفسه أم لا ؟ لكن عندما يقول الحق سبحانه لرسوله ألم تر فالمقصود بها سماع لخبر قادم من عند الله ، وأنه ساعة يخبرك الله بشئ سابق عن وجودك ، أو بشئ متأخر عن وجودك فاستقبله استقبالك لما رأيته بالفعل .

فعندما قال الحق سبحانه لهم : موتوا ثم أحياهم فهذا أمر قهرى بالموت وبعودتهم إلى الحياة .. أليس الموت هو ما خافوه وفروا منه ، واحتاطوا بالهرب

---

(١) أخرجه البخارى [٥٧٢٩] ، ومسلم [٩٨/٢٢١٩] . عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه .

منه ؟ ولكن لا أحد يقدر على أن يحتاط من قدر اللّٰه . وقد يقول قائل : لماذا لم يتركهم اللّٰه ليموتوا إلى أن يأتى البعث يوم القيامة ليحاسبوا ؟

نقول لمثل هذا القائل : لقد أراد الحق بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة فى أكرم كتاب حفظه اللّٰه منهجا للناس ، وهو القرآن الكريم . إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارا وتجربة . يموتون بأمر ويعودون إلى الحياة بأمر آخر ، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم ويموتون بعد ذلك حتف أنفهم [١] . ولتظل العبرة ماثلة أمام كل مؤمن حقاً ، فلا يخاف أحد الموت فى سبيل اللّٰه .

لقد أراد اللّٰه بهذه التجربة أن يعلم المجاهدون فى سبيله أن القتال لا يقدم أجلا ، ولا يؤخر أجل ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة .

وها هو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باق ليعرفه كل مؤمن : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » [٢] .

---

(١) الحتف : الموت ، وجمعه : حتوف . وقول العرب : مات فلان حتف أنفه ، أى : بلا ضرب ولا قتل ، وقيل : إذا مات فجأة . قال أبو عبيد : هو أن يموت موتاً على فراشه ، من غير قتل ولا غرق ولا سبع ولا غيره . وقال ابن الأثير : هو أن يموت على فراشه ، كأن سقط لأنفه فمات ، والحتف الهلاك . لسان العرب [٣٨/٩] .

(٢) قال ابن كثير : روى الواقدى عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : لما حضرت خالداً الوفاة بكى ، ثم قال : لقد حضرت كذا وكذا زحفاً ، وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

البداية والنهاية [١١٧/٧] .

إذن .. أمر الحياة والموت ليس مرهونا بقتال أو غيره ، إنما محدود بمشيئة اللّه وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

إن الفضل أن تتلقى عطاء يزيد على حاجتك ، والحق سبحانه وتعالى لا يعطى الناس فقط على قدر حاجتهم ، إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجتهم ، بمعنى لو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم بوباء أو بعدوا ، لكان هذا الموت فضلا من عند اللّه ؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء وهذا فضل من اللّه ، ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل اللّه لنالوا الشهادة أيضا ، وذلك فضل من اللّه .

○ ○ ○

نبى الله اليسع عليه السلام

ذكره الله تعالى من الأنبياء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٨] .

ذكر ابن إسحاق عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضة الله عز وجل إليه ، ثم خلف فيهم الخلوف ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ، وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ ، ويقال : إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسمى : ذا الكفل(١) .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب ، وقال بن عساكر : هو الأسباط ابن عدى ابن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

ويقال : هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام ، ويقال : كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلياس ، خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده (٢) .

---

(١) إسناده ضعيف جداً : أخرجه ابن إسحاق فى « المبدأ » عن إسحاق بن بشر ، فى كتابه : « المبتدأ » . وابن بشر من المتروكين ، واتهم بالكذب ، وفيه عنعنة قتادة وكان يدلس .

(٢) إسناده موضوع : أخرجه بن عساكر فى « تاريخه » ، وفى سنده عبد المنعم بن إدريس ، وهو متهم بالكذب .

نبى اللّٰه شمويل عليه السلام

....

هو شمويل ويقال : أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف ابن علقمة بن ماحث بن عموصاً بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمويا بن هلفاقا ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا .. اللّٰه أعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى ، فجعلت تدعو اللّٰه عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أى سمع اللّٰه دعائى(1) .

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتنى ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم نم . فنام .

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص اللّٰه فى كتابه . =

---

(1) إسناده ضعيف : أخرجه الطبرى [٤٦٧/١] ، وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور [٣١٥/١] . فى سنده أسباط بن نصر ، وهو كثير الخطأ يغرب . انظر ترجمته فى تقريب التهذيب [٣٢٣] .

= قال الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ
عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ
لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً
فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ
قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ
ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا
يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة] . =

....

○○○

= قال أكثر المفسرين : كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل وقيل : شمعون . وقيل : هما واحد . وقيل : يوشع . وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير فى تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة [1] . فاللّه أعلم .

(١) قصص الأنبياء لابن كثير [٥٢٣/٥٢٤] .

نبى الله إشعيا بن أمصيا

قال ابن كثير : قال محمد بن إسحاق(1) : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان فى زمانه ملك اسمه « حزقيا » على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لإشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : فى ستمائة ألف راية .

وفزع الناس فزعاً شديداً . وقال الملك للنبى إشعيا : ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوح إلى فيهم شئ بعد ، ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله . فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللّهم ربّ الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى ، وسرى واعلانى لك .

قال : فاستجاب الله له ، ورحمه ، وأوحى الله إلى إشعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب ، فلما قال له ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال فى سجوده : =

---

(1) إسناده ضعيف ، أخرجه الطبرى [15/18-19] فى تفسيره ، وفى تاريخه [1/532-534] بسنده عن ابن إسحاق .

فى سنده ابن حميد شيخ الطبرى من الضعفاء ، وذكره ابن إسحاق تعليقًا .

= اللَّهم أنت تعطى الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى اللَّه إلى إشعيا أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفى .

وأرسل اللَّه على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر أرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن ، وأوحى اللَّه تعالى إلى إشعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم .

فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهى أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم اللَّه به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بنى إسرائيل مرج[1] أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى اللَّه تعالى إلى إشعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن اللَّه بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجر فنشروها ونشروه معها ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون[2] .

(١) مرج : أى اضطرب أمرهم واختلطت أفعالهم .

(٢) قصص الأنبياء [٥٧١-٥٧٣] .

قال ابن كثير : وقد قيل : إنه الخضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح [1]

وقال ابن عساكر : جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم .. فتنت الناس . فسكن ورسب حتى غاب[2] .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : عن عبد اللّه بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أى رب ، أى عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لى ذكراً ، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوا ، وإذا زوى عنهم سروا بذلك ، أولئك أنحلهم محبتى أعطيهم فوق غاياتهم [3] .

قصص الأنبياء [٥٧٣] .

○○○

(١) إسناده موضوع : انظر تهذيب ابن عساكر [٣٨٤/٢] .

(٢) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر [٣٨٤/٢] .

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه انظر التهذيب [٣٨٦/٢] وفيه على بن أبى مريم لم أقف عليه .

قال ابن كثير : روى بسنده عن عبد الله بن أبى الهزيل قال : ابن أبى الدنيا : أحضر بختنصر أسدين فألقاهما فى جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب ؛ فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال . فقال : يا رب ، أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه : أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلنى إليك ربك . قال : وقد ذكرنى ربى ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره . والحمد لله الذى يجيب من رجاه ، والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا (1) .

وقال أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخة بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا .

فقلت لأبى العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر =

(1) إسناده حسن : أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة [١٤٧] وفى الشكر [ص:٥٣] .

= قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ؛ وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم بروزا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .

قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تغير منه شئ ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع [1] .

وهذا إسناد صحيح إلى أبى العالية ، ولكن إن كان التاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة فليس بنبى بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبى بنص الحديث الذى فى البخارى [2] ، والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة ، وقيل : ستمائة . وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما فى نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم .

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبى العالية أن طول أنفه شبر ، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد .. والله تعالى أعلم . =

(١) إسناده ضعيف : فيه عنعنة ابن إسحاق ، وهو من المدلسين ، وباقى رجاله ثقات .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى » .

أخرجه البخارى [٣٤٤٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٦٥] .

....

= وروى أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب « أحكام القبور » : عن أبى الأشعث الأحمرى ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » . فلما افتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده [١] ، وقد كان رسول اللَّه ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشروه بالجنة » [٢] .

فكان الذى دل عليه رجل يقال له : حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إلى حرقوص ، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة .

وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظاً نظر .. واللَّه تعالى أعلم .

ثم قال ابن أبى الدنيا : حدثنا قاسم بن عبد اللَّه عن عنبسة بن سعيد - وكان عالماً قال وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجره فيها ودك [٣] ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه [٤] .

وروى ابن أبى الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجدوه ، وذكروا له أن دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء افترض منها فإن ردها =

(١) تضرب عروقه : أى تظهر عروقه ووريده ، وذلك كناية عن بقاء بدنه سليما معافا مع امتداد الزمن

(٢) إسناده مرسل .

(٣) ودك : أى دسم اللحم وهو الدهن والشحم . وقيل : السمن . وكلاهما ممكن مراد هنا .

(٤) إسناده معضل .

....

= وإلا مرض وإن عنده ربعه ، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه .

وروى عن أبى موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهراً وحفروا فى وسطه قبراً فدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبو موسى الأشعرى رضى اللّه تعالى عنه [1] .

وروى ابن أبى الدنيا : عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : رأيت فى يد ابن أبى بردة ابن أبى موسى الأشعرى خاتما نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا : إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه.

جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده . فقال الملك : واللّه لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتله ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه اللّه بذلك حتى بلغ ما بلغ ، قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتم ؛ لئلا ينسى نعمة اللّه عليه فى ذلك . إسناد حسن [2] .

قصص الأنبياء [٥٨٣ - ٥٨٦] .

---

(١) كلها مراسيل فلا حجة فيها .

(٢) إسناده لا بأس به .

نبى الله العزير عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

القرية هى تجمع جماعة من الناس يسكنون فى مكان محدود ونفهم أن الذى مر عليها ليس من سكانها وقيل إنها بيت المقدس .

وهذه القرية خالية من السكان ليس بها أحد ، فهذا شىء لافتا للنظر قال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فكأنه يسأل عن القرية وعن إماتة وإحياء الناس الذين سكنون القرية .

وكلمة ﴿ أَنَّىٰ ﴾ تأتى مرة بمعنى كيف ، ومرة بمعنى من أين ، ومعناها هنا : كيف يحيى الله هذه بعد موتها إنه مؤمن ولا يشك فى قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية .

مثلما نرى الأهرام ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل ، لكننا نتساء فقط : كيف بنوها ؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو روافع آلية ؟

إذن .. فنحن نتعجب فقط ، والتعجب فرع الإيمان بالحدث . والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث كأنه لا يشك فى أن الله يحيى ، ولكنه عاشق

ومشتاق لأن يعرف الكيفية ليعيش فى جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصنعة .

أراد اللَّه سبحانه أن تكون الإجابة تجربة معاشة فى ذات السائل لذلك قال سبحانه : ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كأن اللَّه كلمه كما كلم موسى أو سمع صوتًا أو ملكًا ، المهم أن هناك سؤالًا وجوابًا .. والسؤال هو : كم لبثت ؟

فأجاب العزير : لبثت يومًا أو بعض يوم .. وإجابته تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى ، ولأنه لم ير شيئًا قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير فلو كان قد حلق لحيته مثلًا وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو نام بشعر أسود وقام بعد ذلك بشعر أبيض ، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها لكنه لم يجد تغيرًا .

وكان جواب الحق له : ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾ إننا هنا أمام طرفين ، ويكاد الأمر أن يصبح لغزًا ، إن الحق سبحانه صادق ومنزه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ويوجد دليلًا على هذا ، ودليلًا على ذاك .. الدليل على صدق العبد أن طعامه وشرابه لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يومًا أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق عزير ، ثم إن الرجل كان معه حماره فقال له الحق : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ وهذا يدل على أن هنا شيئًا عجيبا وأراد اللَّه أن يبين له بنظره إلى الحمار دليلًا على صدق مرور مائة عام ووجد الرجل حماره وقد تحول عظامًا مبعثرة ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصير لأن موت الحمار أمر قد يحدث فى يوم لكن أن يَرِمّ جسمه ثم ينتهى إلى رماد فتلك قضية تريد زمانًا طويلًا لا يتسع له إلا مائة عام .. كأن النظر إلى الحمار هو دليل على

صدق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام الذى يتكون من « عصير وعنب وتين » دليل على صدق ﴿ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍۖ ﴾ .

إذن كيف طوى الزمن فى مسألة الطعام .. وكيف بسط الزمن فى مسألة الحمار ، إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابض الباسط فهو الذى يقبض الزمن فى حق شيء ويبسط الزمن فى حق شيء آخر ، والشيئان متعاصران معًا ولا يمكن هذا إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية وإنما هى التى تملك النواميس .

وقد أراد اللّٰه العظام وكيف ينشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحمًا ، أى أراه عملية الإحياء مشهديًا .

رأى عزير كل عظمة فى حماره وهى ترفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تركب مكانها ، وبعد تكوين الهيكل العظمى للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحمًا ، وبعد ذلك تأتى الحياة .

لقد وجد عزير إجابة فى نفسه ووجد إجابة فى الحمار ، ومن بعد ذلك تذكر قريته التى خرج منها وأراد العودة إليها فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام ، وكان فى تلك القرية مولاة لهم - أى أمة فى أسرته وكانت هذه الأمة قد عميت وأصبحت مقعدة ، فلما دخل وقال أنا العزير ، قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد .

قال أنا العزير . قالت : إن للعزير علامة هى أنه مجاب الدعوة - ولم تنس نفسها - فادع اللّٰه أن يرد علىّ بصرى وأن يخرجنى من قعودى هذا ، فدعا عزير اللّٰه فبرئت ، فلما برئت نظرت إليه فوجدته هو العزير ، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد . وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه فوجده رجلًا قد تجاوز مائة سنة وكان العزير لا يزال شابًا فى الخمسين من عمره ،

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزًا ، وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟ والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذى أماته اللّٰه وهو فى الخمسين من عمره ، ثم أحياه اللّٰه في عمره نفسه بعد مائة عام . والتقى العُزير حينئذ بابنه الذى كان وصل سن الخمسين .

قال الابن : كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه - شامة - فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة . وتثبت أهل القرية من صدق العزير فجاءوا بنسخة من التوراة وتلا العزير التوراة كما وجدت فى النسخة فصدق القوم أنه العزير وتعجب الناس وهم يشاهدون ابنا تخطى المائة وأبا فى سن الخمسي ، ولذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وحفظ العزير للتوراة له قصة ذلك أن اليهود بعد موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء وعاقبهم اللّٰه بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها ولكن طفلًا وهو العزير لم يعجبه مشهد قتل الأنبياء ، فخرج شاردًا فى الصحراء مهاجرًا وهاربًا فقابله شخص فى الطريق فسأله : لماذا أنت شارد ؟ فقال خرجت أطلب العلم وكان هذا الشخص جبريل عليه السلام فعلمه أن للّٰه توراة فحفظها فصار واحدًا من الذين حفظوا التوراة وهم : موسى ، وعيسى ، وعزير ، واليسع . أى صار واحدًا من أربعة ، ولأن الكتب قديمًا لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل ؛ لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمل بعير .

وحين رجع عزير حافظًا للتوراة اندهش قومه وقالوا لابد أنك ابن اللّٰه لأن اللّٰه أعطاك التوراة وكان منهم سلام بن مشكم وشاس بن قيس ومالك ابن الصيف ونعمان بن أوفى .

كأن اليهود حينما شاهدوه حافظًا للتوراة وبعد أن رجع لهم بعد غياب مائة عام قالوا هذا القول : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

هذا الإدعاء فيه مساس بجلال اللَّه تعالى لأن الإنسان يتخذ ولدًا لعدة أسباب ، إما لأنه يريد أن يبقى ذكره فى الدنيا بعد أن يرحل واللَّه سبحانه دائم الوجود ، وإما لكى يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف واللَّه سبحانه دائم القوة ، وإما ليرث عزوة له ، واللَّه جل جلاله عزيز دائمًا ، وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الإدعاء ، ولذلك يقول الحق سبحانه ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم ﴾ ، إشارة إلى القول بأن عزيز ابن اللَّه أو المسيح ابن اللَّه ﴿ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ وهل يوجد قول بغير أفواه ؟

نقول : هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعانى أى يستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى الأصل واللغة .

○ ○ ○

نبى الله داود عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

إن بداية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، زعيم جيش الكفار الذى هرب فطارده داود وقتله .

إن داود كان أخا لعشرة وهو أصغرهم – وقال النبى المرسل إليهم : إن الذى سوف يدخل المعركة ضد جالوت لابد أن يكون درع موسى عليه السلام على مقاسه ، استعرض والد داود الدرع على جميع أبنائه ، فلم يأت على مقاس أى واحد منهم ، إلا على أصغرهم وهو داود .

ودخل داود المعركة فقتل جالوت قائد المشركين ، وشاءت حكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين ، هو الذى يقتل كبير جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة ، وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، وأحب داود الدرع ، وصار أمله أن يعلمه الله صناعة الدروع ولذلك لم يتخذ صنعة فى حياته إلا عمل الدروع وجعل الله له الحديد لينا ليصنع منه ما يشاء . ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ : ١٠] .

الفضل هو الأمر الزائد ، لأن الله تعالى أعطاه أشياء لم يعطها لكثير من الرسل ، وأوبى أى رجعى أى هو يقول والجبال تردد خلفه ، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا فهم قولها ، وفهمت قوله فكأنه عرف لغة الجبال .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص : ١٨] .

يستغرب البعض أن يكون للجبال والطيور كلامًا وتفاهما ، مع أننا لم نقل إن للجبال أو الطيور كلامًا معك ، ولكن لها كلام مع من خلقها ، فما الذى حشرك أنت فى ذلك .

وبعض العلماء قالوا هذا تسبيح دلالة ، أى تدل على خالقها تقول لهم ما دام قلت إنه تسبيح دلالة تكون قد عرفته والله يقول : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

إذن .. هذا الكلام لا يصلح ، ولكن الأصح أن كل شيء يسبح بلغته الخاصة به ولذلك يقول سبحانه عن الطير .

﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور : ٤١] .

إذن المعجزة فى داود ليس فى أن الجبال تسبح مع تسبيحه لأن الجبال تسبح باستمرار لكن تسبيحها وافق تسبيح داود فسبحوا معًا كأنهم « كورس » واحد .

ولذلك لما قالوا : إن الحصى سبح فى يد رسول الله ﷺ ، نقول لهم عدلوا العبارة لأن الحصى يسبح فى يد أبى جهل ، لأنه مسبح بطبعه فهو يسبح فى أى يد - إذن ليست العظمة فى أن الحصى سبح فى يد الرسول ، ولكن العظمة فى أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده .

﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص : ١٩] أى مجتمعة لأن سيدنا داود كان صوته جميلا جدًا ، فساعة يغنى بمزاميره يأتى الطير من كل ناحية ، ويحشر نفسه ليسمع مزامير سيدنا داود ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٩] أى : يرددون

ويرجعون ما يقول ، أو أن معنى كل أى من داود ومن الجبال ومن الطير كلهم لله أوابون .

إذن .. عظمة داود أن الله أفهمه لغة الجبال والطير وتسبيحها ، وجعل تسبيحها يوافق تسبيحه ، والتسخير هو قهر المسخر على فعل لا يستطيع أن ينفك عنه ، فهو مقهور على هذا الشيء وليس مختارًا . ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

إذن .. فهو تسبيح بلغة خاصة ، ولكن جنس إشارات أو عبارات تتفاهم بها أنواع الأجناس مع بعضها .

فإن كنا لا نفهم هذه اللغة ، وتلك الإشارات ، فهذا ليس غريبًا ، لأنك أيضًا لا تفهم إن تكلم إنسان مثلك بألفاظ لها صوت ، ولكنك لا تعرف وضعها ومعناها فلا تفهمها .

فكذلك الأجناس الأخرى أنت لا تفهمها ، لأنك لا تعرفها والحق سبحانه أشار إلى ذلك على وجه العموم فى أجناس الكون كلها .

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور : ٤١] .

فكل شيء يعرف صلاته وتسبيحه ، كيف يصلى ؟ وكيف يسبح بلغته التى يفهمها ؟ وإذا شاء الله أن يفيض من بعض فيضه على بعض خلقه ؟ يفهم بعض الخلق لغة أدنى من لغته ولذلك قال سليمان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل : ١٦] .

والحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقهر من المخلوقات جميعًا إلى خالقها يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ ﴾ [الحج : ١٨] .

فكل مخلوقات اللّه من جماد ونبات وحيوان خاضعة ، وتسجد للّه بالإجماع دون أن يتخلف منها شيء .

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴾ أى : أن الحديد لان فى يده يشكله كيف يشاء .

يقول البعض آلان له الحديد ، أى علمه أن النار تذيب الحديد ، وهذا كلام غير منطقى مع ما أخبر اللّه تعالى به ليونة الحديد ، لا بد أنه أصبح فى يده مثل الشمع ، أو مثل الصلصال الذى يشكله تلاميذ المدارس وإلا لما كانت معجزة ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .

فتعليم اللّه لداود عليه السلام صنعة اللبوس إما بالوحى أو بالتجربة والخاطر .

هناك لباسا أو لبوسًا .

اللباس نعمله لنستر به عورتنا ، ونحفظ أنفسنا من الحر والبرد ، وفى حالة الحرب التى يتعرض فيها الإنسان للإصابة فى أجزاء قاتله من جسمه .

واللبوس أبلغ من اللباس لأن مهمته أبلغ لأنه يقى الإنسان البأس ويحفظ مواقع الخطر فى جسمه فى الحرب .

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ ... ۝ ﴾ [سبأ] .

السابغات هى عدة حرب ، لأنها الدروع التى تلبس على الصدر لتحافظ على حياة الإنسان ، لأنها منطقة حيوية للجسم .

وكانت الدروع قبل سيدنا داود تصنع من صفائح ملساء ، فإذا ضربها السيف شقها فقال له ربه : ﴿ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ ﴾ .

فعملها حلقات صغيرة وشبكها فى بعضها حتى تتمكن من صدّ الضربات والطعنات والدروع عادة تكون على الصدر ، لكن اللّٰه تعالى أمر داود أن يحتاط ويجعلها سابغة أى تغطى الصدر والبطن والظهر .

فكأن الحق سبحانه أول ما علم داود وسيلة الحرب وليس وسيلة السلم لماذا ؟ ليعلمنا أن نعد لمن ينقض كلمة اللّٰه ونهجه ما استطعنا من قوة .

ومعنى ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ أى أصنعها بتقدير دقيق والسرد هو النسيج فاجعل نسج الحديد فى الدرع على قدر الحاجة ، فلا توسعه ولا تضيقه ولكنه اجعله وسطًا .

وهذا الموضوع له قصة ، فسيدنا داود كان يأكل من بيت المال لأنه يتولى أمور الناس ، فأنزل اللّٰه ملكًا فى صورة رجل وجعل الناس تسأله كيف يعيش داود ؟

قال فيه خصال حميدة وليس فيه إلا أنه يأكل من بيت مال المؤمنين ، فلما بلغ ذلك داود حزن وبكى وقال يارب لماذا جعلت فى هذا الأمر فعلمه اللّٰه صناعة الدروع حتى يأكل من عمل يده ، فكان يصنع الدرع ويبيعها بأربعة آلاف ويعيش منه حتى يصنع غيره .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ [ص : ٢٠] . أى قويناه ولذلك هو وسيدنا سليمان جمعا بين الملك والنبوة ، ولذلك تجد المخالفين لهم غير ظاهرين ، لأن الملك يطمس أنف الظالم فلا يستطيع متمرد أو فاسق أن يواجه نبيا ملكًا وذلك لهيبة الملك إذن ، أو ما يشد الملك هو الهيبة فإذا أراد اللّٰه أن يضعف الملك أى يمنعه من الشدة يسقط الهيبة .

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٠] .

الحكمة وضع الشيء فى موضعه الطبيعى ، الذى تأتى منه الثمرة الموجودة من أقصر طريق .

﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ لا يكون إلا بين متجادلين هذا يأتى بحجة ، وهذا بحجة ، فهو يعطى الفصل بين الخطاب ، فينصف الحق ويبطل الباطل .

بينما داود عليه السلام بين يدى اللّٰه يصلى ويسبح ، فيدخل عليه جماعة ، فيفزع منهم مع أنه فى حضرة اللّٰه قالوا هذا لا يصح .

ولما فزع داود منهم طمأنوه وقالوا له : لا تخف وقولهم هذا دليل على أن الفزع تجاوز قلبه إلى قالبه ، وهذا القول يفهم منهم أنهم ليسوا من الرعية ، لأن الرعية لا تقول للملك لا تخف فكان عليه أن يتنبه لذلك .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة ص] .

هل تكلما فى نفس واحد أم رتبا كلامهما معا ؟ أم أن واحدًا تلك والآخر آمن على كلامه والمؤمن أحد الداعيين .

وكونهما متفقان وأيتا معا لسماع حكم داود فى مسألتهما دليل على أنهما غير طامعين فى بعضهما البعض ولكنهما حضرا لطلب الحق فقط .

وقولهما : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ [ص: ٢٢] . فيه جرأة شديدة كأنهما يعطيانه أوامرهما لأنهما جاءوا من الملأ الأعلى ومعنى تشطط أى تبعد .

فطلب داود منهما أن يعرضا القضية عليه فقال أحدهما :

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [ص : ٢٣] .

النعجة فى اللغة لها ثلاث إطلاقات هى : أنثى الضأن ، أو الشاة الجبلية ، أو البقرة الوحشية ؛ كلها تسمى نعجة .

أى هو عنده ٩٩ نعجة ، وأنا ليس عندى إلا واحدة ، ومع ذلك أراد أن يأخذها منى .

وعزنى فى الخطاب أى غلبنى فى الخطاب والمحاجة ، حيث قال له : أنا عندى مراع كثيرة وعندى رعاة يرعونها مع غنمى فاتركها تمرح وتسرح مع باقى الغنم ، ولا تتعب نفسك من أجل نعجة واحدة وبذلك غلبه فى الحجة والقاضى يحكم بالحجة .

والنبى ﷺ يقول : « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ممن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار »(١) .

إذن .. القاضى يحكم للحجة الأقوى .

هنا سيدنا داود سمع الدعوى من طرف واحد وأصدر حكمه قبل أن يسمع الطرف الآخر . قال : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ [ص : ٢٤] .

وهذه زلة الحاكم ولذلك قالوا إذا جاءك من فقئت عينه فلا تحكم له لأن الآخر ربما فقئت عيناه .

هنا داود فى حكمه نسب الظلم إلى أحدهما بقوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ فأدخل شيئًا فى حيثية الحكم وليس من حيثيته فهل لو لم يكن عنده (٩٩) نعجة أكان يحل له أن يأخذ منه نعجته ؟ لا يحل .

فقوله : ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ لا دخل لها بالقضية لأنه ظالم وإن لم يكن عنده ولا نعجة .

---

(١) أخرجه البخارى [٢٦٨٠] .

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٤] .

أى أن اللّٰه اختبره بهذا الامتحان ليرفع درجته ، فوقع فى ثلاثة أخطاء « مطبات » أولها : أنه فزع وهو فى حضرة اللّٰه من خلق يدخلون عليه وخاف أن يقتلوه .

ثانيهما : أنه حكم فى الحكم حيثية ليس لها مدخل فى الموضوع ، واللّٰه بذلك يعلمه القضاء الحق .

ومعنى فتناه أى اختبرناه كما تفتن أنت الذهب على النار لتخلصه من العناصر الخبيثة ، فلما فهم هذا لم يتأب فاستغفر ربه من كل ذلك .

وكلمة « خر » تتناقض مع كلمة « راكعًا » لأن الركوع نصف الانحناء كما نفعل فى ركوع الصلاة بينما كلمة « خر » معناها سقط سقوطا لا إراديا على الأرض فالمعنى هنا يفيد أنه خر ساجدًا حالة كونه راكعًا قبل أن يسجد فهو استغفر ربه وخر ساجدًا من ركوعه وأناب أى رجع إلى اللّٰه فغفر اللّٰه له ذلك . ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص : ٢٥] .

وما قيل فى هذه القصة عن حكاية داود عليه السلام حيث اتهموه اتهامات فظيعة منها أنهم قالوا عنه أنه رأى امرأة جميلة كانت زوجة قائد فى الجيش فأرسله فى حرب بعيدة حتى يخلو له الجو فهذه مصيبة فى العرض وهى أصعب من اتهامات المشركين لرسول اللّٰه ﷺ بأنه ساحر ومجنون .

وهذا شيء لم يحدث لرسول من قبل فكيف نقول هذا الكلام عن داود عليه السلام من غير دليل ولا سند لما نقول .

○○○

نبى اللّٰه سليمان عليه السلام

قال اللّٰه سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾ [ص : ٣٠] .

الوهب عطاء بلا مقابل ومع أن الخلفة كلها موهوبة من اللّٰه إلا أنه قد يهبه ذاتا لكن الصفات هبة أخرى من اللّٰه ، فكون سليمان يكون ملكا ويؤتيه اللّٰه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فيسخر له الجن ويسخر له الريح إلى غير ذلك فهذا كله هبة من اللّٰه .

﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أى رجاع إلى اللّٰه كثير التوبة ، والرجوع إليه سبحانه ، ويأتى القرآن بحيثية هذا الأمر فيقول : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١] . العرض معروف مثل العرض العسكرى حيث يقف القائد ويستعرض القوات مثلا والصافنات جمع صافن والصافن هو الجواد العريق .

ولعلكم تلاحظون ذلك فى الجياد العربية الأصيلة ، حيث تجد هذا الجواد لا يقف على أرجله الأربعة ، ولكن يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة على الحافر ، والجياد جمع جواد ، والجواد هو القوى السريع .

وهذا الاستعراض مثل العرض العسكرى الذى يحدث فى عصرنا هذا .

ولكن ماذا قال سليمان ؟ ﴿ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص : ٣٢] .

الخير هنا قالوا إنها الخيل لأن النبى ﷺ قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

ولذلك أمرنا الله بالاستعداد للكفار الكارهين لمنهج الله حيث قال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ورباط الخيل أى الخيل المربوطة للجهاد .

فسليمان لما عرضت عليه الخيل قال أنا أحب هذا الأمر فهو أحب الخيل لقوتها ومكانتها فى الحرب ، لا حبا صادرًا عن ذكر الله تعالى ومنهجه لأن قوة هذه الخيل تستطيع أن تفرض منهج الله فى الأرض .

﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ حين يأتى الفاعل مستورًا فلا بد له من مرجع فهنا الفعل ﴿ تَوَارَتْ ﴾ على أى شىء يدل؟

قالوا كلمة : ﴿ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ مشهورة فى الشمس حين تغيب أى أن عرض الخيل استمر حتى غابت الشمس فقالوا إن صلاة العشى فاتت سليمان لانشغاله باستعراض الخيل المسومة .

وقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ ﴾ أى أرجعوا الخيل لتمر من أمامى راجعة فى اتجاه الآخر .

وكلمة ﴿ فَطَفِقَ ﴾ معناها شرع .

﴿ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [ص : ٣٣] .

السوق على قوائم الفرس أى رجليه والأعناق جمع عنق وهى رقبة الفرس وعادة قوة الخيل تكون فى هاتين المكانين .

فسليمان سر من الخيل فأراد أن يكرمها بهذه العملية .

بعض الناس قالوا إن سليمان قتل الخيل وأخذ بذبحها لأنها ألهته عن عبادة الله وهذا غير منطقى لأن الخيل لا ذنب لها فى ذلك بل هو الذى ألهاها

وشغلها - فهذا كلام تشيعه الاسرائيليات والعجيب أن من الإسرائيليات أشياء كثيرة تقدح فى نبوة الأنبياء فى بنى إسرائيل ، فهم يقدحون فى أنبيائهم وطبعا هذا كذب وافتراء منهم على أنبياء اللّه .

وقد بحثنا فى أسباب ذلك فوجدنا أن الذى يسرف على نفسه وهو تابع لدين يريد أن يلتمس فيمن جاءه بهذا الدين شيئًا من النقيصة حتى يكون مبررًا لانحرافه هو .

قال العلماء أن سليمان لما ترك الخيل ابتغاء وجه اللّه عوضه اللّه خيرًا منها الريح غدوها شهر ورواحها شهر .

○ ○ ○

فتنة سليمان

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] .

الفتنة معناها الاختبار وهى غير مكروهة فى ذاتها ، ولكن السقوط فيها هو المكروه لأن من ينجح فيها فهو خير له .

فالحق سبحانه فتن سليمان كما فتن أباه فى قصة الذين تسوروا المحراب وهذه الفتنة كانت بالقاء جسد على كرسيه أى العرش الذى يجلس عليه ، والجسد هو قالب الكائن الحى ، لكن إذا قيل جسد فهو كما نقول جثة ليس فيه روح .

العلماء وقفوا فى هذه الآية ، فقالوا : إن داود كان عنده سليمان وولد آخر فاسد مثل ابن نوح الكافر فاحتال هذا الولد وعمل انقلابا على سليمان وأقصاه عن الملك وتولى هو الملك مدة طويلة ولما أراد اللّٰه أن ينيب سليمان جعل هذا الطاغية على كرسى عرشه جثة هامدة لا تتحرك .

فبعد أن كان يسيطر على ملكه لم يعد قادرا على السيطرة على نفسه ، وصار جسدًا وبعد ذلك خرجت عليه رعيته فقتلته وجاء سليمان مكانه .

هذه واحدة ، والشيء الثانى أن سليمان كان عنده جواريه فقال : أنا سأمر الليلة على سبعين جارية ، وأتى من كل جارية بولد فارس يركب فرسه فى سبيل اللّٰه ، فالمسألة كلها خير ولكنه لم يقل إن شاء اللّٰه .

فلم يلد أحد من الجوارى إلا واحدة ولدت جسدًا لا حركة فيه لأنه لم يقل إن شاء اللّٰه .

ولذلك يقول الحق سبحانه ليعلمنا تقديم المشيئة : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف] .

فسليمان لما لم يذكر المشيئة جازاه اللّه فلم تحمل إلا واحدة ووضعت جسدًا لا حياة فيه هذه الثانية .

أما الثالثة : فقالوا إن الجن الذين تميز سليمان بأن سخرهم اللّه له يعملون له ما يشاء ، لما أنجب سليمان ولدًا قال الجن إن هذا الولد إذا كبر سيفعل بنا ما يفعل أبوه فالأفضل لنا أن نقتله ، فلما علم سليمان خاف على الولد ووضعه فى السحاب يرضع من المزن بعيدا عن الجن ، فكأن سليمان أراد أن يفر من قدر اللّه . فبينما هو مشتغل بمهماته إذ أُلقى ذلك الولد ميتًا على كرسيه فتنبه على خطيئته فى أنه لم يتوكل فيه على اللّه فاستغفر ربه وأناب .

وقيل إن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان هو سليمان نفسه ، لأنه جلس على الكرسى يأمر وينهى فربما يغرى هذا نفسه بعض الشىء ، فأراد اللّه أن يصحح خواطره فى نفسه لأنه يريده لمهمة أعلى من التى هو فيها .

إن اللّه أراد أن يذكر سليمان بأن ما أعطاه له ليس ذاتيا ، ولكنه هبة من اللّه ويستطيع سبحانه أن يجعله لا يسيطر على نفسه هو ، ولا على غيره ويلقيه جسدًا بلا حراك ، فمرت عليه لحظة لا يستطيع أن يحرك جسده ولا يقدر أن يأمر أمرًا ، فعلم أنها ليست ذاتية فيه ولكنها موهوبة له .

ولذلك ركب سليمان البساط مرة وسار به الريح فشعر بشىء من الزهو فمال به البساط فكاد أن يقع من فوقه فقال له اعتدل يا بساط فقال له البساط « أمرنا أن نطيعك ما أطعت اللّه » .

فعرف ذلك فما نسيه بعد ، وعندما أناب قال يارب لقد فعلت بى ذلك لأننى ربما أغتررت بأننى ملك ورسول فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص : ٣٥] إنه يطلب ملكا لا ينبغى لأحد .

ولذلك روى البخارى عن النبى ﷺ قال : إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة - أى إن الشيطان عرض لى وأنا أصلى وأراد أن يشغلنى عن الصلاة - ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : ٣٦] .

هذه أول الأشياء التى لم تحدث من قبل .

فكأنه يصبح أمرا والريح مأمورة ففهمت عنه أمره .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : ١٢] .

قالوا أن الرياح لم تسخر كلها لسليمان ، ولكن سخر له ريح مخصوص أى جزء من الرياح وظفه الله عند سليمان - فكان تحت إمرته .

والغدو هو الذهاب أول النهار ، والرواح هو العودة آخره .

فكان غدو الريح شهرًا ورواحها شهرًا . ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ أى أعطاه الله الريح العاصفة تسير بأمره ، وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض التى بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق ، فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له فى مملكته .

وقد جمع له الحق سبحانه فى الريح بين ما يعطيه السرعة إلى مراده وبين ما يجعلها مريحة ناعمة هادئة لا تؤثر فى تكوينات جسمه .

لأن الريح العاصفة تعطى سرعة ، والريح اللينة تعطى راحة .

فتسخير الريح له يأمرها أن تهب فى الاتجاه الذى يريده ، فهى لا تهب على مرادات الطبيعة التى خلقها اللّٰه عليها ولكن تهب على مراده هو وبأمره هو .

وكما ألان اللّٰه لداود الحديد ، أسال لابنه سليمان عين القطر وهو النحاس فألان الحديد لداود وصهر النحاس لسليمان .

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ [سبأ : ١٢] القطر هو النحاس المنصهر المذاب .

﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [سبأ : ١٢] . فالجن يعملون معه بتسخير من اللّٰه لهم ، وليس من عند سليمان ، ومن يزغ منهم عن أمر اللّٰه يزيقه من عذاب جهنم فعملهم معه أمرهم به اللّٰه وسليمان يطلب منهم صنع ما يريد من الأشياء .

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ : ١٣] .

المحاريب جمع محراب وهو يطلق على المبنى الفخم الواسع الكبير كالقصر مثلا أو يطلق على مكان العبادة ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] . والتماثيل هو الصور المجسمة للأشياء .

وبعض العلماء يقولون إن هذه التماثيل كانت مباحة ثم حرمت بعد أن عبدها الناس ، ولكن نحن نقول إن هذا لم يكن فى عهد سليمان ، لأنه جاء بعد عهد إبراهيم عليه السلام الذى حطم الأصنام التى كان يعبدها قومه ، فهى محرمة منذ عهد إبراهيم وسليمان جاء بعد هذا العصر فكيف يمتن اللّٰه على سليمان بجعل الشياطين يصنعون له التماثيل المحرمة ؟

نقول إن التماثيل هنا قد تكون لغرض غير التعظيم والعبادة ولكن توضع فى موضع إهانة مثل تمثال واحد جبار منحن ويحمل البلكونة مثلا أو أسد على سور العمارة فهذا ليس تعظيما للتمثال ولكنه إهانة .

والجفان جمع جفنة هى التى نسميها القصعة ومعنى كالجواب أى كالحوض الواسع الكبير وهذا دليل على أنه كان يطعم اعدادًا كبيرة من الناس .

و ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾ هى القدور الضخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها لأنها قدور ضخمة تكفى لاطعام المئات من الناس .

وراسيات أى أنها ثابتة فى مكانها لضخامتها فلا توضع على النار ثم تحمل بعد ذلك ولكنها ثابتة لا تنقل من مكانها .

مثل قدر المطعم به عدى الذى كان يستظل به الناس فى اليوم القائظ فى مكة مما يدل على كبر حجمها . ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] .

الغوص هو النزول إلى أعماق البحر ، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه الموجودة فيه ... ويعملون أعمالا أخرى شاقة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها .

إن الناس دائمًا يخافون من الشياطين ، ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى الله هذه الشياطين بحيث أن الناس لا يرونهم ، وهم يعملون هذه الأعمال ولا يحسون بهم .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الجن المسخرين لسليمان ، كان هو وحده الذى يراهم ولا يراهم أحد غيره .

وأن المسخرون لسليمان ليسوا من المؤمنين إنما هم شياطين كفرة .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب ابن إحداهما فقالت هذه لصاحبتها إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال أئتونى بالسكين ، اشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى »(1) .

ولعل كلا من الحكمين كان سائغًا فى شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] . أى مادل الجن على موته .

إن من الأشياء التى سخرها الله لسليمان ليحقق له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، أن سخر له الريح وسخر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات .

وتسخير الجن معناه : أن الحق سبحانه سخر له أخف الخلق حركة وأخفاها وهم الجن لأن لهم طبيعة مخصوصة ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

ولهم خفة فى مزاولة الأعمال بأن يقصروا زمنها وأن يكثروا حملها وأراد الحق سبحانه فى مسألة موت سليمان أن يفضح الجن بأنهم لا يعلمون الغيب .

---

(١) أخرجه البخارى [٣٤٢٧] ، ومسلم [٢٠/١٧٢٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ تفيد هذه الآية أن الموت قضاء ، أى لا مندوحة عنه زمنا لا يترتب على مرض ولا على سبب ولذلك نقول : والموت من دون أسباب هو السبب – مات لأنه يموت ولذلك يخاطب الأحياء بما فيهم رسول الله ، فيقول له ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ أى انك تؤول إلى الموت وليس معناها إنك ميت الآن .. لا .. والذى يموت بالفعل لا يسمى ميتا – فنحن ونحن أحياء ميتون أى سنموت لكن عندما نريد أن نخبر بالموت حقيقة نقول ميتا وما الميت إلا ما إلى القبر يحمل إنما كلنا ميتون ولذلك عندما أرادوا أن يعطونا صورة حسية عن الموت قالوا – عندما جئت إلى الحياة انطلق معك سهم الموت وعمرك بقدر سفر ووصول السهم إليك متى سيصل ؟ لا نعرف فالموت سهم مرسل أرسل بالفعل وعمرك بقدر سفره إليك ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ وهو ما قضيناه من نهاية لكل حى : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ﴾ لم يعلم أحد بموته كيف ؟ لابد أنه كان فى حالة لا تقوم إلا من الأحياء لأنه كان من شكره لله وضراعته له يظل عابدًا لله ، وهو واقف ، والواقف كلما تعبت قدم أراحها بالثانية ، فإذا تعبت الاثنتان التمس ما يريحهما « المنسأة » أو العصا أتى بها واتكأ عليها .

حتى الجن لا يخافون إلا بأعينهم ، فعندما يرونه واقفا يعملون بنشاط جاء الموت وهم لا يزالون فى العمل والتعب ، ولأنهم يرونه واقفا لم يستطعوا الكف عن العمل ، فكيف انكشف الأمر . إن من طبيعة سليمان أنه يعبد الله واقفا .

ولكن الله أراد للمسألة أن تنتهى ليقضى بها على حقيقة شغلت الناس جميعا ، الجن والإنس .

لأن الجن عندما كانوا يتلصصون للسمع ، فيلتقطون بعض الكلمات كما أخبر البنى ﷺ : « إن الملائكة تنزل فى العنان – وهو السحاب – فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

أى يضيفون إلى الكلمة التى سمعوها كلمات أخرى ، ثم يقولونها للناس ليقولوا عنهم إنهم يعلمون الغيب .

ولذلك ظل سليمان ميتا وهم يعملون ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ دابة الأرض التى تأرض وهى – العتة – التى تأتى فى الخشب اسمها الأرضة والفعل منها أرض بأرض .

إذن .. فالأرضة هى التى أتت العصا من أسفلها ونخرتها ، والوقوع القسرى الذى لانظام له بقوله : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ ، وخرور الشىء لا نظام له فلما خر عرفت الجن والإنس بموت سليمان إذن الجن لم يمتازوا بشىء .

﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

هذه المدة الماضية عندما كان واقفا وهم يعملون ؛ ولذلك افتضح أمرهم أمام أنفسهم لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب فأدركوا أنهم كانوا لا يعلمون إلا أشياء قليلة كانوا يسترقونها سمعا ، ولأنه يطرأ عليهم ما يطرأ على كل حى من التعب بالعمل .

وكأن العمل الذى يقومون به عمل شاق وإهانة لهم ، لأنهم يظنون أن الجن تسامى على الإنس ، لقول أبيهم قديما : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦] .

وعندما يأتى واحد من الانس ويسخر الجن فهذا عذاب لهم ولنفرض أنه عمل غير مرهق بدنيا إنما يرهق نفسيا لأن الجنس الذى ادعى التسامى يخدم عند أحدهم .

كيف يكون من يخدم الرسول من عذاب مهين ؟ نقول إنك أخذت الشبهة هذه من قول الجن ، فظننت أن الجن كلهم كانوا مسخرين له ، لا إن آية أخرى شرحت ذلك ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ [ص : ٣٧] .

المسخرون له ليسوا المؤمنين إنما هم الشياطين .

ورغم جلالة قدر سليمان عند ربه إلا أنه قال سبحانه ﴿ خَرَّ ﴾ .

وكأنما قطعة من جماد وقعت ، حتى يقول سبحانه أنه الروح التى أنفخها فيك هى التى تجعلك حيا ، إنما حينما تسلب فأنت كالعصى أو الحجر .

لأنه من عظمة الروح فى النفس أنه بمجرد أن يأخذ اللّٰه سره فى هذه المادة ينسى اسم صاحبها هذا أول شيء فيسمى « الجثة » .

أين ذهب اسمه ؟ وبمجرد أن يضعوه فى النعش لا يقولون عليه جثة ، ويقولون الخشبة ثم يذهبون إلى مثواه الأخير .

لأن الحياة قد كرمها اللّٰه بالروح ثم سحبها منها ، فإن أردتم مادتكم فاحتفظوا بها ، ولن تحتفظوا بها ، وأحب الناس إليه وأعزهم هو الذى يسارع بدفنه لماذا ؟

لأنه يخشى أن تظهر له رائحة يشمها الناس ، فيتأذون منه ، فالحبيب يسارع باخفاء ودفن جثة حبيبه قبل أن تتعفن .

○○○

من نعم الله على سليمان عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] .

الله سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام العلم ، وهو منهج ا لدين ، وعلم سليمان منطق الطير وألان لداود الحديد ، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، ورغم كل هذه النعم لم يذكر الله إلا النعمة التى يجب أن يفرح بها المؤمن وهى العلم .

وانظروا إلى داود وسليمان حينما حمدا الله على فضله عليهما بالعلم حيث قالا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أى أن هناك من الناس من هو أفضل منا ، وهذا تواضع الأنبياء والعلماء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] .

ومعنى كلمة : ﴿ وَوَرِثَ ﴾ أى بقيت النبوة فيه بعد أبيه ، و ﴿ مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ هو لغة التفاهم بينها ؛ لأن لكل خلق من خلق الله لغة يتفاهم بها ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ ﴾ [الأنعام : ٣٨] والعلماء يعكفون فى العصر الحاضر على معرفة لغات الحيوانات ، مثل : لغة النمل ، والنحل ، والسمك ، فهذه الحيوانات تتفاهم فيما بينها تفاهماً غريزياً .

قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ ﴾ ؛ الأنبياء لا تورث ، ولكنه ورثه فى النبوة والدعوة إلى الله وتطبيق منهجه .

قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١] سليمان قد استفاد من تعليم الله لأبيه داود ، فأخذ هذه النعمة ، وزوده الله بنعم أخرى خاصة به ، فأعطى له الريح العاصفة تسير بأمره ، وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض - التى بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق - فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له فى مملكته .

وفى آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : ٣٦] .

هنا الريح ﴿ رُخَآءً ﴾ ولينة وهناك الريح ﴿ عَاصِفَةً ﴾ ، فالريح العاصفة تعطى سرعة ، والريح اللينة تعطى راحة ، فكأنها جمعت بين السرعة فى عاصفةً وبين اللين والنعومة فى رخاءً .

وهناك تسخير الشياطين أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] الغوص : هو النزول إلى أعماق البحر ، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر ؛ ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه الموجودة فيه ، ويعملون أعمالاً أخرى شاقة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها .

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] وهذه الآيه بينت قوله تعالى : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ ﴾ . فهذا العمل فى صناعة المحاريب والتماثيل والجفان - أى القصعة التى يأكل الناس فيها - وكلمة : ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ تدل على أن

هذه الجفان واسعة وكبيرة ، تتسع لإطعام عشرات الرجال ، و ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ هى القدر الضخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ ؛ لأن الناس يخافون من الشياطين ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى اللّه هذه الشياطين بحيث إن الناس لا يرونهم وهم يعملون هذه الأعمال ، ولا يحسون بهم .

وقد بين القرآن الكريم أن الجن المسخرين لسليمان ، كان وحده الذى يراهم ولا يراهم أحد غيره ، ولذلك لم يشعروا بموته وهو يجلس متكئاً على عصاه وظلوا يعملون بجد ظانين أنه يراقبهم فلما أكل السوس العصا ، وانكسرت وسقط سليمان على الأرض ؛ علمت الجن بموته ، وهذا يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٧] ، ما داموا حشروا فمعنى ذلك أنهم جمعوا من كل مكان ؛ لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء] ، والحشر فى الآخرة يجمع اللّه الخلائق من كل مكان فى الأرض إلى مكان الحشر .

لأن معنى الحشر هو : جمع الناس من أماكن متفرقة ؛ وسمى حشراً لأنك حين تجمع الناس فى مكان واحد سيضيق بهم المكان ، فيحشرون فيه حشراً .

ومعنى قوله : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أى يمنعون ، ويروى : إن اللّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن (1) . أى أن السلطان يمكنه أن يمنع الفساد بسلطته وقوته أكثر مما يمنعه الدعاة بخطبهم ومواعظهم ؛ لأنهم يستبطئون عذاب اللّه وعقابه لأنه آجل فى الآخرة ، ويخشون عقاب السلطان ؛ لأنه عاجل فى الدنيا ولذلك الأنبياء الملوك مثل داود وسليمان لم يعارضهم أحد ؛ لأن السلطان والقوة كانا فى أيديهم .

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ [النمل : ١٨] .

قول اللّه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ ؛ يدل على أنهم جاءوا لهذا الوادي من أعلى الجبل ، وهذا ما تفيده كلمة : ﴿ عَلَىٰ ﴾ وربما كان المعنى : أتوا على كذا ، مثلما تقول : فلان أتى على الطعام ، كلمة أتى معناها : انتهى منه وأكله كله ، وعلى ذلك يكون المعنى : أنهم أتوا على الوادى ، أى قطعوه كله ، وكلا التفسيرين جائز .

والمعنى إنه لما مر سليمان بالوادى سمع تحذير النملة لقومها بأن يدخلوا مساكنهم ؛ خشية أن يحطمهم سليمان وجنوده دون أن يشعروا بهم ، وهذا يفيد أن هناك نملة كانت موكلة بمراقبة حركة المرور من وإلى وادى النمل وهذه مهمتها ؛ لأن النمل أمة منظمة وكل فرد له مهمة .

---

(1) ذكر ابن الأثير فى النهاية [٥/١٨٠] بلفظ : « من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن » . أى : من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن واللّه تعالى .

وقول الله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [النمل : ١٩] : يدل على أنه سمعها ، فالنملة رأت قبل أن يوجد المرئى ، وسليمان سمع قبل أن يصل إلى وادى النمل ؛ سليمان عليه السلام تبسم ضاحكا ، أى بدأ بالبسمة التى قد تصل إلى الضحك ، وشعر بفضل الله الذي أنعم عليه هذه النعمة ، وقال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] ؛ أى يا رب امنعنى أن أنسى فضلك على ؛ حتى أظل شاكراً حامداً لك ؛ لأن هذا نعمة فوق ما أنعمت به على عامة الخلق ، ونعمة فوق ما أنعمت به على من سبقنى من الأنبياء ، وفوق ما أنعمت به على الملوك ، فهو أكثر من الملوك ؛ لأن الله أعطاه الملك مع النبوة ، وإن كان نبينا محمد رفض أن يكون ملكا .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ؛ فكأن الفضل والرحمة من الله هما اللذان يفرح بهما الإنسان ؛ لأنهما اللذان سيدخلانه فى عباد الله الصالحين ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضلٍ ورحمة » (١) .

وذلك قول الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، فإياك أن تغتر أو تفرح بعملك ولكن افرح بفضل الله ورحمته .

---

(١) أخرجه البخارى [٥٦٧٣] ، ومسلم [٧٥/٢٨١٦] واللفظ له . عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وقول سليمان عليه السلام : ﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ ساعة يستفهم واحد عن شئ جوابه عند نفسه لا يكون هذا استفهاماً ؛ لأنه يقول : ما لى لا أرى الهدهد ، كأن قد استبعد أولاً أن أحداً يتخلف عن مجلسه ، فهو استفهم أولاً ثم تيقن أنه غائب ، فقال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ .

وما دام كان من الغائبين ، لابد له من الجزاء ؛ لأن أى مخالفة لا تقابل بجزاء تثمر مخالفات متعددة ، فساعة ترى موظفاً خالف فى عمله ، وانحرف عن الحق ولم يحاسبه أحد ، ماذا يحدث ؟ كل زملائه سيحاولون الاقتداء به ، ويكون قدوة سيئة لغيره ، ويستشرى الفساد والانحراف ، لكن لو أن أول واحد خالف أخذ على يده يكون عبرة لغيره وتنتهى المسألة .

والهدهد لما كان غيابه بدون إذن من سليمان ، قال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ٢١] ؛ هذا ليس جبروتاً من سليمان ولكنه حزم ، ومع ذلك علق أمر العقوبة على حجة الهدهد ، مما يستخلص منه أن المرءوس إن رأى خيراً يخدم فكرة رئيسه ويخدم الفكر العام ، وكان الوقت ضيقاً لا ينتظر حتى يأخذ الإذن أو الأمر ، بل يتصرف ثم يخبر رئيسه بها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : ٢٢] ؛ مكث معناها : بقى أو انتظر ، ولكن الهدهد لم يغب طويلاً ؛ لأنه خاف من غيابه عن مجلس سليمان بدون علمه .

ومعنى : ﴿ فَقَالَ ﴾ أى أنه كلم سليمان قبل أن ينهره ، وقال له بكل ثقة : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ ؛ انظروا سليمان الذى كان عنده كل هذا الملك الذى لم يؤته أحد ، وحوله كل هذا الصولجان يقول له هدهد ضعيف : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ فكيف يجرؤ على أن يقول ذلك لسليمان النبى الملك ؟ ﴿ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ ﴾ : تعبير قرآنى جميل يسمونه فى اللغة الجناس ، والجناس أن تأتى بلفظين متشابهين فى المبنى ومختلفين فى المعنى ، مثل قول الشاعر :

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبى فى محبتها أسـير

ولكن هل قول الهدهد لسليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ ؛ هل هذا نقص فى سليمان لأنه لا يعرف ؟ لا ، بل هذا تكريم لسليمان ؛ لأن اللَّه سخر له ناساً يخدمونه فى كل ناحية ، وفرق بين أن تفعل أنت الشىء لذاتك ، وبين أن يُفعل لك . فمعنى أن يُفعل لك فهذه سيادة أخرى وتكريم كبير ، ولأجل أن يُعلمنا اللَّه سبحانه وتعالى أننا لا نكتم مواهب النابغين ونعطى لهم مجالاً أن يقولوا رأيهم ويأخذوا فرصتهم ويبرزوا مواهبهم لأن هذه خدمة لك أنت أيها الرئيس أو المسئول ؛ ولمصلحتك ، ولأن سليمان لم يسأل الهدهد عن سبأ ، فمعنى هذا أنها كانت معروفة أو سمعوا عنها ولكنه لا يعرف التفاصيل التى عرفها الهدهد .

ولكن ما هذا النبأ الخطير الذى عرفه الهدهد عن سبأ ؟

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٢] .

فكأن الهدهد يعرف قضية العقيدة وقضية الإيمان ، وأن الخلق لا يجب ولا يصح أن يعبدوا إلا اللَّه ! ولذلك يقول إنه وجدها وقومها يعبدون الشمس

من دون اللّٰه ، ولماذا لا يعبدون اللّٰه الذى يخرج الخبء فى الأرض ؟ كيف لا يعبدون المنعم عليهم بكل النعم .

والذى أحزن الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون اللّٰه ؛ ولذلك قال مستنكراً فعلهم : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

والهدهد خلال طيرانه فى قصر بلقيس رأى كوة أو طاقة تدخل منها الشمس ، مبنية بشكل هندسى بحيث تدخل منها الشمس كل يوم بعد شروقها ، فتتنبه بلقيس وتستقبلها بالسجود ؛ ولذلك حينما ذهب الهدهد بكتاب سليمان إليهم ، وقف فى الطاقة وسدها بجناحيه ، فانتظرت بلقيس دخول شعاع الشمس وارتفاعها ، فصعدت إلى الطاقة لترى ما بها فطار .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٨] هذا معناه أن سليمان فكر فى الأمر وقال : نكتب لها كتاباً ونرسله مع الهدهد ؛ حتى يتأكد من الرد ويعرف أبعاد الموقف .

ومعنى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أبعد عنهم قليلاً وانظر ماذا يفعلون ، لأنهم سيراجعون بعضهم البعض ؛ لأن معنى : ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ أى يراجع بعضهم بعضاً ؛ لأن اللّٰه تعالى يقول : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه : ٨٩] فالمعنى : ساعة تلقى إليهم الكتاب انظر ماذا يقول القوم ، وماذ ا تقول ملكتهم دون أن يروك وأخبرنى بذلك .

يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٩] الهدهد أخذ الكتاب وطار إلى سبأ ، وذهب إلى بلقيس ، وألقى إليها

الكتاب ، فلما قرأته قالت : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾[1] و ﴿ ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾ هم أعيان القوم وأشرفهم والمستشارون عند الملكة بلقيس ، ووصفت كتاب سليمان بأنه : ﴿ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ فهل كانت تسمع عن سليمان ؟ أو لأن الخطاب بهرها بخطه الجميل وورقة الراقى وختمه الغريب .

وبعد ذلك قالت : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل] .

وهذا يدل على أنها كانت تعرف حكاية سليمان وأنه ملك ونبى .. إلخ ، وانظروا إلى كتاب سليمان وإيجازه الشديد حيث يقول : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فنص الخطاب عبارة عن برقية موجزة . كلمة : ﴿ تَعْلُوا۟ ﴾ أى : تتغطرسون وتظنون أنفسكم ملوكاً ، وتزهون بما عندكم من ملك ولا تستجيبون لدعوتى ، فإياكم وهذا التعالى والتكبر ؛ مثلما نقول : « هى كلمة واحدة » . بلقيس حينما ألقى إليها الخطاب وقرأته ، جمعت الملأ وقالت لهم : لقد وصلنى كتاب من سليمان ونصه كذا وكذا ، وبعد ذلك طلبت مشورتهم وأن يشيروا عليها بما تفعل فقالت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل : ٣٢] .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل : ٣٣] .

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : قالت يا أيها املأ إنى ألقى إلى كتاب كريم : وفى صفتها الكتاب أنه كريم ، أربعة أوجه :

أحدهما : لأنه مختوم ، قاله السدى .

الثانى : لحسن ما فيه ، قاله قتادة

الثالث : لكرم صاحبه وأنه كان ملكاً ، حكاه ابن بحر . =

فقالوا لها : نحن جاهزون للحرب وعندنا القوة ، والبأس ، والعدد ، والعدة ، والجيش القوى ، والأمر إليك أن أردت السلم فقولى لنا ماذا تريدين ، ونحن ننفذ ما تأمرين به .

ولكن المرأة كانت عاقلة فلم تغتر بالقوة ، وحذرت قومها من دمار الحرب وآثارها ، فردت عليهم بقول اللّه تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] .

لأن الذى جاء ليأخذ الملك يريد أن يأخذ المالكين ، وينهب كل ما عندهم ؛ لأنه ساعة يصل إلى مكان القوم لا يضمن أن ينتصر عليهم ، فيخرب ما يستطيع تخريبه من ممتلكاتهم ، ولا يحافظ على شىء إلا بعد أن يضمن استقرار الأمور له .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ كلام صحيح ؛ لأنك إذا نظرت إلى أى حاكم يستولى على الحكم بعد حاكم آخر ، أو أى نظام يخلف نظاماً فى الحكم ، تجد الانتقام يكون من الحاكمين السابقين ، وإلصاق شتى التهم بهم من فساد وغيره ؛ لأن الحكم الجديد قام على أنقاضهم ، وبين النظامين لدد وخصومة [١] .

= **الرابـــع** : لتسخير الهدهد به بحمنه .

ويحتمل الخامس : لإلقائه عليها عالياً من نحو السماء .

(١) قال الطبرى : يقول تعالى ذكره : قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذ عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان إن أمرتهم بذلك : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ﴾ عنوة وغلبة ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ يقول : خربوها ﴿ وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ وذلك باستبعادهم الأحرار ، واسترقاقهم إياهم ، وتناهى الخبر منها عن الملوك فى هذا الموضع ، فقال اللّه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : وكما قالت صاحبة سبأ تفعل الملوك إذا دخلوا قرية عنوة . تفسير الطبرى [١٥٤/١٩] .

سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، كما ترك الملأ القرار الأخير للملكة ؛ لتفعل ما تراه مناسباً ، بدأ عقلها وفطنتها يعملان ، فقالت : إن كان ملكاً سيطمع فى خيرنا ، وإن كان نبياً فلن يأبه بهذا الخير ، فأنا سأرسل إليه بهدية .

هذه الهدية تناسب سليمان وبلقيس معاً ، فهو ملك وهى ملكة ، فلابد أن تكون الهدية ثمينة جداً ، حتى تأخذ بلب سليمان ، وحتى تثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى والترف ، فقالت لقومها : أنا سأرسل إليه بهدية ، فإن كان من أهل الملك والدنيا سيقبل الهدية ، فنعرف أنه يريد بعض الخراج والمال ، وإن رد الهدية فهو نبى لا يطمع فى شىء مما فى أيدينا ؛ قال تعالى على لسانها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٥] .

أى سنرى كيف يقابلهم وماذا سيقول لهم ؟ وهذا رأى جميل منها ، ودليل على حصافتها وذكائها ، مما جعل القوم يفوضونها فى تسيير أمور مملكتهم .

و ﴿ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ هم الذين أرسلتهم بالهدية إلى سليمان عليه السلام .

ثم قال لرسول بلقيس فى لهجة حاسمة : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل : ٣٧] .

كلامه هنا يكشف كلامها الذى قالته لقومها ؛ فهى قد قالت : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ ، فكأنه من منطلق النبوة يرد عليها وعلى كلامها بالحرف .

ومعنى : ﴿ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ القبل : هو المقابل ، أى لا يستطيع مقابلة هذا الأمر أو مواجهته ، أو أنهم أضعف من أن يواجهوا هذا الأمر .

ومعنى : ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أى يخرجهم من الملك أذلة لأنهم كانوا ملوكاً ، وسلب منهم الملك فصاروا أذلة ، والصغار يكون بالأسر أو القتل .

ثم التفت سليمان حوله وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] .

هذه أيضاً من إلهامات النبوة ، فكأن اللَّه أعلمه أن القوم بعد أن رد إليهم هديتهم ، سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه ، فكأنه قد علم أنهم سيأتون إليه ، فأراد أن يرسل من يذهب إلى سبأ ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه ، ولأن هذا الأمر صعب التحقيق ويتطلب قدرات خاصة ؛ لذلك لم يتكلم إنسان عادى ؛ لأن هذا ليس فى استطاعته ؛ لأن القوم فى طريقهم إلى سليمان .

ومطلوب من الذى يقوم بهذه المهمة أن يذهب إلى سبأ ، ويحمل العرش ، ويعود به إلى سليمان قبل أن يصل القوم إليه ، فهذه مهمة شاقة لا يقدر عليها إنسان عادى ، لذلك لم يتكلم الإنس العادى ؛ لأن هذه مسألة ليست فى قدرته ولم يتكلم الجن العادى ؛ لأنها أيضاً فوق قدرته .

إنما الذى تكلم عفريت من الجن ، قال العفريت : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : ٣٩] .

هنا القرآن لم يخبرنا أن أحداً آخر تكلم فى هذا الموضوع إلا بالوصف حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ [النمل : ٤٠] .

العلماء قالوا : من الذى عنده علم من الكتاب ؟

أولاً : ما هو الكتاب ؟ قالوا : هو اللوح المحفوظ يعلم الله فيه بعض خلقه أسرار الكون ، فإذا كان العفريت - وهو مكلف - يستطيع أن يأتى به إليه قبل أن يقوم من مجلسه ، فالذى عنده علم من الكتاب أسرع منه ؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن بدليل أنه قال : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ ، والطرف يرتد فى أقل من كلمة .

بعض العلماء قالوا : إن هذا الرجل هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أعطاه الله من أسرار قوته .

وآخرون قالوا : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، فكأن العفريت لما قال له : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ .

فهو إذن .. سليمان ، لماذا ؟ قالوا : لأنه لو كان هذا الرجل واحداً غير سليمان ، فمعنى هذا أن له تفوقاً فى معرفة الكتاب قبل سليمان .

ورد بعض العلماء على ذلك بقولهم : إن هذه عظمة لسليمان ؛ لأنه فوق من يعرف هذا العلم ، والمزايا لا تقتضى إلا فضيلة ؛ لأن هذا الرجل مع ما عنده من علم بأسرار الكون سخره الله لخدمة سليمان .

وليس بالضرورة أن يكون الرجل العظيم عارفاً بكل شيء ، فلا يمكن أن نطلب من الملك أن يكون ماهراً فى بعض ما يجيده الصبية فى الصناعات اليدوية مثلاً .

فمن عظمة سليمان أن الله سخر له كل هؤلاء .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ .

العرش جاء واستقر عند سليمان فأمر بنصبه وتجهيزه ؛ لأن بلقيس قادمة إليه فى الطريق ، وهو يريد أن يختبرها اختباراً عقلياً واختباراً إيمانياً ، فأمر بأن ينكروا عرشها ، فقال لهم : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٤١] .

هنا بلقيس أجابت إجابة دبلوماسية كما قلنا فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وقول سليمان : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ أى أتهتدى إلى جواب يجمع الأمرين فى المنكر - وهو عرشها - أو تهتدى إلى أن الذى صنع ذلك إنما يكون مؤيداً من الله بأسرار الكتاب ؛ فنقل العرش بهذه السرعة فتؤمن أم تكون من الذين لا يهتدون فلما قيل لها : أهكذا عرشك قالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾

وقول الله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ إن كان هذا الكلام تكلمه بلقيس [(١)] ، فمعناه أنها أوتيت العلم قبل هذه الحادثة ، وعلمت أنه نبى خاصة بعد أن رد الهدية الثمينة ، وقال لهم : بل أنتم بهديتكم تفرحون . إلى آخر هذه المواقف ، فكأنها تقول له : نحن عرفنا قبل هذه الحادثة أنك نبى وأسلمنا . أو أن الكلام كلام سليمان عليه السلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل : ٤٣] .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس ، أى أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان ، أى أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والقول الثانى أرجح من سائر الأقوال . فتح القدير [١٣٧/٤] .

أى أن سليمان بما صنع من أحداث صدها عما كانت تعبد من دون اللّٰه ؛ لأنها كانت من قوم كافرين .

وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

ومعنى الصرح إما أن يكون القصر المشيد وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملك ، وإما أن يكون مثل إيوان الأكاسرة مثلاً ، لما جاءت لتدخل الصرح وجدت أمامها ماء فيه سمك ، فظنت ذلك ماء يريد سليمان أن يغرقها فيه ، فرفعت ثيابها وكشفت عن ساقيها ، فمعنى ذلك أنها فهمت أن هذا ماء ؛ لأن سليمان قد بناه من زجاج مثل الكريستال ، ووضع تحته ماء وأسماكاً فهى ظنته ماء فشمرت ثوبها ؛ حتى لا يبتل فقال سليمان : ادخلى فهذا صرح ممهد من الزجاج ، فماذا كان ردها ؟ ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] . ظلمت نفسها فى ماذا ؟ الكفر أولاً .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ . كلمة تدل على أن هناك خصومة فى قضية الحرث .

وقصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان عليهما السلام ، أن رجلاً عنده زرع ورجل عنده غنم ، فراعى الغنم غفل عن غنمه فهربت إلى الزرع وأكلته . صاحب الزرع اشتكى لنبىاللّٰه داود ، وداود لأول وهلة قال لصاحب الغنم : أعط الغنم لصاحب الأرض وانصرف . فى هذا الوقت كان عمر سليمان

أحد عشر عاماً ، فلما خرج الراعى وصاحب الأرض من عند داود قال لهما : ماذا قضى أبى ؟ قالا له : قضى بأن يأخذ صاحب الأرض الغنم .

وتأويل ذلك : ربما وجد داود أن قيمة الزرع الذى أكلته الغنم ، يساوى قيمة الغنم ، فحكم هذا الحكم .

لما قص الرجلان قصتهما على سليمان لم يقل هذا ظلم أو جور ، ولكن قال : هناك حل أرفق .. فلما قال هذا الكلام وبلغ داود أرسل إليه ، وقال له : ما هو الأرفق الذى تراه فى هذه القضية ؟ قال له : نعطى الغنم لصاحب الزرع ، فيستفيد بلبنها وأصوافها ، ونترك صاحب الغنم يزرع الأرض حتى تثمر ، وتصبح كما كانت قبل اعتداء الغنم عليها ، وعندئذ يأخذ صاحب الغنم غنمه ، ويأخذ صاحب الأرض أرضه .

فربنا هو الذى أفهم حل هذه المسألة لسليمان ، وهذا ليس طعناً فى داود ؛ لأن اللّٰه آتى كل واحد منهما حكماً وعلما .

كأن اللّٰه سبحانه يريد أن يبين لنا كيف كانت قداسة كلمة السماء مع كل أهل الأرض وهذه القصة أخذت بها القوانين الوضعية ومحاكم الدرجة الأولى والثانية والاستئناف والنقض فإياك أن تفهم أن محكمة الاستئناف حين ترد حكم محكمة الدرجة الأولى أنها تطعن فيه ، لا ، ولكنها رأت القضية من جانب آخر غير الذى أخذت به المحكمة الأخرى .

إذن .. الاستئناف مأخوذ من قول اللّٰه سبحانه ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، وليس هناك طعن فى أحد ، فالذى عدل لداود ابنه سليمان ، ولا أحد يحب أن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه .

○ ○ ○

نبى الله زكريا ويحيى عليهما السلام (1)

زكريا هو الذى كفل مريم وقام على خدمتها ؛ وكأن الله تعالى اختاره لهذه المهمة ؛ لأن القوم حينما تسابقوا إلى كفالة مريم واستهموا على ذلك ، كان هذا الشرف من نصيب زكريا عليه السلام .

(1) هو نبى الله زكريا بن برخيا ، ويقال ابن دان ، ويقال : ابن لدن ، بن مسلم ابن صدوق ابن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة ، ينتهى نسبه إلى سليمان ابن داود عليهما السلام . هو أبو يحيى النبى سمى الله ، عليهما السلام ، وقد قيل غير ذلك فى نسبه .

انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر [٥/٣٨١] ، وقصص الأنبياء لابن كثير [٥٩٥] .

وهو الذى كفل مريم ابنة عمران أم نبى الله عيسى عليهما السلام ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير أوانها ، فعلم أن الرازق للشئ فى غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً ، وإن كان قد طعن فى السن ، وكانت امرأته عاقراً . فدعا ربه خفية ، فرزقه الولد ووهب له يحيى لم يكن له من قبل سميا ، فورثه فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل .

واختلفت الرواية : هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً ، على روايتين فقيل : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أن ، فأوحى الله إليه : لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها . فأما زكريا فمات موتاً . فالله أعلم . [قصص الأنبياء : ٦٠٣] .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » .

أخرجه مسلم [٢٣٧٩] .

وقال ابن كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى بسبب غلبه لهم فى القرعة كما تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] =

انظروا .. الناس كانت تتسابق فى الخير ، وكانوا يفهمون أن كفالة مريم شرف كبير ، فضربوا قرعة على هذا الأمر ، فجاءوا بالأقلام وألقوها فى البحر ، والقلم الذى يطفو هو الذى يكفل صاحبه مريم . وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] مما يدل على أنهم فهموا أن كفالة مريم شرف كبير يسعى إليه كل إنسان ، ولا يصح لأحد أن يناله دون اقتراع ، والقرعة هى وزن للمسائل حتى لا يغضب أحد .

وكان زكريا كلما دخل على مريم يجد عندها رزقا لم يأت به هو ؛ فيستغرب ، ويسألها : من أين أتاها هذا الرزق ؟ فتخبره أنه من عند الله وذلك قول الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا

= قالوا : وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفا به . ثم حملوها ووضعوها فى موضع ، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحدا منها وظهر قلم زكريا عليه السلام ، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر ، فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه الماء فهو الغالب ، ففعلوها فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب ، ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة . قصص الأنبياء [٦١٤] .

وقال القرطبى : كان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء فى القيظ ، وفاكهة القيظ فى الشتاء فقال : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ؟ فقالت : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ .

تفسير القرطبى [٤/٧١] .

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

وهذا يعلمنا أن الإنسان المسئول عن الإنفاق على أهل بيته إذا وجد شيئاً فى البيت لم يحضره هو ، عليه أن يسأل : من أين جاء هذا الشئ ؟ لأنه ربما يكون أتى من طريق غير شرعى ؛ لأنه هو المسئول عن أهل بيته ، والله سبحانه سائله عنهم وعليه أن يغض بصره عن هذه الأشياء ؛ لأنها مداخل الشر ، وهذا ما نسميه بقانون : « من أين لك هذا » . فهذا القانون لم يهتد الناس إليه إلا بعد أن شقوا وعانوا من المفسدين والمرتشين واللصوص وقد سبق الإسلام فيه الناس جميعاً .

فلما دخل زكريا ووجد الرزق المنوع عند مريم ، وقالت له عن مصدره : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

هنا تساءل زكريا : كيف فاتنى هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران : ٣٨] . ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وإنه الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، وأيقظت فيه القضية الإيمانية ، قال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، وكونه قال ذلك ، فمعنى هذا أن زكريا صدق مريم فى قولها بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر فى التصديق هو أنه لابد وقد رأى أن الأشياء التى توجد عند مريم ليست فى بيئته وليست فى زمانه ، إنها أشياء متعددة ، إنه يدخل عليها المحراب وكلما دخل وجد عندها رزقا .

إذن .. فكل عطاء من اللّه هو هبه والأسباب لا تعطى أحداً ما يريد ، إن زكريا يقول : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ . وساعة أن تقول : من لدنك ، فهو يعنى : هب لى من وراء أسبابك لماذا ؟ لأن الكل من اللّه ، ولكن هناك فرقاً بين عطاء اللّه بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاماً ليتعلم ، وهناك إنسان ينعم اللّه عليه بموهبة ما ، وساعة أن تسمع ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ فاعلم أنه قد انعزلت الأسباب .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم : ٢] ، وهذه الرحمة جاءت حين : ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ أى فى هذا الوقت الذى نادى فيه ربه هذا النداء الخفى ، إن النداء لون من الطلب ، ولكنه طلب مجرد الإقبال أن يقبل عليك والإقبال من أجل شيء ستتكلم فيه أنت بعد ، فإذا ناديت ربك أيصح أن هذا المعنى ؟ لا . إن النداء بالنسبة للّه تعالى المراد بها الدعاء ، وإياك أن تظن أن اللّه يحتاج إلى رفع الصوت لكى تسمعه ، ولذلك قال نداء خفيا لأن السر والجهر عند الحق سواء .

وزكريا فى ندائه الخفى للّه كان يطلب منه أن يعطيه ولدًا وعلل الطلب بأنه بلغ من الكبر عتيا وأن امرأته كانت عاقرًا فكأن الأسباب الموهوبة للخلق جميعًا معطلة عنده ، ولذلك فلا ملجأ إلا إلى اللّه ليخرق الناموس ويخرق القانون .

وهو يطلب الولد – بعد أن بلغ هذه السن وصارت امرأته عاقرًا – لعلة دينية .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم] .

إذن .. شفقة بالولد لأنه لم يأمن القوم الذين يأتون من بعده وهم مواليه من عمومته أو أبناء عمومته لأنهم كانوا أشرار فلا يأمنهم على حماية منهج الله من الإفساد فهو يريد ولدًا صالحًا يأمنه على حمل منهج الله من بعده .

وكلمة يرثنى يفهم منها الناس أنها وراثة المال ، ولكن الأنبياء لا يورثون ، فالنبى ﷺ يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] حتى تكون دعوته خالصة لوجه الله فلا يستفيد أبناءهم من بعدهم ولا حتى أقاربهم .

فالإرث هنا ليس المقصود به المال ولكنها وراثة الدين والعلم الذى كان فى آل يعقوب .

وحيثيات النداء : ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ ﴾ ، الوهن هو الضعف ، وكلمة : ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ ﴾ نحن نعرف أن لكل شىء من الأشياء قوامًا فى الصلابة والقوة ، إن كلمة ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ ﴾ معناها : ياربى لم يبق عندى إلا المخزن الأخير لاستبقاء الحياة ، وهذا أمر مدفون لأنه مغطى بالجلد ومتوارى تحت الثياب فجاء بأمر ظاهر وواضح فقال : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ومعناه أى أبيض شعر رأسه وشبهه باشتعال النار ، وهو دليل ثان على الضعف أى أنه فى منتهى الضعف ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ . أى لم أكن فيما مضى شقيا بدعائى لك لأنى مستجاب الدعوة عندك فكما أكرمتنى سابقًا ففى هذه المرة لا تخلف عادتك معى .

وزكريا جاء بأمر خاص به ونحن نعلم أن التكاثر فى الجنس البشرى ينشأ من رجل وامرأة ، فقال له يا رب العيب منى ومن زوجتى فأنا وهن العظم منى

---

(١) ذكره الحافظ فى الفتح [٩/١٢] وعزاه للنسائى ، والحميدى .

واشتعل الرأس شيبًا وزوجتى عاقر لا تلد ، سواء لا تلد من أول الأمر أو أنها صارت عاقرًا بسبب بلوغها سن اليأس . والقرآن الكريم تناول هذه القصة فى أكثر من موضع ، فمرة يقول عن زكريا ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ ومرة يقول : ﴿ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] وأى مرة يسند البلوغ لنفسه وأخرى يسنده للكبر ، ولذلك بعض من لا يفهمون أساليب القرآن يعترضون على هذا التنوع لأنهم لا يملكون الأسلوب العلمى .

هناك فرق بين الأسلوبين هو والكبر سيتلاقيان ، ولكن هذا التلاقى قد يكون بسبب منك باسرافك على نفسك فى طفولتك وشبابك حتى تضيع صحتك وبذلك تكون أنت الذى ذهبت للكبر ، هذه واحدة ، والمرة الأخرى يكون الإنسان يعيش عاديا وأخذ دورة حياته حتى جاءه الكبر مثل كل الناس ، وزكريا من هذا النوع الأخير .

ولذلك يقال من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته ، فزكريا من النوع الأخير لأنه لم يسرف على نفسه ، ولكنه شغلها بالطاعة والعبادة .

وقوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥] لماذا لم يقل أعطنى ؟ قالوا : لأن العطاء قد يكون عن مقابل لكن الهبة تكون بدون مقابل ، فهو طلب الولد هبة من اللّٰه لأن الأسباب معطلة عنده فإن أعطاه اللّٰه فهذه هبة منه سبحانه .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا .. لأن جبريل عليه السلام الذى ناداه ، ولماذا جاء

القول الحق هنا بأن الملائكة هى التى نادته ؟ لأن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات .

لقد نادته الملائكة وهو فى أروع لقاءاته مع ربه ، فحينما دعا ربه أخذ ما علمه الله للأنبياء قبله إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة .

وهو على هذه الحالة من الخشوع والحضور وإقامة الصلاة استجيب لطلبه . قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ [آل عمران : ٣٨] والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كان الله هو الذى يبشر فهو الذى يقدر ؛ لذلك المبشر به قادم لا محالة ، لقد قال له الله سأعطيك وزيادة على العطاء سماه الله بـ « يحيى » .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] ، وكلمة السمى اختلف العلماء فى معناها فقالوا لم نجعل له سميا أى نظيرًا ، ومثلًا وشبيهًا .

ولكن المعنى الأقرب هنا ، لم نجعل له من قبل سميا أى واحدًا على اسمه ، والناس يقولون فلان سمى فلان أى أن اسمه على اسمه ، يعنى اسم كل واحد منهما مثل اسم الآخر .

فهذا أول اسم وضعه الله لابن زكريا ولم يكن أحد قبل ذلك قد سمى بيحيى ، وفوق كل ذلك ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] ولننظر إلى دقة البلاغ فى قوله : ﴿ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا ﴾ هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله ، ودليل على أنه سيعمل الطاعات وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ؛ فهو عليه السلام أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام .

وقد وصفه الحق بقوله : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أى ممنوعاً من كل ما حرم عليه ، وهو نبى أى قدوة فى الاتباع .

لما دعا زكريا ، وتلقى البشارة بيحيى عندئذ قال زكريا ببشريته : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ، إن زكريا وهو الطالب تعجب من الاستجابة ؛ فيتساءل : كيف يكون ذلك ؟[1]

الحق سبحانه وتعالى يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائما تكون فى دائرات التلوين ، وليست فى دائرات التمكين ؛ وذلك ليعطى خلقه الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة فى أنه إذا حدث لهم ابتلاء ، فعليهم الرجوع إلى الله .

يقول زكريا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ ؛ إن بلوغ الكبر ليس نصاً فى أنه غير قادر على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة للرجال ليس أمراً يتحكم فيه تقدم العمر ، إن لم يكن عاقراً ، ولكن المرأة هى الطرف المهم فى ذلك ، فإن كانت عاقراً فذلك قمة العجز فى الأسباب .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ ؛ نحن نعرف قصة زكريا وكيف دعا ربه أن يهبه غلاماً بعد أن بلغ من الكبر

(1) قال القرطبى : فى معنى الاستفهام وجهان :

أحدهما : أنه سأل : هل يكون له الولد وهو وامرأته على حاليهما أو يردان إلى حال من يلد .

الثانى : سأل هل يرزق الولد من امرأته العاقر أو من غيرها .

وقيل : المعنى بأى منزلة أستوجب هذا وأنا وامرأتى على هذه الحال ؛ على وجه التواضع . تفسير القرطبى [٤/٧٩] .

عتيا ، فهو دعا ربه أن يمنحه مولوداً يرث النبوة ، فلما بشرته الملائكة أن اللّه سيهبه غلاماً اسمه يحيى ، تعجب من هذا الأمر واستغرب كيف يعطيه اللّه غلاماً ؟!

وهو الذى تقدم به العمر وامرأته ، لم يصدق البشرى من فرط سعادته ، فأراد أن يتأكد منها ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨] .

فأوحى إليه أن يطرح الأسباب التى عرفها ؛ لأن الذى يكلمه هو الخالق عز وجل ، الذى قال له : ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ ، ولكن من أين تعلم زكريا أن اللّه يعطى وإن عزت الأسباب ؟ عرف هذا لأنه كان موصولا باللّه عز وجل واستجاب اللّه سبحانه وتعالى دعاء زكريا ووهبه يحيى قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

فاللّه سبحانه وهب لزكريا غلاماً رغم تعطل الأسباب ، وفوق ذلك هو الذى سماه ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ ، إن للّه سرا فى هذه التسمية .

﴿ يَحْيَىٰ ﴾ شاء له اللّه أن يموت شهيداً ؛ حتى يظل حياً وكلمة : ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ : معناها أن المولود لم يجئ عن طريق القانون التكوينى للناس ، ولكن جاء هبة من اللّه رغم كبر والده وعقم أمه [1] .

---

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد اللّه بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى اللّه عنه ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى اللّه ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ؛ فإن اللّه عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ تفسير ابن كثير [٣/١٨٩] .

ومعنى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ ؛ أى جعلناها صالحة للإنجاب بعد أن كانت عاقراً .

ربنا سبحانه بين لنا بعد ذلك العلة من هذا العطاء الذى وهبه لزكريا رغم كبر سنه وعقم زوجته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ ولذلك فعلى المسلم الذى يبتلى بالعقم ويستنفذ الأسباب أن يكثر من فعل الخيرات ويدعو اللّٰه سبحانه ويلح عليه فى الدعاء .

ومعنى : ﴿ خَٰشِعِينَ ﴾ أى راضين بقدرهم فى وجود العقم ، ولا يرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به ، فإذا كنت عقيماً فلا تبخل بمالك وتضن على المحتاجين ، وانظر إلى أولاد الناس على أنهم أولادك ، وانزع من نفسك الحقد والكراهية التى قد يسببها لك عدم الإنجاب ، وسارع فى الخيرات ، وادع اللّٰه سبحانه أن يعطيك من فضله ؛ لأنه هو سبحانه ولى ذلك والقادر عليه ، وبعد ذلك اخشع للّٰه ، ومعنى الخشوع : هو الاطمئنان لمقادير الخالق فى الخلق ، فترضى بقدر اللّٰه فيك بأنك عقيم ، وبعد هذا الرضا تدعوه أن يهبك من فضله ذرية صالحة مع رضائك التام وتسليمك بقدر اللّٰه ، مع يقينك الكامل فى قدرته على كل شئ ، وحكمته البالغة فى كل ما كتبه على الناس من أقدار .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٤١] ؛ إن زكريا يطلب علامة على أن القول انتقل إلى

= قيل : إنما سماه يحيى ؛ لأن اللّٰه تعالى أحياه بالإيمان ، وسماه بهذا الاسم قبل مولده .

تفسير الماوردى [١/٣٩٠] ، وانظر تفسير ابن كثير [١/٣٤١] ، وغيرهم .

فعل ، لماذا يطلب علامة إذا كان اللّه قد : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٩] .

لقد كان هذا القول تأكيداً لا شك فيه ، فبمجرد أن قال الرب انتهى الأمر ، فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب : ﴿ ءَايَةً ﴾ أى علامة على أن : ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ قد تم إيجاده فى رحم أمه ، فكانت استغاثة زكريا : يا رب لا تتركنى أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ؛ لأننى أريد أن أعيش فى إطار الشكر لك عليه ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر ، إنه يطلب ﴿ ءَايَةً ﴾ ليعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب ﴿ ءَايَةً ﴾ عن شك فى قدرة اللّه ، معاذ اللّه ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها .

○○○

نبى الله عيسى عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] .

نحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام هو : « أبو الأنبياء » ومن آل إبراهيم ، اصطفاه الله تعالى من ضمن ما اصطفى آل عمران ، وكلمة « عمران » ترد فى القرآن اسم لشخصين :

الأول : « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام .

والثانى : « عمران » والد السيدة مريم عليها السلام .

« عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام كان اسم أبيه « يصهر » واسم جده « قاهت » ومن بعده « لاوى » ومن بعده « يعقوب » ومن بعده « إسحاق » ومن بعده « إبراهيم » .

وقد حصل إشكال عند عدد من الدارسين وهو أى العمرانين ذكره الله تعالى هنا ؟

ولما اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد أعطى الهوية والمعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون ، بل عمران والد مريم أم عيسى عليهم السلام(1) .

---

(1) قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام . قصص الأنبياء [٦١٠-٦١١] .

وعمران والد مريم هو بن ماثان وهو من نسل سليمان ، وسليمان ابن داود ، وداود من إيشا ، وإيشا من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحاق ، هو ابن أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، لذلك كان على المختلفين أن يفطنوا إلى اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك فيعلموا أنه عمران والد مريم .

ويجب أن نفطن أيضًا إل الذى كفلها كان اسم والده « دان » ويقال « لدن » وكان معاصرًا « لماثان » .

إذن .. يكون المراد بعمران والد مريم والذى زاد من حيرة المختلفين هو وجود أخت لموسى وهارون كان اسمها مريم لأنهم كانوا فى هذا الزمن يتفاءلون باسم مريم لأن معناه العبادة ، ولذلك لما بعث النبى ﷺ المغيرة بن شعبة إلى نجران فقالوا له ألستم تقرءون وتقولون : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ [مريم : ٢٨] ، وقد كان بين موسى وعيسى مدة تبلغ أحد عشر جيلًا ؟ فكيف يتأتى هذا ؟ فلم يدر ما يجيبهم به فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره فقال له النبى ﷺ : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم »(١) .

أى : أنهم كانوا يتفاءلون بأسماء الأنبياء ، فالمسألة تشابه فى الأسماء فقط إنها بنت عمران ، ولكنه ليس عمران أبا موسى .. وأخت هارون ، وليس هارون أخا موسى عليهما السلام .

وعندما نقول : اصطفيت كذا على كذا فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن يصطفى واحدًا على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بقوله : ﴿ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] ، أى : على عالمى زمانهم إنهم كانوا موجودين

(١) أخرجه مسلم [٢١٣٥] ، والترمذى [٣١٥٥] ، وأحمد فى المسند [٢٥٢/٤] عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه .

وقد اصطفى منهم واحدًا أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ، إننا نتكلم عن عالمهم الموجود فى زمانهم .

وقوله : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ يجب أن نعلم هل المقصود بذلك الأنساب أم الدين والقيم ؟ خاصة أن الحق سبحانه قد علمنا فى مسألة إبراهيم أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ ، فأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] . لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى والمتبع والأسوة ، إذن .. فالمسألة ليست وراثة الدم .

إذن .. فنحن نفهم قول الحق سبحانه : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ على أنها ذرية فى توارثها للقيم ، مصداق ذلك فى قوله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

أى : إن هذا النفاق ليس أمرًا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها أمور قيمية ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : إن الله يعلم الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا ويجازى عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

وكلمة : ﴿ نَذَرْتُ ﴾ إن امرأة عمران كانت تقية وورعة ، ولكنها ليست مجبرة على النذر ، وفعلت ذلك – وهو أمر زائد – من أجل خدمة بيت الله ،

وما دامت امرأة عمران قد نذرت ما فى بطنها محررًا ، فهذا يدل على حبها لربها جل وعلا ، لأن النذر كما نعلم يظهر حب العبد لربه ولأوامره ، فإنك لو لم تحب ربك لما زدت فوق ما كلفك من جنس ما كلفك ، والمقصود بقوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾ القبول هو أخذ الشيء برضا لأنك قد تأخذ بكره أو تأخذ على مضض أما ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾ فذلك يعنى أن الأخذ بقبول ورضا ، واستجاب اللّه لهذا الدعاء ، قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ : الحسن هنا هو زيادة فى الرضا لأن كلمة : ﴿ بِقَبُولٍ ﴾ تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة ﴿ حَسَنٍ ﴾ توضح أن هناك زيادة فى الرضا ، وذلك مما يدل أن اللّه قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا وبشيء حسن .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ هذا القول من امرأة عمران ، لأنها كانت قد قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ لخدمة البيت ، وقولها : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ ، تعنى أنها أرادت ذكرًا لخدمة البيت ، فلما جاء المولود : ﴿ أُنثَىٰ ﴾ ففهمت أن ذلك لا يؤدى إلى الغرض المطلوب الذى أرادته ، وهو خدمة البيت فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ ، ولكن الحق يقول بعد ذلك : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ إن هذا القول يعنى أنها لا تعترض على قدر اللّه ، ولكنها تريد أن تظهر التحصر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق .

الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ فهل هذا كلامها أم من كلام اللّه تعالى ؟ إما أنه كلام اللّه تعالى ، فكأنها لما قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أى أنها قالت : يا رب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

وقالت امرأة عمران : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة أن تكون فى الخدمة لبيت اللّه تعالى ، لأنها جاءت أنثى ، تمنت امرأة عمران وتفاءلت أن تكون المولودة طائعة عابدة ، فسمتها مريم لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة ، فما فات المولودة فى خدمة البيت ، فليكن فى خدمة عقائدها وخدمة منهجها فى ذاته وأول ما يقدم العبودية هو الشيطان فإنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية ، إن الإنسان يريد أن يصير عابدًا فيجىء الشيطان ليزين له المعصية لأجل ذلك أرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزعات الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزعات الشيطان وقد تمنت لمريم أن تكون عابدة ، لقد كانت امرأة عمران تمتلك عقلية إيمانية حاضرة تحمل المنهج التعبدى كله فقالت : ﴿ ... وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ... ۝٣٧ ﴾(1) [آل عمران] .

فلما نذرتها أمها للخدمة ببيت المقدس ، شاء الحق سبحانه وتعالى بعد أن كانت تفرغ للبيت المقدس مكانًا ، أفرغت نفسها لخدمة البيت المقدس قيما ، فتفرغت للقيم الدينية التى أنشىء من أجلها البيت المقدس ، حتى إنها هجرت أهلها وذهبت إلى مكان بعيد تخلو فيه بعيدًا عن الناس ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم : ١٦] .

---

(١) أخرج البخارى [٣٤٣١] ، وأحمد فى المسند [٢٧٤/٢] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة واقرءوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ٱنتَبَذَتۡ ﴾ أى : ابتعدت ، نبذت نفسها عن الناس وعن أهلها ، والإنسان يأنس بأهله ، ولكنها ابتعدت عن أهلها ، واتخذت من دونهم حجابًا أيضًا ، ولكن بعدها هذا لا يمنع أن يمر عليها أحد فى هذا المكان ، أى أرادت أن تعزل نفسها عن دنيا الناس وعن أنسابهم ، لأنها اكتفت بأنسها بالحق سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ أى شرقى بيتها ، أو شرقى البيت المقدس ، واختارت جهة المشرق ، لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس .

إذن .. كانوا يتفاءلون بالنور حين يأتى من المشرق ، لذا اتخذت مريم مكانها ناحية المشرق .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا ﴾ [مريم : ١٧] الحجاب هو ما يجعله الإنسان حاجبًا له من غيره ، وحاجبًا لغيره عنه ، والحجاب مرة يكون مفردًا فهو ساتر فقط ، ومرة يكون مركبًا ، مثل الستائر التى نراها على النوافذ، مرة تكون الستارة مفردة ، ومرة تكون مكونة من طبقتين حتى تحجب الضوء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابًا مَّسۡتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] .

قال تعالى : ﴿ حِجَابًا مَّسۡتُورًا ﴾ مع أن الحجاب يكون ساترا ، ولكنه هنا مستور بحجاب آخر ، وقلنا مثلها الظل الظليل لأن الظل يحجب عنك الشمس ، ولكن لكى يحجب الظل عنك الشمس بأشعتها وحرارتها ، فلابد أن يكون مركبا ، أى أن الظل الذى يحجب عنك الشمس مظلل أيضًا فهو ظل ظليل ، أى : ظل مظلل .

يقول تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

إذن .. فرعاية زكريا لها بأمر من الله ، والدليل على ذلك أنك ساعة تجد قرعة أو سهامًا فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله ، فعندما نختلف على شيء ، فإننا نجرى قرعة ويخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج ، ذلك لنمنع هوى البشر وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم .

وقول زكريا عليه السلام لمريم : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ ﴾ يوجب على كل إنسان وكله الله تعالى على جماعة ، ورأى عندهم ما هو فوق حدود الدخل ، فلابد أن يسأل : من أين هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت إنما يأتى من عدم الاهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟ إن الذى يدخل بيته ويجد ابنته قد اشترت شيئًا ما مثل فستان مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة ، أو يجد ابنه قد اشترى شيئًا ما ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه ، أو وجد فى بيته شيئًا لم يحضره ، هنا يجب أن يتوقف الأب أو الولى ليسأل : من أين لكم هذا ؟ إن فى ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الانهيار والتحلل ، فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالته من أين لك هذا ؟ لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر .

وقول زكريا عليه السلام : من أين لك هذا ، هو سؤال عن مصدر هذا الرزق فلننظر إلى إجابتها : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴾ ، هذه المسألة أثارت فى نفس زكريا نوازع شتى ، إنها مسألة غير عادية لقد أخبرته مريم أن الرازق الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله القادر على أن يقول : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(1) [آل عمران : ٤٢] . ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

حين يوجد لفظ مفرد ولكنه خبر عن اثنين فلابد أن يعم الخبر الطرفين ، فقول الله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ يفيد أن الآية ليست من واحد منهما ، ولكنهما من مجموع الاثنين معًا ، لأن الآية هنا أن عيسى عليه السلام ولد من غير أب ، ومريم أنجبت ولم يمسسها بشر لا بزواج ولا زنا ، فالمسألة متعلقة بكل منهما ، فالآية لا تكون فى واحد منهما دون الآخر .

---

(1) أخرج البخارى [٣٨١٥] ، ومسلم [٢٤٣] واللفظ له . عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » .

وأخرج البخارى [٣٧٦٩] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٤] . عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة محمد ، وآسية امرأة فرعون » .

أخرجه أحمد فى المسند [١٣٥/٣] ، والترمذى [٣٨٧٨] وقال : حديث صحيح ، صححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٠٥٣] ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه [٧٠٠٢] وقال الأرناؤوط صحيح .

ونظرًا لأن الآية متعلقة بهما على حد سواء تجد الحق سبحانه مرة يذكر ابن مريم أولًا ، فيقول تعالى كما فى الآية : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ .

وفى آية أخرى يذكر مريم أولًا حيث يقول سبحانه : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فالاثنان سواء فى خبرية الآية وليس لأحد منهما تميز على الآخر ، وهذا يدل على أنهما شريكان فى الآية ؛ أى : المعجزة ، فلا يمكن أن تتحقق الآية بواحد منهما .

فالآية فى مريم أنها ولدت بدون رجل ، وما دام حدث منها هذا لابد أن تتعرض للمطاردة والاضطهاد ، كما تخجل هى من نفسها ، لأن هذه طبيعة فى الأنثى ، فإذا كانت بنت شعيب ذهبت إلى موسى وهى تمشى على استحياء فما بالك بمريم حين تأتى قومها وهى تحمل وليدها على كتفها دون أن يكون لها رجل !!

وقد حفظ الله مريم وابنها من كل سوء حتى أن خطيبها يوسف النجار الذى كان يجب أن يغار ويغضب لما حدث ، أنزل الله على قلبه السكينة والقبول ، وظل فى خدمتها ورعايتها ، لأن الله يحول بين المرء وقلبه [1] ، فقلبه كان يجب أن يتغير من ناحيتها ، لأن هذه طبائع البشر ، ولكن الله أنزل هذا الأمر عليه بردًا وسلامًا ، فلم يفعل شيئًا إلا أنه سألها سؤالًا واحدًا فقال لها : يا مريم أريد منك أن تقولى لى : هل رأيت فى حياتك شجرة تنبت بدون بذرة ؟ فضحكت وقالت له : الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .
أويناهما : من الإيواء ، ومعناها أن إنسانًا اضطرته الظروف واحتاج إلى مكان يعيش فيه فدبر مكانًا آوى إليه .. ومريم فى هذه الحالة مضطرة ومضطهدة ، وكل الناس ينظرون إليها نظرات الاستغراب والشك ، فلابد أن يهيىء اللّه لها مكانًا تأوى إليه . وهذا المكان لابد أن تكون فيه مقومات الحياة .

قوله تعالى : ﴿ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴾ أى : استقرار ، لأن مقومات الحياة فيها موجودة لا تنقطع .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَعِينٖ ﴾ أى : ماء معين يرى بالعين .

يقول تعالى : ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥] .

كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم : هى قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وفيها عرفت طلاقة قدرة اللّه سبحانه تعالى .

والمرحلة الثانية : فى معرفتها بحكاية زكريا ويحيى عليهما السلام ، وتأكيد الحق سبحانه أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وكان ذلك إيناسًا لها .

ثم تدخل مريم إلى مرحلة جديدة ، وهى قول الحق تعالى : ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ ، والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل واحد : ماذا يقصد الحق بقوله : ﴿ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ ؟

والإجابة هى أن الحق سبحانه علمنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

إذن .. فكلمة : ﴿ كُن ﴾ جاءت لتدل على أن الحق يأمر بإظهار الأمر الذى أراده سبحانه ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق سبحانه لمريم بكلمة منه ويقول الحق سبحانه : ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

قوله : ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ هو اللقب ، و ﴿ عِيسَى ﴾ هو الاسم ، و ﴿ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ هو الكنية .

وقوله تعالى : ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ كلمة وجيه ، والوجيه هو : ذو الجاه والشرف وقيل الكريم على من يسأله فلا يرد لكرم وجهه فالإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرمة ، كما يخجل أن يرفض طلبه ، ولذلك نجد السائل دائمًا يسأل بوجه اللّه تعالى ، فيقول : أعطنى لوجه اللّه تعالى .

وكانت وجاهة عيسى عليه السلام فى الدنيا بنبوته وما أنزله اللّه عليه ، وما أعطاه من آيات ومعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .

وإذا كانت تلك وجاهة عيسى فى الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجاهته فى الآخرة ووصفه بأنه من المقربين ؟!

الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن فتنة بعض الناس فى عيسى عليه السلام واعتقادهم فيه وفى أمه الطاهرة البتول أنهما إلهان من دون اللّه تعالى ، فإن هذا الاعتقاد الباطل والقول الزور لا يؤثر فى مكانة عيسى عليه السلام عند ربه وخالقه ، فإن للمغالى جزاءه ، والمغالى فيه تنجيه رحمة العزيز الغفار .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .
و ﴿ ٱلْمَهْدِ ﴾ ما أعد كفراش للوليد أى أنه يتحدث وهو طفل ، و ﴿ وَكَهْلًا ﴾ أى : فى حالة تقدم العمر به .

ولقد أورد الحق سبحانه ﴿ ٱلْمَهْدِ ﴾ و ﴿ وَكَهْلًا ﴾ رمزين لشيء : هو أن عيسى بن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون فى مهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلًا ، وما دام فى عالم الأغيار فلا يجب أن تفتتنوا فيه ، وعلى ذلك لا يصح أن تقولوا : إنه إله أو ابن إله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

اللّٰه تعالى اصطفى مريم من بين نساء العالمين ، لتلد بدون أن يقربها بشر ، فهذا نوع من الاصطفاء ، فاللّٰه سبحانه كما اصطفى الأنبياء من بين خلقه ، اصطفى مريم من بين نساء العالمين .

ومعنى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ : أن هذه المسألة لم تتم بقانون التكاثر العادى ، ولكن الحق سبحانه أراد أن يخبرنا أنها النفخة التى نفخها فى آدم عليه السلام فجاءت بروح واحدة .

معنى : ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾[1] أى : عفت نفسها ولم تمكن منها بشرًا .

---

(١) وقيل : المعنى : وجعلناها آية ، وابنها آية . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها .

تفسير القاسمى [١١/٤٣٠٥،٤٣٠٦] .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : كتب قيصر إلى معاوية : سلام عليك . أما بعد .. فأنبئنى بأكرم عباد اللّٰه عليه ، وأكرم إمائه عليه ؟

فكتب إليه : أما بعد .. كتبت إلى تسألنى ، فقلت :

أما أكرم عباده عليه فآدم ، خلقه بيده ، وعلمه الأسماء كلها . =

ومعنى : ﴿ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أى : شيئًا عجيبًا جاء على غير مألوف الناس وعاداتهم ، وهى أن مريم تلد بدون أن يمسها بشر فيولد عيسى عليه السلام بلا أب .

اعتقد كثير من الناس أن مريم هى ابنة عمران ، وأخت هارون كما وصفها القرآن ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧] تعنى أن هذه ليست صورته وليست حقيقته ، ولكن حقيقته شيء مختلف من نورانية وشفافية ، وغير ذلك من الأجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وحقائق أخرى ، ولكنه لم يظهر لها على حقيقته وتمثل لها فى صورة بشر لأنه لا يمكن أن يلتقى الملك بملكيته مع البشر ببشريته(١) .

إذن .. تمثل جبريل لمريم فى صورة بشر من جنسها ، لأنها لم تكن لتطيق النظر فيه وهو فى صورته الحقيقية .

= وأما أكرم إمائه عليه فمريم بنت عمران ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ .

تفسير ابن أبى حاتم [١٣٧٢٠] .

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أى : على صورة إنسان تام كامل . قال مجاهد والضحاك وقتادة ، وابن جريج ، ووهب بن منبه ، والسدى فى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ يعنى : جبريل عليه السلام . وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن ، فإنه تعالى قد قال فى الآية الأخرى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء] . تفسير ابن كثير [٣/١١٢] .

وقال القرطبى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أى : تمثل الملك لها ، ﴿ بَشَرًا ﴾ تفسيرا أو حالًا ، ﴿ سَوِيًّا ﴾ أى : مستوى الخلقة ، لأنها لم تكن لتطيق أو لتنظر إلى جبريل فى صورته . تفسير القرطبى [١١/٩١] .

ومعنى ﴿ سَوِيًّا ﴾ يقال : فلان سوى التكوين إذا كانت أبعاض جسمه منسجمة مع بعضها ، وكلمة ﴿ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ تعنى أن عندها أملًا ، فحتى إن لم يكن هذا الرجل تقيًا فرحمة ربها تقيها منه .

فماذا قال لها ؟ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أى أنا لست قادمًا من تلقاء نفسى ، ولكنى رسول من عند ربك إليك ، لم يقل رسول اللّٰه تعالى ؛ لأن الرب هو المتولى التربية ، والذى تولى تربية شىء يصونه عن أى إفساد ؛ ولأن الربوبية عطاء مادى ، أما الألوهية فعطاء معنوى للقيم والعبادة .

وكلمة ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ كان المفروض أن يفهم منها أنها هبة ، فليست مسألة أسباب ، ولكن الأمر هبة من عند اللّٰه ، كما كان يحيى عليه السلام هبة من اللّٰه للنبى زكريا ، لأن زكريا كان قد بلغ من الكبر عتيا وامرأته كانت عاقرا لا تلد ، ولكن فى مسألة مريم هناك أنوثة فقط بدون ذكورة .

وقوله تعالى : ﴿ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ هناك ذكى من الذكاء ، وزكى أى : مطهر وصاف ونقى ، وحين قال لها الملك : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ كانت الفطنة تقتضى معرفة أنه هبة ، وما دام هبة ، فلا تسألى عن الأسباب .

فماذا كان رد فعل السيدة مريم عليها السلام ؟ ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠] نحن نعرف أن التقاء الرجل بالمرأة له وسائل :

الأولى : شرعها الخالق سبحانه وهى الزواج الشرعى بأركانه المعروفة ، وهنا يكون اتصال الذكر بالأنثى حلالًا لأنها زوجته .

الثانيـة : الاتصال المحرم بين الرجل والمرأة وهو الزنا ، فإذا تم هذا الأمر بموافقة الأنثى فهو زنا ، وفيه حكم شرعى ، وإذا تم رغما عنها فهو اغتصاب .

كل ذلك أوضحه الشرع ، فالحلال هو الزواج المعروف شرعًا من إيجاب وقبول وشهود وما إلى ذلك ، بغرض التكاثر وحفظ النوع وإقامة مجتمع صالح ، والحالة الأخرى وهى الحرام لها عدة حالات كما قلنا ، إما أن يتم قهرا عن الأنثى فهو اغتصاب ، وإما أن يستدرجها حتى توافق على الفاحشة ، وإما أن تكون هى التى غوته لارتكاب هذه الفعلة الشنيعة ، وهذه هى صور الحرام المعروفة .

لذلك فمريم عليها السلام استغربت ؛ لأن هذه الحالات ليست عندها ، فلم يمسسها بشر لا بطريق الحلال ولا بطريق الحرام معاذ الله تعالى فهى بذلك منعت الأحوال كلها التى تؤدى إلى حدوث هذا الأمر .

إذن .. وسيلة وجود غلام لها وسيلة لا سبب لها ، لأنها لم يمسسها بشر .

وكلمة : « وَلَمْ يَمْسَسْنِي » إذا جاءت فى القرآن فمعناها النكاح ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

فالمس يعنى النكاح ، والإمام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه لما وقف عند قول الله تعالى : ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٤٣] قال : ليس المراد اللمس أو الملامسة ، ولكن المقصود هنا الجماع . فكلمة : ﴿ لَٰمَسْتُمُ ﴾ أى : جامعتم .

وكلمة : ﴿ أَنَّىٰ ﴾ يستفهم بها عن الكيفية ، ومريم حين تحدثت منعت الكيفيات التى تعرفها من الزواج الحلال أو الالتقاء الحرام ، والبغى : هى التى

تبغى الرجال ، وتتخذ مكانًا معروفًا لممارسة هذا الإثم ، وهناك معنى آخر للكلمة : ﴿ بَغِيًّا ﴾ أى : مبالغة فى البغى ، وهو الظلم .

وبعد ذلك رد عليها الملك بقول الله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٢١] . كما قال الحق فى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام بعد أن تعجب زكريا وقال : ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨] ، قال له الحق تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ .

وأنت حين تستعجب من أمر جاءك ممن هو أعلى منك تقول : كيف يحدث هذا ؟ فيقول لك هو كذلك ، أى أنه كلام أصدره من يملك التنفيذ . هذه هى إرادة الحق سبحانه .

إذن .. فلا تقولن : إن اكتمال الذكورة والأنوثة يحدث الحق سبحانه بهما الخلق ، فالخلق يحدث بإرادة الخالق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(1) .

---

(١) قال القرطبى : فروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ ، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ نفخ فى جيب درعها وكمها ، وقال ابن جريج ، قال ابن عباس : أخذ جبريل ردن(١) قميصها بأصبعه ، فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى ، وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى(٢) . =

---

(١) الردن : الكم . المعجم الوسيط [٣٣٩] .

(٢) انظر تفسير القرطبى [١١/٩١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم] .

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أى حملت به ، ﴿ فَٱنتَبَذَتْ ﴾ بعدت ، ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى بعيدًا لأنها شعرت بالحمل وخافت أن يطلع على سرها أحد ، وكلمة : ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ أى جعلها تجيء ، لأن جاء معناها جاء من نفسه بمحض إرادته ، ولكن السيدة مريم دفعها المخاض إلى المجيء إلى جزع النخلة ، أى أتى بها المخاض إلى جذع النخلة ، ﴿ ٱلْمَخَاضُ ﴾ : هو الرجوع الذى يصيب المرأة عند الولادة المباشرة ويسمونه « الطلق » ، فحين جاءها المخاض أتت إلى جذع النخلة ، لأن ألم الوضع يجعل صاحبته تمسك أى شيء حولها تستند إليه من شدة الألم ، فربما جاءت إلى جذع النخلة تستند إليه ، وفى الآية قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ ولم يقل : جذع نخلة مما يدل على أنها كانت نخلة معروفة ، وجذع النخلة يطلق على الساق الذى يمتد من جذرها حتى الجريد(١) .

= وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت بذلك .

وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل ، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس ، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته ، فجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء وبعضه فى أرحام الأمهات ، فإذا اجتمع الماءان صار ولدا ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعًا فى مريم ، بعضه فى رحمها وبعضه فى صلبها ، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها ، لأن المرأة ما لم تهيج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل ، وقع الماء الذى فى صلبها على الماء الذى فى رحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ يعنى إذا أراد أن يخلق خلقًا ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

(١) والجذع : أحد جذوع النخلة ، وقيل : هو ساق النخلة ، والجمع أجذاع وجذوع ، وقيل لا يبين لها جذع حتى يبين ساقها . لسان العرب [٤٥/٨] .

لما حدث هذا الأمر لمريم ، وأصبحت المسألة حقيقة واقعة من حمل ومخاض وولادة ، حدث لها نوع من النزوع الانفعالى ؛ لأنها فى البداية استغربت الأمر ، وقالت كيف يكون لى غلام وأنا لم يمسسنى بشر ولم أك بغيًا ؟! وبعد ذلك حملت ، والحمل فى بطنها مستور ، ولكن عند الوضع سينكشف الأمر ، ويرى الناس الغلام وتواجهها المشاكل فهذا شىء صعب على النفس فى مثل هذا الموقف .

ولذلك تجد النزع الانفعالى فى هذه الحالة فى قولها : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٣] ، ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ﴾ هذا تمن ، إنها تتمنى أن تكون قد ماتت قبل أن يحدث هذا الأمر .

ومعنى : ﴿ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ النسى : هو الشىء التافه الذى لا يؤبه له وهو عادة ينسى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۝٢٦ ﴾ [مريم] .

والرطب هو التمر الناضج ، وكلمة : ﴿ جَنِيّٗا ﴾ تعنى أنه استحق أن يجنى ، أى إنه نضج واستوى . إذن .. لا بد من التوكل على رب الأسباب ، والشاعر المسلم الحصيف صاغ هذا المعنى فقال :

توكلْ على الرحمن فِيْ الأَمْرِ كُلِّهِ ... ولا تَرْغبنَّ بالعَجْزِ يومًا عَن الطلَب
أَلَمْ تـرَ أنَّ اللَّهَ قالَ لمَـرْيَمَ ... وهُزى إليكِ الجِزْعَ يُسَاقِطُ الرُطَبُ
ولَوْ شَاءَ أَعْطَاهَا بِغَيْرِ هَـزَّة ... جَنَتْه ولَـكنْ كُلُ رِزْقٍ لَه سَببَ

وهنا قال الحق سبحانه لها : ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ؛ وهذا معناه السرور وكلمة قَرِّي أي : اسكنى ، وسكون العين على مرأى واحد عند العرب ، دليل على أن العين صادفت مرأى جميلًا جدًا لا يغنى عنه أى مرأى آخر ؛ ولذلك تظل ناظرة إليه ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم : لا تحزنى ولتقر عينك بما أنت فيه ، فليس هناك أجمل ولا أفضل من أن يصطفيك اللَّه ويجعلك سيدة نساء العالمين ، فأى سعادة وأى مكانة وأى شرف أنت فيه .

ويقول تعالى : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ [مريم : ٢٤] ليس المقصود به جبريل ، ولكن المقصود وليدها عيسى عليه السلام ، بدليل أن قومها حين استنكروا عليها وجود طفل لها وهى لم تتزوج ولم تكن بغيًا ، وسألوها عن ذلك ، فأشارت إليه ؛ ليتحدثوا معه أى إن هذا سيجيبكم ، فكيف عرفت أن هذا الرضيع يتكلم ؟ لأنه سبق وأن كلمها وطمأنها وقال لها : لا تحزنى وقرى عينا .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

فهى التى ذهبت به إليهم ، فلم تتوار عن عيون القوم أو تهرب بوليدها إلى مكان بعيد ، ولكنها ذهبت إليهم بنفسها ؛ وذلك لأن معها الحجة والبرهان ، ولأن موقفها سليم ، وهى واثقة من تأييد اللَّه تعالى لها ، فجاءت إلى قومها تحمل وليدها على صدرها ، فلما رآها القوم على هذه الحالة قالوا : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ ؛ لأنهم يعلموا أنها غير متزوجة !!

يحكى أن بعض المستشرقين سألوا الشيخ محمد عبده فى باريس عن حديث الإفك الذى يقوله المنافقون على السيدة عائشة فقالوا له : بأى وجه قابلت عائشة قومها بعد حديث الإفك ؟ فقال لهم : بالوجه الذى قابلت به

مريم قومها حين جاءتهم تحمله !! أى بوجه الواثق من البراءة ، وأن اللَّه لا يمكن أن يسلمها ، أو يخذلها ؛ ولذلك فالسيدة عائشة رضى اللَّه تعالى عنها لما ظهرت براءتها وأنزل اللَّه فيها قرآنا ، قالوا لها : قومى إلى النبى ﷺ فقالت : لا ، وإنما أحمد اللَّه الذى برأنى .

فكون مريم تأتى بوليدها إلى قومها فهذه دلالة على أنها واثقة أن الحجة ستوفيها بالوليد ، وإلا فكان المفروض أن تخجل وأن تتوارى من القوم حتى لا يروها ومعها الوليد ؛ لأنها واثقة من نصر اللَّه ومعونته .

وكلمة : ﴿ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ ؛ الفرى للجلد : تقطيعه ، والأمر الفرى هو الذى يقطع عادة ألفها الناس ، أى لم يحدث مثله ، أو أنه من الفرية وهى تعتمد كذب ، وقولهم : ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ : مبالغة فى التعبير ؛ لأنهم عرفوها عابدة قانتة فكيف يحدث منها ذلك ؟! فهذا تقريع لها ؛ لأن أباها لم يكن رجلًا سيئًا ولا أمها أيضًا ، والسوء هو الرجل الذى إذا صحبته نالك سوء من صحبته ، فالأب كان مستقيمًا ، والأم كذلك فمن أين جاءِ لك هذا ؟ وهذا يدل على أن خلق الأسر يؤثر فى الأبناء ؛ فحين ينشأ الابن فى بيت ملتزم ويجد نفسه محوطا بالعناية والتوجيه السليم ينشأ مستقيمًا ، فكأن القوم استغربوا أن يحدث هذا من مريم وهى العابدة القانتة التى جاءت من أبوين كريمين مستقيمين ، فكيف يحدث منها ذلك .

لما كثرت الأسئلة على السيدة مريم ، وكثر الاستنكار من القوم ، ماذا فعلت ؟ قال تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى : أشارت إلى وليدها ، فكأنها تقول لهم : اسألوه ! وهذا دليل على أنها عرفت أنه سيتكلم ؛ لأنه سبق أن كلمها قبل ذلك ، فاطمأنت على أن تحمله

إلى القوم ، ليس على أنه جسم الجريمة ودليل إدانتها ، ولكنها تحمله على أنه دليل براءتها .

فلما أشارت إليه استغرب القوم وقالوا : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ فهم لم يستبعدوا أن يتكلم الرضيع فقط ، ولكنهم أنكروا الحديث معه ، وقالوا هل نحن مجانين حتى نكلم طفلًا رضيعًا !!

لقد كان الأمر بيدهم ففى توراتهم أن من يزنى يجب أن يرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ لا بد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، هذه القوة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠] . هذه المفاجأة جعلت الجبار فيهم ينهار وتخور قواه ، هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن النصارى ؟

إنه طفل تكلم فى المهد ، وكان لابد أن تكون الكلمة التى قالها مدروسة بعناية ، ولا يمكن أن تنسى ، لا بد أن تكون كلمة رائعة ، من طفل يتكلم ، فكيف لا تأتى هذه الكلمة فى الأناجيل ؟! إن جنود الله سبحانه وتعالى هم الذين حفظوا الكلمة مُذْ قالها عيسى عليه السلام وحتى تقوم الساعة . إن الأناجيل لم تذكر ذلك ؛ لأنها لو ذكرت ذلك لسألناهم ماذا قال ؟ سيكون الرد دون مواربة : لقد قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وهذا ينفى أنه إله .

إننا إذن أمام أمرين : أمر خاص باليهود ، وأمر خاص بالنصارى - كتبة الأناجيل .

فاليهود تقول : لقد كانت لكم السيطرة الدينية وقد جاء فى توراتكم أنه لابد من رجم الزانية ، فإذا كنتم قد اتهمتم مريم بالزنا ، لأنها ولدت من غير رجل ، فكان لابد من رجمها ، وأنتم لم ترجموها ، لأن سببًا واجهكم ولم

يقدر على هذا السبب كل طغيانكم وكل حقدكم ، فالطفل الذى تكلم فى المهد كان معجزة ألجمت أقوى الأقوياء فيكم .

وأنتم أيها النصارى - كتبة الأناجيل - لماذا لم تذكروا كلام عيسى عليه السلام فى المهد ؟ وبينما القوم على هذه الحال ، من مفاجأتهم بما تحمل مريم ، ثم من استنكارهم الكلام مع طفل رضيع ، نطق عيسى عليه السلام قائلًا لهم : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم] .

فكأنه يقول لهم : لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذى سأتكلم ، وأول شيء قاله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ واستهلاله كلامه بعبوديته للَّه تعالى ، دليل على أنه قد يقال إنه ليس عبدًا وإنه إله أو شريك للَّه سبحانه وتعالى ، فأول كلمة نطق بها أنه عبد اللَّه تعالى ، ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم فى المهد ، فإذا سألتهم ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يصمتون ولا ينطقون بما قاله أبدًا ، لأن كلامه ينفى معتقدهم . لم يقل : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ فقط ، ولكن أضاف شيئًا آخر فقال : ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ولكن كيف يؤتيه الكتاب وهو ما زال طفلًا فى مهده ؟ قالوا : كان هذا أمرًا ثابتًا ومفرغًا منه ، ومعنى ذلك أن هذا الوليد أهل لأن يتحمل أمانة السماء والأرض ، وجعله نبيًا ذا سلوك قويم ولا يمكن أن يكون كذلك وفيه أى مطعن ، وفوق ذلك : جعله مباركًا أينما كان ، فهذه الصفات هى أنه عبد اللَّه ، أتاه الكتاب والكتاب لم يأت بعد ولكنه سينزل فى المستقبل ، وذلك لأن هذا الوليد يتكلم عن الحق سبحانه فلابد أنه ملقن ، والذى يلقنه هو الذى سيؤتيه هذه الأشياء وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك قال أيضًا : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا

أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ ومعنى : « أوصانى بالصلاة والزكاة » أى أن الحق سبحانه وتعالى شرع له هذه العبادات والشرائع .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم] .

البر بالوالدين معروف ، فهو بار بوالدته ، بمعنى أنه حين يكبر ويعرف القصة أنه ولد من غير أب دون أن يمس أمه بشر ، فهذه الأحداث لا تسبب له أى ضيق ، أو غرابة لأنه هو نفسه الدليل على صدق هذه المعجزة ، والدليل لا يشكك فى المدلول ، أى إياكم أن تظنوا أنى سأكون عاقًا لوالدتى ، بل سأكون بارًا بها عطوفًا عليها ، ومعنى ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أن الحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولًا لابد أن يجعله لين الجانب ، لأنه سيأتى ، ليخرج الناس مما ألفوه من الفساد ، والذى يألف الفساد ، ويعايشه يكره من يريد أن يصلحه ، فيتعرض لعمليات استفزازية ، ومواقف عناد وسخرية واستهزاء ، فإن لم يكن لين الجانب ، واسع الصدر ، ليستميل الأذن لتسمع رسالته ، ستفشل مهمته ؛ ولذلك يقول الله تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ومعنى ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1] ، أى : يوم ميلادى كان

---

(١) قال ابن كثير : قوله : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل ، وأنه مخلوق من خلق الله ؛ يحى ويموت ويبعث كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما تكون على العباد . صلوات الله وسلامه عليه .

تفسير ابن كثير [١١٨،١١٧/٣] .

سلامًا ، لأن هذا الحديث لو وقع مع بنت أو سيدة فى أسرة أخرى كان من الممكن أن يقتلوها ويقتلوا وليدها ، ولكنها مرت بسلام ، والسلام عليه أيضًا يوم يموت ، وهنا خص يوم مولده ويوم موته بالسلام لأن الميلاد مقابله الموت ، والسلام عليه يوم موته لأنهم سيأتون ؛ ليأخذوه بغية صلبه وقتله ، وبعد ذلك يشبه لهم أنهم صلبوه وقتلوه ولكن اللَّه تعالى نجاه منهم ومن كيدهم ورفعه اللَّه سالمًا من كل سوء .

وذكر السلام على نفسه يوم يبعث حيًا ؛ لأنه ليس هناك رسول سيسأله اللَّه هذه الأسئلة إلا عيسى عليه السلام ؛ وهى قول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة] .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره اللَّه عز وجل به ، ولكن هذا تقريع لمن يزعمون أنهم أتباعه ، وقد حرفوا رسالته وجعلوه إلهًا من دون اللَّه .

ثم يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [مريم] .

كلمة : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : الذى تقدم وهو قصة عيسى ابن مريم ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ : أى يقولها اللَّه قول حق ، أى هذه قصة عيسى ابن مريم يخبرنا بها

الحق سبحانه وتعالى ، أو أن معنى ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ أى أنه ضد الباطل ، فالمعنيان متفقان : ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ أى : إنه قول الله سبحانه وتعالى ، أو أنه الحق الذى ضد الباطل ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى : يشكون فكأنه يخبرنا أنهم سيشكون فى هذا الكلام ويتقولون فيه الأقاويل(١) .

والمعنى : اتركوا هذه الأقاويل الباطلة وخذوا الكلام من الحق سبحانه ؛ لأن قول الحق هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكما قلنا كلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : الذى تقدم أمره من أول قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ إلى هنا . ثم ذكر قضية هامة جدًا فقال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

ولكن لماذا بدأ بموضوع الولد ؟ قالوا : لأن قضية الشريك تنفى بأولية العقل ؛ لأن الشريك لله ماذا يفعل معه ؟!

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٦] .

قال تعالى : ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ

---

(١) قال الشيخ السعدى فى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ أى ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مرية .

عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ [المائدة : ١١٠] .

هنا فى الآية نجد أن الإعجاز ليس فى أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير ، لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك فكأنه حينما قال : ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ كأنه صار طيرًا من الطين فأى إنسان يمكن أن يفعلها ، ولكن : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ تجمع بين الشكل وصناعة الطين كهيئة الطير ، فيكون طيرًا بإذن اللّٰه نعم إن عيسى لم يكن ليجترىء ويصنع ذلك كله إلا بإذن اللّٰه .

لقد جاءت كلمة : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ من قول عيسى وعلى لسانه ، فهذا اعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، ومن معجزاته أيضًا ما ورد فى قول اللّٰه تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ لماذا ؟ هذين المرضين بالذات ؟ لأنهما كانا من الأمراض المستعصية فى ذلك العصر . والأكمه هو الذى ولد أعمى ، أى لم يحدث له العمى بعد ميلاده ، والبرص هو أن تبيض بقعة من الجلد وإن كان صاحبه أسود . ثم تظهر بعد ذلك بقع متناثرة فى جميع الجسم بيضاء اللون ، مما يدل على أن الجلد صار أبرص ولون الجلد له كيماويات فى الجسم ، وكشف العلم المعاصر أن الملونات للجلد هى غدد خاصة توجد فى الجسم واسمها الغدد الملونة ، فإن امتنعت الغدد الملونة عن إعطاء الألوان جاء البرص والعياذ باللّٰه ، وهو مرض صعب لم يكن باستطاعتهم أن يداووه . فلما أرسل اللّٰه تعالى عيسى ابن مريم إلى قومه أعطاه اللّٰه سبحانه وتعالى الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب ، وجاء لهم بآية فيه هى إبراء ماكانوا عاجزين عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

وقد قلنا : ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ تعنى أن ماجاء به عيسى ابن مريم مطابقًا لما جاء فى التوراة ، وقلنا : إن ما بين يدى الإنسان هو الذى سبقه ، أى الذى جاء من قبله وصار أمامه .

وما دام عيسى مصدقًا لما بين يديه من التوراة فى زمانه وكانت التوراة موجودة ، فلماذا إذن جاء بأحكام جديدة ؟ ويتضح ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران قول عيسى عليه السلام لقومه : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ .

إذن .. فليس الأمر هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى عليه السلام جاء ليحل بعضًا من الذى حرمته التوراة .

وجماع دعوة عيسى والأنبياء كلهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٥١] . إذا اجتمع الرسول والمرسل إليهم فى أنهم جميعًا مربوبون لإله واحد ، فهذا يعنى الوحدانية المطلقة لهذا الإله ، ذلك أن هذا الإله هو الذى تولى تربيتهم ، والتربية تقتضى رعاية قيومية ، عيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله ، وكأنه يقول وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدًا عليكم ولكننا جميعًا مشتركون فى العبودية لله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

لقد ذكر نبى الله عيسى لهم بما لا يقبل الجدل ، أنا وأنتم سواء فى عبوديتنا لله الواحد وأنا لم آت لأتميز عنكم بشىء فيما يتعلق بالعبادة ،

فاللّه رب لى وربّ لكم والصراط المستقيم هو منهج عبادة اللّه الحق[1] إننا نسمع لفظ الصراط المستقيم ، فإننا نتخيل على الفور الطريق الموصلة إلى الغاية وهى أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية ، وإننا نعرف أن الطرق تصنع لتوصل إلى الغاية ، وحين نسمع كلمة : ﴿ صِرَٰطٌ ﴾ فلنا أن نفهم على الفور الغاية التى نريد أن نصل إليها ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

أى أقصر شىء يوصل إلى غاية مطلوبه [2] ، وما دام هناك طريق لغاية ما فلا بد لنا أن نحدد الغاية أولًا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل

---

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى عن رسول اللّه ﷺ قال : « ضرب اللّه مثلًا صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاه ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتفرجوا ، وداع يدعوا من جوف الصراط ، فإذا أراد يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، والصارط : الإسلام ، والسوران : حدود اللّه تعالى ، والأبواب المفتحة : محارم اللّه تعالى ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب اللّه عز وجل ، والداعى فوق الصراط : واعظ اللّه فى قلب كل مسلم .

رواه أحمد فى المسند [١٨٣/٤] واللفظ له ، وصححه الحاكم [٧٣/١] ووافقه الذهبى .

(٢) عن عبد اللّه بن مسعود قال : خط رسول اللّه ﷺ خطا بيده ، ثم قال : « هذا سبيل اللّه مستقيما ، قال : ثم خط خطًا عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ، وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » . ثم اقرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ .

رواه أحمد فى المسند [٤٦٥/١] وصححه الشيخ شاكر [٤٤٣٧] .

أمام الإنسان ، لسلك الطريق الموصلة إلى الغاية ، وهكذا يقول لهم نبى اللّه عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ [آل عمران : ٥١] .

والعبادة هى إطاعة العبد لأمر المعبود(١) ، ولا تظن أن العبادة كما يريد خصوم الإسلام أن يضللوا الناس ، بأن الإسلام قد جاء فقط للصلاة والصوم والزكاة ، وأن يقتصر الإسلام على أركانه وداخل جدران المسجد فقط ، فينفصل الإنسان عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس ، حتى تقبل على العمل الخاص

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العبادة : هى اسم جامع لكل ما يحبه اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة : فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار ، واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه وأمثال ذلك هى من العبادة للّه .

وذلك : أن العبادة للّه هى الغاية المحبوبة له والمرضية له ، والتى خلق الخلق لها ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وكذلك قال هود وصالح وشعيب ، وغيرهم لقومهم .

العبودية [٢٣٠، ٢٤٠] .

واعلم أن العبادة أربع قواعد هى : التحقق بما يحب اللّه ورسوله ويرضاه ، وقيام ذلك بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع ، فأصحاب العبادة حقًا هم أصحابها .

تجريد التوحيد للمقريزى [٨٢] .

بعمارة الدنيا فالإسلام منهج حياة متكامل ، وكل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون وفق منهج الله ، فهى عبادة والأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه ، فجعلوا بابًا للعبادات وبابًا للمعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شىء يأمر الله به فهو « عبادة » إلا أن العبادة أنواع فمنها ما يصل العابد بالمعبود جل جلاله ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون .

ولذلك قلنا : إن الله حينما يأمرنا بأمر ، فإننا نجد الأمر واضحًا ، مثال ذلك قول الحق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] .

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، والأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ إنما يأخذ الإنسان من عمل هو البيع ، ولو نظرنا إلى دقة الأداء فى الأمر بترك البيع دون غيره لوجدنا أن فى البيع قمة الأخذ المباشر للرزق ؛ فلم يقل الله - مثلًا - : « اتركوا الصنعة واتركوا الحرث » ، ولكن الحق سبحانه وتعالى جاء بالبيع هنا ؛ لأنه قمة النفعية العاجلة ؛ لأن الذى يحرث ويزرع ينتظر وقتًا حتى تظهر الثمار ، لكن الذى يبيع شيئًا فإنه ينال المنفعة فورًا ؛ لذلك جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ولذلك يتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التى هى أقل نفعية من البيع لأداء الصلاة .

إن أمر الحق سبحانه قد جاء هنا بترك البيع ؛ لأن للبيع نفعية مباشرة ، والبيع هو مبادلة السلع بأثمانها ، والسلع هى نهاية كل عمل ، فالذى يزرع أيضًا يرجو الثمار ؛ ليبيعها لمن يزرع والذى يصنع إنما يرجو إتمام صنعته ؛ ليبيعها لمن

يصنع ، وهكذا تكون السلع هى القمة من الأعمال ، ولذلك جاء الأمر الحق :
﴿ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ .

إن البيع هو التعبير الدقيق ؛ لأن المتكلم هو الله ، والحق سبحانه لم يتكلم هنا مثلًا عن الشراء ؛ لأن الشارى قد يشترى وهو كاره لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة ؛ لذلك يخرجنا الحق من قمة كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهى مبادلة السلع بأثمانها .

لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

لقد خرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغى من فضل الله ، ولذلك يكون الانتشار فى الأرض ، والبحث عن الرزق عبادة .

ولننظر إلى الدقة فى قول الحق : ﴿ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، إن الانتشار يعنى أن ينساح البشر ؛ لينتظموا فى كل حركات الحياة ، فلا يقيمون المدارس بمفردها أو يقيمون ويعملون فى المصانع وحدها ، إنما كل إنسان يذهب إلى عمله ، وبعد ذلك تعمر كل حركة فى الحياة . إذن .. فكل حركة فى الحياة هى عبادة .

هكذا نعرف العبادة ، وهكذا نستوعب قول الحق سبحانه وتعالى الذى أرسل به نبيه عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

ثم يقول الحق : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] ، لقد حسم نبى الله عيسى عليه السلام أمر العقيدة حينما قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى

﴿ وَرَبُّكُمْ ﴾ إن فى ذلك تحذيرًا من أن يقول اتباع عيسى أى شىء آخر عن عيسى ، غير أنه عبد اللَّه ، مأمور بالطاعة والعبادة له سبحانه ؛ لأنه وضع أمامهم المنهج فقال : ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقول الحق : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾ يدل على أن كل صاحب دعوة ، وكل صاحب مهمة وكل صاحب هدف ؛ لابد أن يكون يقظ الإحساس ؛ لأن صاحب الدعوة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وقد يقول قائل : ولماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك من يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات[1] ، فالظالم الذى يأخذ حق الآخرين اغتصابًا ، يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى الهداية وإلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب من ينطق هذه الكلمة ؛ لأنه يكره الكلمة وقائلها .

لذلك فالداعية مأمور من اللَّه بأن يكون يقظًا .. لماذا ؟ لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها فإنه يغضب أناس آخرون ؛ ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، ولذلك فالداعية عليه أن يعرف يقظة الحس ،

---

(١) مصداق ذلك فى كتاب اللَّه عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .
ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] .
ومنه قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

والحس معناه الأحاسيس الخفيفة الموجودة عند كل إنسان ونحن نسمى الأحاسيس الظاهرة منها الحواس الخمس : اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم . ورجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه ، حتى يعرف من الذى يجبن ويرتجف لحظة أن تأتى دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحس الراحة لدعوة الخير ؟ من الذى تتغير ملامحه لحظة أن تأتى دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحس الراحة لدعوة الخير ؟ من الذى تتغير ملامحه لحظة دعوة الخير ومن الذي يستبشر ويفرح ؟ إن رجل الدعوة عليه أن يكون يقظ الأحاسيس .

إن نبى اللّٰه عيسى عليه السلام عندما أعلن منهج الحق وجد أنصار الظلم ، وأنصار البغى غير مستعدين للإيمان باللّٰه ، لذلك أحس منهم الكفر ، لقد كان مليئًا باليقظة والانتباه فحينما بعثه اللّٰه تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور أحس منهم الكفر ، ولذلك أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة فقال : ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية ، والتضحية تكون بالنفس والنفيس .

لذلك لابد أن يستشير من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة ، إنه لم يناد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ولتكون التضحية بإقبال النفس استجابة لدعوته عليه السلام . قوله : ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؟ كلمة : ﴿ إِلَى ﴾ فى السؤال تفيد الغاية وهو اللّٰه تعالى ، أى من ينصرنى نصرًا تصير غايته إلى اللّٰه وحده ، لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن واحد يدخل تحت لواء الدعوة من أجل الغنيمة ، أو يدخل آخر من أجل الجاه أو غير ذلك . إنه يسأل عن أهل العزم ، ليكون كل منهم متجهًا بطاقته إلى نصرة اللّٰه وحده .

إذن .. هناك نصر من المؤمن لربه ، وهناك نصر من اللّه للمؤمن ، وهكذا يكون سؤال ابن مريم عليهما السلام : ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قد أفاد المعنيين .

وكانت الإجابة : ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] . و ﴿ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ (1) مأخوذة من الحور وهو شدة البياض فى العين وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيم الإيمان ، فكأن وجوههم مشرقة بالنور ، ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس ؛ ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول اللّه محمد ﷺ فيقول : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

---

(1) قال القرطبى : والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام وكانوا اثنى عشرة رجلًا ؛ قاله الكلبى وأبو روق ؛ واختلف فى تسميتهم بذلك ، وقال ابن عباس : سموا بذلك لبياض ثيابهم وكانوا صيادين .

ابن أبى نجيح وابن أرطاة : كانوا قصارين فسموا بذلك لتبيضهم الثياب .

قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين ، فأراد معلم عيسى السفر فقال لعيسى عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فاصبغها . فطبخ عيسى حبا واحدا وأدخله جميع الثياب وقال : كونى بإذن اللّه على ما أريد منك ، فقدم الحوارى الثياب كلها فى الحب فلما رآها قال : قد أفسدتها ؛ فأخرج عيسى ثوبًا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغه ، فعجب الحوارى وعلم أن ذلك من اللّه ودعى الناس إليه فآمنوا به . تفسير القرطبى [٤/٩٧-٩٨] .

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه .. ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ومكون من ذرات ، والأجهزة لكل منها مطلوبات ؛ وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد وحين تتجه كل الأجهزة إلى الله تعالى ملتزمة أمره ونهيه فإن الذى يحدث للإنسان هو إنسجام كل أجهزته وما دامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون الملامح مكفهرة .

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

إذن .. فالحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان أو هم قوم بيض القلوب ، معانيهم بيضاء ومشرقة ، ومنه كلمة « الحور » وهو شدة البياض فى العين ، والنبى ﷺ سمى بعضًا من صحابته حوارى رسول الله ، إنهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت[(١)] .

وحين قال الحواريون : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ إن الواحد منهم يريد نصرة الله فينضم إلى كل ناصر للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ، ونحن نعرف مقومات النصرة لله وهى الإيمان ، فما معنى الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا الإيمان فى عمومه ، ولو لم أكن مؤمنًا بأن الطريق الذى أسير فيه موصلًا إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه ، ومثال لذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط - مثلًا - لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، ولو لم أعتقد أننى إن لم أذاكر دروسى فسوف أرسب لما ذاكرت .

---

(١) أخرج البخارى [٣٧١٩] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، بلفظ : « إن لكل نبى حواريًا ، وإن حوارى الزبير بن العوام » .

إذن .. فكل أمر فى الدنيا يتم بنائه على الإيمان ، لكن إذا قصد بالإيمان المعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا وهى الإيمان بالله ولذلك فأسلحة الوصول إلى الله هى إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله .

ولذلك قال الحواريون : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض فى الرسول أن يبلغ القوم بلاغًا عن الله فيشهد عليهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] .

ولنا أن نلحظ أن الحواريين آمنوا أولًا ؛ لأنه أمر غيبى عقدى فى القلب ، ثم من بعد ذلك أسلموا ؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه ؛ ولذلك فقولهم : ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ هو طلب منهم للرسول عيسى عليه السلام : أن بلغنا كل مطلوبات الإسلام وقل لنا « افعل ولا تفعل » ، إنهم قالوا : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بما بلغهم من الله ، والمطلوب من نبى الله عيسى عليه السلام أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام .

وقال من بعد ذلك : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] . وقد يكون إعلانهم الإيمان إيمانًا برسالة سابقة ، ولكن لنا أن نعرف أن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء برسالة من الله ، ومعنى أن رسولًا يجيء أن هناك أمرًا

أراد الله إبلاغه للناس . ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها وكذلك الأخبار والقصص ، ولكن الأحكام هى التى تتغير ، فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقًا على رسالة عيسى وبما جاء به عيسى عليه السلام هو إيمان كامل .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وفى هذه الآية الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منها تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيدًا ؛ لأنها جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، إن النعمة أجراها الله على عيسى وأيده الله بما يزكى رسالته إلى قومه ، فكأنها كانت نعمة أولًا عليه ؛ لأنه مصطفى مختار مؤيد ، وهذا الذكر للنعمة تقريع لمن رآها وعرف أنها كفيلة بأن تثبت صدق عيسى فى بلاغه عن ربه ولم يؤمن .

ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين :

قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية .

وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى غيب الله .

والقسم الأول : الذى يقنع أصحاب العقول والألباب : هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

والقسم الثانى : الذى يقنع الماديين : هو الأمور المادية الحسية التى يعلم من يراها أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ؛ كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرًا ، إحياؤه عليه السلام الموتى بعد موتهم وإبراء الأكمه والأبرص ، إن هذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : ﴿ بِإِذْنِيٓ ﴾[1] أى : أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله ، ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى ؛ لأنها أمر ظاهر ومعروف ، وقد قدر الحق ذلك حتى يكون الأمر واضحًا أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويؤمنون به وبمن أرسله .

إذن .. قدر الحق ذلك حتى لا يُخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق عيسى عليه السلام . فعيسى لم يأخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيرًا وينفخ فيها فتكون طيرًا ، إنما حدث ذلك بإذن من الله ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإخراج الموتى بإذن الله .

---

(١) قال أبو حيان الأندلسى : وجاء فى آل عمران ﴿ بِإِذْنِيٓ ﴾ مرتين وجاء هنا ﴿ بِإِذْنِيٓ ﴾ أربع مرات عقيب أربع جمل ، لأن هذا موضع ذكر النعمة والامتنان بها ، فناسب الإيجاز ، والتقدير فى ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ تحيى الموتى ، فعبر بالإخراج عن الإحياء كقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أو يكون التقدير : وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء .

البحر المحيط [٤/٤٠٧] .

إن ذلك خرق لناموس المادة ؛ لذلك أكد الحق القول فى أكثر من موضع بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى عليه السلام لم يأخذ من قدرة اللّه طلاقة له ، بل انحصر الأمر فى هذه المسائل فقط ؛ ولذلك نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء ، هذا الخرق إنما لتأييد النبى . وعلينا أن نعرف أن اللّه لم يعط إنسانًا القدرة على العلم بالغيب مطلقًا إنما يطلع الحق بعضًا من خلقه بهبة منه سبحانه على شىء جزئى ، فالحق سبحانه وتعالى هو مالك علم الغيب وحده : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

والحق يسرى عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام بذكر هذه الآيات ، لكن الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا : إنها سحر . إن المبلغ عن اللّه لا يخشى إلا اللّه وهو يحب أن يؤمن معه كل الناس إلا أنهم جحدوا بها وكفروا وقالوا كما قص الحق سبحانه وتعالى فى القرآن : ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

إن الحق سبحانه خلق الخلق ، وجعل الإيمان أمرًا فطريًا فينا ، ثم تأتى الغفلة فتبعد جزئية ، وتأتى غفلة ثانية فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى بهتان ، وفى الحديث الذى رواه حذيفة بن اليمان رضى اللّه عنه قال : حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر ؛ حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس فيه شىء - ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد

يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلًا أمينًا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ! ما أعقله ! وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى علّى زمان وما أبالى أيكم بايعت ، لئن كان مسلمًا ليردنه على دينه ولئن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنه علّى ساعيه وأن اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا »[1] .

لذلك فنحن نجد أن كل داع إلى اللّه يأتى إنما يريد إقامة منهج اللّه فى الأرض ؛ حتى لا يأتى الران على القلوب ، بسبب الغفلة التى حدثت بالبعد عن منهج اللّه ، وذلك ما يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم ونجد أن الداعى إلى اللّه الذى ليس له عدو يصيبه بالسوء هو داع حظه من منهج النبوة بعيد ، وميراثه من النبوة ليس بكثير !! والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام .. ماذا قالوا ؟ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ومعنى ذلك أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحنقتهم ، وملأت مشاعرهم بالخيبة ، لقد جاء مثل هذا القول من قوم يكرهون منهج الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة ، يدعم بها الحق الداعى إليه ؛ لأن مقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها .

إذن .. فكلما رأينا داعيًا إلى اللّه يقاومه الناس ويقذفونه بالسباب فهذا دليل على صدق الداعى ، ما دام متمسكًا بما يؤمن به .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ١١٢] .

---

(١) أخرجه البخارى [٦٤٩٧] ، ومسلم [٢٣٠/١٤٣] واللفظ له .

كان عيسى عليه السلام قد قال للحواريين : عليكم بتقوى الله عز وجل ، فلا تسألوه هذه الآية ؛ لأنكم ما دمتم أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله لإثبات صدق الرسول ، وحسبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى ؛ إذ عليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم إيمانكم به ولكن الحواريين أجابوا : ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : ١١٣] .

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام عندما سأل الله عز وجل عن كيفية إحياء الموتى ؛ ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ، لذلك سألوا عن المائدة التى صارت من بعد ذلك حقيقة واضحة . وهكذا نعرف أن هناك فارقًا بين أن يؤمن الإنسان لذاته ، وبين أن يشهد بالإيمان عنده غيره . ويقول الحق عن استجابة عيسى للحواريين : ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة : ١١٤] .

وقول الحق : ﴿ مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لا يعنى أن هناك موائد منصوبة فى الأرض ؛ ذلك أن الكون كله مائدة فيها من الخير الكثير ، والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى أنعامه ، فإنه يأتى إلى زوجه وأولاده بمخزون قد يكفيهم لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت وقد تأتى الزوجة بشىء من الطير فتذبحه وتطهو معه الخضروات .

إذن .. فالكون كله مائدة الله المنصوبة التى يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله ، وكلمة ﴿ مَآئِدَةً ﴾ لا تطلق إلا على الخِوَان وعليه طعام ، أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها : خوان ؛ لأن المائدة مأخوذة من مادة – الميم

والألف والدال - والمائدة تميد أى تطرب من كثرة ما عليها من أشياء أو هى تعطى مما عليها من أشياء ، وصارت هذه المائدة عيدًا أى يومًا يحب الناس أن يعود عليهم مثله ؛ لأنهم يسرون به ، فالعيد هو ما يعيد علينا بالخير وبما يسر ، وقد توقف العلماء عند قول الحق سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ .

وتساءلوا : كيف كان هذا القول ، وخصوصًا أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟!

وقال العلماء أيضًا : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصرًا باشتقاقات الألفاظ ، واستعمالات الألفاظ ، وسمات الألفاظ وكلمة : ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ تطلق ويراد منها الاستجابة وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب ٱللَّه لإرسال مائدة لنا من السماء ؟ « واستطاعة » تقابل « استجابة » .

إن الحق سبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء وهو الذى يخضع لحكمه كل شىء ، والحق لا يطلب إنما يأمر : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

فكأن الحق عندما يقول : ﴿ كُن ﴾ فهو قد طلب من الشىء طوعًا أن يكون ، وعلى هذا فإن سؤالهم يكون كالآتى : هل يطلب ربك طوع الكون له ؟! فيستجيب لنا بإرسال مائدة تكون عيدًا ، ولنا أن نعلم أن قول اللَّه : ﴿ كُن ﴾ لا يمكن أن يصدر إلا والحق يعلم أن المطلوب منه يجب أن يطيع اللَّه سبحانه وتعالى ، وأن يكون استعداده الانفعالى أن يطيع على الفور أمر الخالق ؛ وحتى نعلم ذلك فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾ [الانشقاق] . إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط ، وحين تسمع

الأمر فهى تنفعل ، ومعنى تنفعل أى : تطيع ، وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى .

وقوله الحق : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ١١٣] .

لقد طلبوا مائدة من السماء وقدموا الرغبة فى الأكل والطعام على ضرورة التصديق الإيمانى الجازم ، ولنا أن نرى اختلاف قولهم فى هذه المائدة عن قول عيسى ابن مريم عليه السلام لما سأله ربه هذه الآية ، فيقول تعالى فى ذلك : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة : ١١٤] .

إن قول عيسى عليه السلام هو قول ممتلىء بكل المعانى القيمة ، إنه يطلب أن تكون المائدة عيدًا يفرح به الأولون والآخرون ، وآية من الحق سبحانه وتعالى . ويعترف بفضل ربوبية الرزاق ، ويعترف بامتنان أن الحق سبحانه خير الرازقين[1] . والمقارنة بين الحواريين وقول عيسى عليه السلام تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله وهو عيسى عليه السلام ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عنه وهم الحواريون ، إن إيمان عيسى عليه السلام هو الإيمان القوى الناضج ،

---

(١) قال القاسمى : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ أى : يا الله المطلوب لكل مهم الجامع للكلمات ، الذى ربانا بها ، ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية ، وإظهار لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : التى فيها ما تعدنا من نعيم الجنة ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أى : يكون يوم نزولها عيدًا نعظمه ونسر به ، نحن الذين يدركونها . ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقون فى دينهم . و « العيد » مشتق من « العود » لعودة فى كل عام بالفرح والسرور . وكل ماعاد عليك فى وقت فهو عيد . تفسير القاسمى [٢٢١٦/٦] .

وإيمان الحواريين هو إيمان لا يرقى لإيمان عيسى عليه السلام ، ولقد كانت قوة إيمان عيسى عليه السلام نابعة من أنه يتلقى عن اللّٰه سبحانه وتعالى مباشرة . صحيح أن الحواريين آمنوا باللّٰه عز وجل ، وتم ذلك بواسطة عبده ورسوله عيسى عليه السلام ؛ ولذلك يعلو الرسول عن المؤمنين ببلاغه ؛ ولذلك صحح عيسى عليه السلام طلبهم من اللّٰه سبحانه وتعالى وهو يدعو ربه إنه رسول مصطفى مجتبى ؛ لذلك وضع الأمور فى نصابها فيقول : ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ ﴾ وكلمة ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾ فى الأصل هى « يا اللّٰه » وعندما كثر النداء بها حذفنا حرف النداء وعوضنا عنه بميم فى آخرها فصارت « اللّٰهم » وكأن هذا اللفظ تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة اللّٰه عز وجل فى تقديس وثقة فى أن الحق يستجيب لعبده ، وهو نداء يقوم على حب العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى واسطة حتى وإن كانت هذه الواسطة حرفًا من حروف النداء ولنا أن نلاحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلام اللّٰه بصفة الألوهية ؛ إنه كنبى مرسل يعلم تجليات صفة اللّٰه عز وجل ، وهى تجليات عبادة من عابد إلى معبود ، أما تجليات كلمة « رب » فهى تجليات مربوب ورب ، إنه يعلم الفارق بين عطاء الألوهية للخلق وعطاء الربوبية .

إن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية ؛ التربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب والأقوات ، والرب هو رب كل شيء ، رب للمؤمن والكافر والرب يتولى تربية الكافر رغم إنكاره للألوهية إنه يربى الماديات التى تقيم حياته ؛ ولذلك نجد الحق يقول عن هؤلاء الكافرين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

والمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضًا ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضافا إليه العطاء الذى لا ينفد . إنه يعطى المؤمن زمانًا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه . يأخذ به المؤمن يقين الإشراق ، والإقبال على العمل فى ضوء منهج اللّه ؛ ولذلك قال عيسى ابن مريم داعيًا اللّه جلت صفاته وأسماءوه : اللّهم ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بنداء الألوهية أولًا ؛ معترفًا بالعبودية للّه جل وعلا ملتزمًا بالتكليف القادم منه ، ثم جاء نداء الربوبية ؛ فيا من أنزلت علينا التكليف ، ويا من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بالعبودية ، وأخذ نداءه من زاوية القيم ثم الزاوية المادية وهى الرزق ، لقد قدم الحواريون بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام ، وقدم عيسى ابن مريم عليه السلام بصفة اختياره رسولًا ، القيم على الطعام ، صحيح أن الرزق يمس الأكل ولكن الرزق ليس كله أكلًا ، هو كل شىء يحتاج إليه وينتفع به : فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والهداية رزق ، وكل شىء ينتفع به هو رزق من عند اللّه ، ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره .

ويجيب الحق دعاء عيسى ابن مريم : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] .

وحين يقول الحق : ﴿ إِنِّى ﴾ فهو يستخدم نون الإفراد ، ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه ، فحين يتحدث سبحانه عن وحدانيته يأتى بنون الإفراد فيقول : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [طه : ١٤] .

وحين يتحدث سبحانه وتعالى عن سياق القدرة الشاملة العامة لكل صفات القدرة الشاملة يأتى بنون التعظيم فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وهو سبحانه وتعالى أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] .

إن الحق سبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول إن فلانًا من الرسل أفضل من فلان [١] ؛ لأن الحق هو الأعلم برسله ، ولنا فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] الأمر باتباع الرسل .

---

(١) أخرج البخارى [٣٤١٤] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٧٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : بينما يهودى يعرض سلعته أعطى بها شيئا كرهه ، فقال : لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال : تقول : والذى اصطفى موسى على البشر ، والنبى ﷺ بين أظهرنا ؟ فذهب إليه فقال : أبا القاسم ، إن لى ذمة وعهدًا ، فما بال فلان لطم على وجهى ؟ فقال : « لم لطمت وجهه ؟! » فذكره ، فغضب النبى ﷺ حتى رؤى فى وجهه ثم قال : « لا تفضلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ أخرى فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور ، أم بعث قبلى » .

أخرجه البخارى [٣٤١٤] واللفظ له . ومسلم [٢٣٧٣] .

وعيسى عليه السلام دعا الله بأدب الرسل أن ينزل المائدة ، واختلف العلماء أأنزلها الحق سبحانه وتعالى أم لم ينزلها ؟ فهناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا ﴾ .

وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطًا لنزول المائدة وهو إنزال العذاب إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزال المائدة ، ولذلك لم ينزل الحق تلك المائدة ، ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا فى مواصفاتها ؛ فقيل : إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس(١) ولا شوك فيها ، ذلك أنها مائدة من السماء ، ومعها خمسة أرغفة ، وعلى كل رغيف شىء مما يعرفون ، رغيف عليه عسل ، وآخر عليه زيتون ، وثالث عليه سمن ، ورابع عليه جبن ، وخامس عليه قديد .

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾(٢) [النساء : ١٥٧] .

---

(١) شىء مفلس اللون إذا كان على جلده لمع كالفلوس والمقصود : أنها سمكة من غير قشرة [لسان العرب] .

(٢) عن ابن عباس قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء خرج على أصحابه وهم فى بيت ، اثنا عشر رجلًا ورأسه يقطر ماء فقال : أيكم يلقى شبهى عليه ، فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سنا ، فقال : أنا . فقال أجلس ، ثم أعاد عليهم . فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أجلس . ثم أعاد عليهم الثالثة ، فقال الشاب : أنا . فقال عيسى عليه السلام : نعم أنت ، فألقى عليه شبه عيسى عليه السلام ، ثم رفع عيسى من روزنة كانت فى البيت إلى السماء ، وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشاب للشبه . فقتلوه ثم صلبوه فتفرقوا ثلاث فرق . فقالت فرقة : كان فينا الله عز وجل ماشاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه والنسطورية ، وقالت طائفة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه =

= فهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدًا ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف : ١٤] . يعنى : الطائفة التى كفرت فى زمان عيسى عليه السلام والطائفة التى آمنت فى زمان عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ . بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ .

أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٥٩١] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وأضاف هذا القول إليهم وذمهم عليه ولم يذكر النصارى شاهدا معهم ؛ بل كان الحواريون خائفين غائبين ، فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوا عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقًا كثيرًا يمتنع تواؤهم على الكذب .

وقال فى موضع آخر : وقوله تعالى : ﴿ ... وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء] . بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل ، وبين أنهم يؤمنوا به قبل أن يموت ، وكذلك قوله : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره .

معنى التوفى : ولفظ التوفى فى لغة العرب معناه : الاستيفاء والقبض . وذلك ثلاثة أنواع :

أحدهما : توفى النوم .

والثانى : توفى الموت .

والثالث: توفى الروح والبدن جميعًا .

فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس . ويخرج منه الغائط والبول والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو فى السماء الثانية =

= إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حالة كحالة أهل الأرض فى الأكل والشرب والنوم والغائط والبول ونحو ذلك .
الوجه الثالث : قولهم أنه عنى بموته عن موت الناسوت كان ينبغى لهم أن يقولوا على أصلهم : عنى بتوفيته عن توفى الناسوت . وساء قبل : « موته أو توفيته » ، فليس هو شيئا غير الناسوت ، فليس هناك شيء غيره لم يتوقف اللّه تعالى قال : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، فالمتوفى هو المرفوع إلى اللّه . وقولهم : « إن المرفوع هو اللاهوت » مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن ، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى . والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى وكذلك قوله فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ هو تكذيب لليهود فى قولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ واليهود يدعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا للّه لاهوتا فى المسيح ، واللّه تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ؛ بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت .
وقد زعموا أنهم قتلوه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فأثبت رفع الذى قالوا إنهم قتلوه . وإنما هو الناسوت ، فعلم أنه هو الذى نفى عنه القتل وهو الذى رفع ، والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام فى القبر إما يومًا وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ معناه أن نفى قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم فى شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل ، إذ لا حجة معهم بذلك .
ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون : إنه صلب ، فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود . وكان قد شبه عليهم المسيح بغيره كما دل عليه القرآن ، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم =

....

○○○

= بعض الناس : أنا أعرفه ، فعرفوه . وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علمًا ؛ بل ظنًا قول ضعيف .

الوجه الرابع : أنه قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته : « إنى رافعك إلى » وكذلك قوله : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه . وإذا قالوا : « هو الكلمة » فهم مع ذلك أنه إله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ونحوهما مما هو كلام الله الذى قال فيه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين . ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس : قوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المائدة : ١١٧] دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح فإن قوله : ﴿ كُنتَ أَنتَ ﴾ يدل على الحصر ، كقوله : ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ونحو ذلك . فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيبًا على أتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم ، المحصى أعمالهم ، والمجازى عليها ، والمسيح ليس برقيب ، فلا يطلع على أعمالهم ولا يحصيها ، ولا يجازيهم بها .

التفسير الكبير [١٨٧:١٨٢/٤] بتصرف .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

قال اللّه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران : ٥٥] . إن عيسى عليه السلام أحس من بنى إسرائيل الكفر والتبييت ومؤامرة للقتل فطمأن اللّه عيسى إلى نهاية المعركة ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، إنها أربعة مواقف أرادها اللّه لعيسى عليه السلام .

وكلمة : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع وتموت المعانى الأخرى فى اللفظ .

إن كلمة « التوفى » نفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظ وهو موضوع لمعان متعددة منها :

١ – التوفى بمعنى النوم : لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، إن ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم ﴾ هنا بمعنى : ينيمكم ، فالنوم معنى من معانى التوفى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ، أى : حين نومها .

٢ – أنت تقول لمن أقرضته مبلغا من المال ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه : لابد أن استوفى مالى ، وعندما يعطيك كل مالك تقول له : استوفيتنى مالى تمامًا .

إذن .. توفيته بمعنى أخذته بتمامه أى استوفيته وقبضته .

إذن .. ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ تعنى مرة تمام الشيء ، كاستيفاء المال وتعنى مرة النوم ، أى إنه سبحانه يريد أن يقول أريدك تامًا ، أى أن خلقى لا يقدرون على هدم بنيتك « أى قتلك » لأنى طالبك إلى تامًا .. ومعنى « تامًا » أى أن الروح فى جسدك بكل مواصفاته .

﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إن الواو لا تقتضى ترتيب الأحداث .. فعلى فرض أنك قد أخذت متوفيك أى مميتك فهل معناه أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه ؟ لا .

إذن .. لماذا جاءت متوفيك أولًا ؟

نقول لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة له من الموت ولكن عيسى سيموت قطعا ، فالموت ضرب الازب ، ومسألة يمر بها كل البشر .

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[1] .

وكذلك قال رسول اللَّه ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم »[2] .

بعض الناس يشككون فى نزول عيسى مرة أخرى . نقول لهم : أقبلتم فى بداية عيسى أن يولد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إن الذى جعلكم تقبلون العجيبة الأولى يمهد لكم أن تقبلوا العجيبة الثانية .

---

(١) أخرجه البخارى [٢٢٢٢] ، ومسلم [١٥٥/٢٤٢] ، والترمذى [٢٢٣٣] .

(٢) أخرجه مسلم [١٥٥/٢٤٦] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء : ١٥٧] .

إن أكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ فهل هى هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ولو قالوا : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ﴾ فقط لكان الجرم أقل وطأة ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول اللّه وقتلوه فهذا جرم صعب للغاية .

أو أن كلمة : ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ هنا ليست من مقولهم الحقيقى وإنما من مقولهم التهكمى وأضرب مثلا لأوضح هذا الأمر .. كأن يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن .. قد يكون قولهم : ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ هو من قبيل التهكم أو أن هذه الكلمة هى من قول اللّه سبحانه مضافًا إلى قولهم ليبشع عملهم ولأنه رسول اللّه على رغم أنوفهم .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ وكلمة ﴿ صَلَبُوهُ ﴾ هنا هى لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعو ذلك ويعلنونه للناس وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب .. فقد قتلوا شخصًا شبهه اللّه لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب ، ويقطع اللّه عليهم هذا الأمر فيقول : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وكلمة ﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ هذه هى دليل على هوج المحاولة للقتل فقد ألقى شبهه على

شخص آخر ، وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ليس فيها حزم التبين من المتربصين القتلة .

واختلفت الروايات فى كلمة ﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ :

قيل أنهم حينما طلبوا عيسى ليقتلوه دخل خوخة ، - والخوخة هى باب فى باب دخل خلفه - رجل اسمه « تطيانوس » وعندما رأى عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئًا يرفعه فلما استبطأ القوم « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا إن كان هذا « تطيانوس » فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين « تطيانوس » ؟

إذن .. فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه .

وقيل إن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم أيكم يلقى عليه شبهى وله الجنة ؟

فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وقدم عيسى الجائزة الكبرى لأى مؤمن .. وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ويقال له : « سرخس » فألقى شبه المسيح عيسى عليه فقتله اليهود .

وقيل إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رفع خافوا أن تنتشر حكاية رفعه بين الناس فيؤمنوا برسالته .. وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله .. ولذلك جاء القتلة بشخص وقتلوه وألقى على هذا القتيل شبه عيسى وأعلن القتلة أنهم قتلوا المسيح عيسى .

وأن القتيل هو واحد ممن باعوا نبى الله عيسى لليهود ولما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المتربصون

الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتيقظت ملكة التوبة فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول أنا عيسى ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم أيكم عيسى إلا وهو عيسى بالفعل لأن مشهد المتربصين يوحى أنهم سيقتلون عيسى .. وقتلوه دون تثبت .

وأن واحدًا باع عيسى لقاء ثلاثين دينارًا وتشابه عليهم فقتلوا الواشى ولم يظفروا بعيسى .

ونحن كمسلمين لا نهتم اهتمامًا كبيرًا بتلك الروايات ، فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى وصلبناه ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ويدلنا على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل وهو أمر متوقع فى مسألة مثل هذه حيث يمكن أن تختلط الأمور .

وإننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولًا فإن صدقناها أمنا لا نحن نؤمن أولًا بمنزل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه وهو سبحانه قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إذن .. فحين قال بنوا إسرائيل أنهم قتلوا عيسى كذبهم الحق وقال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ ويوضح الحق سبحانه أنهم لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى لكنهم شكوا فيمن قُتل فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو « تطيانوس » أو « سرخس » ؟ والحق سبحانه هنا بنسبتين متقابلتين ، النسبة الأولى : هى الشك ، وهى نسبة يتساوى فيها الأمران ، والنسبة الثانية : هى اتباعهم للظن وهى نسبة راجحة لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكًا ثم انقلب ظنًا .

وينهى الحق وذلك بعلم يقينى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقينا ، واليقين هو الأمر الثابت المعقودفى الواقع والأعماق بحيث لا يطفوا إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير .

والأصل فى ذلك أن رهطا من اليهود سبوا عيسى وأمه عليهما السلام فدعا عليهم فمسخهم اللّه قردة وخنازير فأجمعوا على قتله فأخبره اللّه بأنه رافعه إلى السماء .

ثم تسلطوا على أصحاب عيسى بالقتل والصلب والحبس حتى بلغ أمرهم إلى صاحب الروم فقيل إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب عيسى بعد أن قتلوه وصلبوه فأرسل إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجىء بالجذع الذى صلب عليه فعظمه صاحب الروم وجعلوا منه صلبانًا فمن ثم عظم النصارى الصلبان ، ولذلك أخبر النبى ﷺ أن عيسى سينزل فى آخر الزمان ويكسر الصليب إبطالًا لما يدعونه من تعظيمه وإبطال دين النصارى .

وقول اللّه تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ، الذين ادعوا ألوهية عيسى أو أنه ابن الإله الخالق ، كان الواجب عليهم أن يعترضوا على مسألة الصلب هذه ، فكيف يقولون بألوهية أو بينوة ألوهية ثم يجىء أعداؤه فيقدرون عليه ويقتلوه ويصلبونه ؟ إنه بذلك يكون قد انقلب من قادر إلى مقدور عليه ، إنه بذلك يكون بشرًا يقدر عليه غيره من البشر .

إذن .. فعندما يأتى الإسلام ويبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة . فهو يعين أتباع عيسى على تبرئته من القتل والصلب ، وكان يجب أن يتلقف أتباع عيسى عليه السلام قول اللّه عز وجل فى هذه القضية : ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ ﴾ ليؤمنوا به .

ويقول ربنا وهو أصدق القائلين : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فالنصارى الذين زعموا التبعية لعيسى عليه السلام يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب ، ونحن - المسلمين - نقول بالرفع ولا نقول بالصلب ؛ ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ .

والذين يقفون عند هذه المسألة يجب عليهم ألا يقفوا ؛ لأن قصة عيسى عليه السلام بدأها الله بمعجزة ، وهى أنه ولد من أم دون أب ، فإن كنتم قد صدقتم بالمعجزة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدقون بها فى مسألة الرفع ؟!

وإذا كان فينا نحن المسلمين من يقول : إن عيسى عليه السلام مات ولن ينزل .

نقول لهؤلاء : ماذا تقولون فى نبيكم محمد ﷺ ؟ أعرج به إلى السماء ؟

سيقول المسلمون : نعم .

ونقول لهم : ألم يكن رسول الله ﷺ حيًا بقانون الأحياء ؟

سيقولون : نعم كان حيًا بقانون الأحياء .

ونقول : وظل رسول الله ﷺ مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا .

إذن .. فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى وما يزال حيا ، ثم ينزل إلى الأرض ، هذه المسألة ليست عجيبة والخلاف بين رفع عيسى عليه السلام وصعود محمد ﷺ بالمعراج ، هو خلاف فى المدة ، ولنا أن نعرف أن الخلاف فى المدة لا يقتضى خلافًا .

المهم أن صعد بحياته ونزل بحياته وظل فترة من الزمن بحياته .

إذن .. مسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية (١) .

ويقول الحق في هذه المسألة تأكيدًا لهذه القضية ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء : ١٥٩] .

قد يقول السامع لهذه الآية : إنهم أهل كتاب ولابد أن يكونوا قد آمنوا به ونقول : لا .. لقد آمنوا به إيمانًا مرادًا لأنفسهم وليس الإيمان المراد لله ، لقد آمنوا به إلهًا أو جزءًا من إله ، ولكن الله يريد أن يؤمنوا به على أنه بشر وأنه رسول وأنه عبد ، فإذا قال الحق : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] .

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ هذا إبطال لما ادعوه من قتله وصلبه ، وهو حي في السماء الثانية على ما صح عن الرسول ﷺ في حديث المعراج(١) . وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله ؛ ليقتل الدجال وليملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا ، ويحيا فيها أربعين سنة ، ثم يموت كما تموت البشر .

البحر المحيط [١٢٨/٤] .

---

(١) وهو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج : « ... فأتينا السماء الثانية ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ، قال : محمد ﷺ ، قيل : أأرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، ولنعم المجيء جاء . فأتيت على عيسى ويحيى ، فقالا : مرحبًا بك من أخ ونبي ... » .

أخرجه البخاري [٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧] واللفظ له ، ومسلم [١٦٤] ، وأحمد في المسند [٢٠٧/٤، ٢٠٨] .

إن هذا القول معناه : ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولًا وعبدًا وبشرًا قبل أن يموت .

وقلنا فى اختلاف الضمائر : إن « الهاء » الموجودة فى قوله : ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ يرجع هذا الضمير إلى عيسى . فسوف يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب بمراد الله كعبد بشر ورسول ، والضمير الآخر الموجود ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يرجع إما إلى عيسى أى قبل موت عيسى ، أى إن عيسى لم يمت الميته الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبدًا ورسولًا وبشرًا ، ولا يؤمنون به إلا إذا جاء بلحمه ودمه ، ويقول لهم : أنتم مخطئون فيما أعتقدتم ، وأنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد النبى الخاتم ﷺ .

وأنتم مخطئون فى أتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هو أننى جئت لأدعوكم للإيمان بالرسول الخاتم محمد ﷺ وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول .

وذلك يدل على أن عيسى عليه السلام لن يأتى بتشريع جديد ؛ بل إنه ساعة نزوله سيجد الصلاة قائمة فيصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد ابن عبد الله ﷺ حين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ماذا سيقول إذن الذين فتنوا ؟ لا شك أنهم يعلنون الإيمان برسالة محمد ﷺ ، وأن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد ، قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية . إن الآية يصح أن تكون عامة ؛ فالحق قال فيها : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ .

إن الضمير فى الآية قد يعود إلى كل كتابى قبل الموت[1] ، لأن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويحجب اليقين ، وغرور الحياة يدفع إلى ذلك ؛ فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق انتهى كل شىء ، وتستيقظ النفس البشرية على لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ، ويسقط غرور الحياة ويراجع الإنسان نفسه فى هذه اللحظة . ويقول الكتابى فى تلك اللحظة لنفسه : أنا اتبعت هوى نفسى فى أننى جعلت عيسى إلهًا ، ولكن هل ينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟! لا ، لا ينفع إيمان الإنسان حال موته ، فإنه فى تلك الساعة عاين كل شىء وكشف عنه الحجاب وعرف مقعده فى الجنة أو فى النار ، وحينئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قل ولا كسبت فى إيمانها خيرًا .

إن إيمان فرعون لحظة الغرق لم ينفعه وكذلك إيمان أى من أهل الكتاب قبل الموت . لقد قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

---

(١) روى ابن حاتم بسنده [٦٢٤٨] عن ثابت البنانى قال : سمعت الحسن فى قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال : النجاشى وأصحابه .
وروى بسنده أيضًا [٦٢٤٧] عن الضحاك عن ابن عباس قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال : اليهود خاصة .
وروى بسنده [٦٢٥٠] عن هارون الغنوى ، سمع عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال : لو أن يهوديًا وقع من حائط إلى الأرض لم يمت حتى يؤمن به يعنى : بعيسى عليه السلام .

إن قول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ لا أحد من أهل الكتاب إلا وهو سيؤمن بعيسى قبل أن يموت عيسى أو قبل أن يموت الكتابى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ . إن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصر نزوله فى الدنيا [1] وسيرونه يصلى خلف واحد من أمة محمد ﷺ [2] ، وبعد ذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير كما يشهد يوم القيامة على السابقين من أهل الكتاب الذى قالوا إنه إله أو ابن إله ، يحدث

---

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده [٦٢٥٧] عن سعيد عن قتادة قوله : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ يقول : يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالات ربه وأقر بالعبودية على نفسه .

ومنه قول الله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النحل : ٨٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل : ٨٩] .

وقوله عز وجل : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وقال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى : بتكذيب من كذبه ، وتصديق من صدقه .

تفسير القرطبى [١٢/٦] .

(٢) عن أبى الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة .

قال : فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم : تعال صل لنا . فيقول : لا . إن بعضكم على بعض أمراء . تكرمه الله هذه الأمة .

أخرجه مسلم [١٥٦] .

ذلك في موقف مهيب يوم يجمع اللّه الناس للحساب ويستدعي عيسى عليه السلام للشهادة على قومه فيسأله : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

سؤال واضح صريح محدد وعلى رؤس كل الخلائق في حضور أنبياء اللّه وملائكته .. فماذا يكون جواب نبي اللّه عيسى عليه السلام : ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

هكذا ستكون شهادة عيسى ابن مريم على من اتخذوه وأمه إلهين مع اللّه .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾[1] [مريم] .

(١) قال ابن كثير : لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا فقال : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أي في قولكم هذا ﴿ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك :.أي عظيمًا ، ويقال إدّاً بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضًا ثلاث لغات أشهرها الأولى .
وقوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ أي : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظامًا للرب وإجلالًا لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولاصاحبة له ولا كفء له بل هو الأحد الصمد :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد =

الذين قالوا هذا الكلام قالوه بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ؛ لأنه قبل ذلك لم يقل أحد هذا الكلام ، فما الذى زاد فى ملك الله بعد أن جاء الولد ؟! الشمس هى الشمس والنجوم هى النجوم ، والأرض هى الأرض ، والهواء هو الهواء . فالذى نظم هذا الكون منذ بدء الخليقة لا يحتاج إلى ولد يساعده فى هذا الأمر . إذن ... فموضوعية اتخاذ الولد عبث ؛ لأنه لم يزد شىء فى الملك على يد هذا الولد ، فلم تكن هناك صفة معطلة عند الحق سبحانه وتعالى ... ولما جاء الولد كمل الكون بهذه الصفة ، تعالى الله عن ذلك ، لأن الصفات الكمالية لله قبل أن يخلق أى شىء ، فهو خالق قبل أن يخلق ورازق قبل أن يرزق ، ومحى قبل أن يحيى ومميت قبل أن يوجد من يموت فكل صفات الكمال موجودة قبل متعلقاتها ، فصفات الله أزلية .

قال تعالى فى سورة الكهف ردًا على افترائهم : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[1] [الكهف : ٥] .

وهنا قال : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ ﴾ [مريم] .

= وقوله : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أى لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له .

تفسير ابن كثير [١٣٥/٣، ١٣٦] بتصرف .

(١) أخرج البخارى [٤٩٧٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى : وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفوًا أحد » .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أى : فظيعًا ومنكرًا ومستبشعًا وما دام شيئًا منكرًا فلا ينكره المكلفون من الإنس والجن فقط ولكن تنكره الأشياء التى لم تكلف من الجبال والسماوات وغيرها ، ولذلك يقولون هذا أمر تهتز له السموات السبع .

ومعنى قوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أى تتشقق وتنفطر ولكنها لم تنفطر ؛ لأن اللّه تعالى يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، فالحيثية فى انفطار السماء وانشقاق الأرض وخر الجبال : أنهم دعوا للرحمن ولدا ، ورد الحق سبحانه وتعالى على هذا الزعم بقوله : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ .

هذا شىء اسمه نفى الحديث وشىء اسمه نفى ابتغاء الحديث ، فمعنى ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ . أى : أنه سبحانه لو أراد اتخاذ الولد فلن يمنعه أحد ، ولكنه لم يفعل ولم يرد ، وأنكر ذلك على من زعموه كذبًا وزورًا فنفى الابتغاء يدل على أن الحدث إن أراده اللّه كان ، ولكن لا ينبغى له أن يتخذ ولدًا ، لماذا ؟ لأن الولد حتى ولو كان ولدًا بارًا وطائعًا ، فاللّه تعالى غير محتاج له ؛ لأن الكل عبيده ولا يستطيع أحد أن يتمرد عليه ؛ لأنه قادر عليهم جميعًا ، فهم فى قبضته ورهن مشيئته .

ثم قال تعالى تأكيدًا لذلك : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

فكل المخلوقات عابدة للّه ، وحتى الذين كفروا لم يخرجوا عن أنهم عبيد للّه لأن الإنسان فيه منطقة اختيار ، هذه المنطقة هى أن يفعل أو لا يفعل

ولكن أيضًا هناك منطقة قسر ، فالكافر بما أعطاه اللّه من صفة الاختيار أن يكون طائعًا أو عاصيًا ، مؤمنًا أو كافرًا ، هذا الكافر اعتاد أن يخالف أوامر اللّه فى الأمور التى وضع له فيها اختيار ، فهذا الكافر الذى اعتاد على المخالفة والتمرد على الإيمان ، لماذا لا يتمرد على المرض فلا يمرض ؟ ولماذا لا يتمرد على الموت فلا يموت ؟! وإذا افتقر لماذا لا يتمرد على الفقر ويرفضه ؟!

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .
هذا تنزيه للّه عن أن يكون له ولد ، فالحق سبحانه يقول : ليس للّه ولد بل عباد مكرمون ، ومع أنهم مكرمون إلا أنهم لا يسبقونه بالقول ويطيعون أمر ربهم فلا يعملون شيئًا لم يأمرهم به ، فهم طوع أمره .

إذن .. آفة المجتمعات أن عظماءها يسبقون بالقول ، ويعملون بأوامرهم لا بأمر اللّه !! وهم على خطر عظيم .

لقد خلق اللّه الليل مكملاً للنهار ، والذكر للأنثى ، فإذا كان اللّه قد خلق التكامل فى المخلوقات فكيف يحاول بعض الناس أن ينفوا الكمال عن اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [يونس : ٦٨] ، الادعاء بأن للّه سبحانه وتعالى ولدا نقصان فى كمال اللّه جل جلاله ، ذلك أن الإنسان يتخذ الولد لعدة أشياء : إما ليكمل نقص الوجود ؛ لأن عمره فى الدنيا محدود ، ولذلك يريد أن تبقى ذكراه فى الدنيا ، واللّه سبحانه وتعالى له كمال الوجود ؛ فهو الأول والآخر بلا نهاية ، فلم يتخذ ولدًا وهو أصل الوجود ، وله كمال الوجود سبحانه وتعالى ؟! وإما أن يتخذ الإنسان ولدًا ليرثه فهو لا يريد أن يذهب ماله للآخرين ، إنما يريد امتداد ما يملك إلى ابنه .

والإنسان يحتاج إلى ولد يعطيه العزة والقوة ، وهو فى شبابه قوة بذاته وفى شيخوخته ضعيف بذاته قوى بأولاده ، ولذلك فهو يريد الولد ؛ ليكون له قوة عندما يضعف . والله.سبحانه وتعالي هو القوى دائمًا الذى لا يضعف أبدًا ، وهو جل جلاله دائم القوة ، ولذلك فهو لا يحتاج إلى ولد .

إذن .. فكل الأسباب التى تجعل الإنسان يريد ولدًا هى لاستكمال نقص : نقص فى العمر ؛ لأن الإنسان عمره محدود ، ونقص فى الملك ؛ لأن الإنسان يترك ما يملك عندما يبلغ الكبر يضعف ويصبح محتاجًا إلى من يعينه ويدافع عنه ، والله سبحانه وتعالى له الكمال كله منزه عن هذا النقص .

ثم كيف يتخذ الله ولدًا ؟ إذا كان قد خلقه فهو من خلق الله ، وإذا كان لم يخلقه ولكن الابن خلق نفسه فإنه لا يصبح ابنا ولكنه يصبح إلهًا ؛ لأنه خلق نفسه وأوجد نفسه ، ومن هنا يصبح هناك إلهان وليس إله واحد ، وأما أن يأتى الولد عن طريق أنثى ، إذن فهو ليس محتاجًا إلى أنثى ليخلق ولدًا ؛ لأن طلاقة قدرته جل جلاله أوجدت آدم بدون ذكر أو أنثى وأوجدت حواء بدون أنثى . والأسباب مخلوقة لله سبحانه وتعالى ولذلك فإن طلاقة قدرة الخالق هى التى تحكمها ، فكيف نأتى ونجعل الأسباب تحكم خالقها ؟! وكيف نأتى إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى أنه يفعل ما يشاء ، وأنه يقول للشيء كن فيكون ، ثم نقيد طلاقة القدرة بأنه يجب أن تكون هناك أنثى ليأتى الولد ، فكأننا ننقص من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى كونه .

ثم من أين جاءت هذه الأنثى ؟ إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها فهى من خلق الله سبحانه وتعالى ، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله ، وبذلك

يكون عندنا ثلاثة آلهة بدلاً من إله واحد ؛ وهنا يفسد الكون ؛ لأن كل إله آمر ، وكل إله له خلق ، وكل إله يريد أن يعلو على الآخر فتكون النتيجة كارثة (1) .

ومرة قالوا : إن اللّه قد اتخذ ولدًا من الأنبياء ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

والآية الكريمة : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾ (2) ترد عليهم ؛ لأنهم عندما قالوا ذلك فمعناه أن الولد قد جاء بعد أن وجدت ألوهية مستقلة للّه سبحانه وتعالى ، وبهذه الألوهية أخذ الولد ، وأول أسباب الحاجة ، فعندما تقول : فلان اتخذ بيتًا ؛ فإنه محتاج إلى بيت ، ومعنى اتخاذ الإنسان لشيء : أنه محتاج له ليكمل نقصًا فيه فما هى حاجة اللّه سبحانه وتعالى إلى الولد ؟! وله الكمال المطلق فى الكون كله .

ولذلك يأتى قول الحق جل جلاله : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ [يونس : ٦٨] .

---

(1) قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .
﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون ٩١] .

(2) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾ هذا إخبار عن النصارى فى قولهم : المسيح ابن اللّه . وقيل عن اليهود فى قولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ ، وقيل عن كفرة العرب فى قولهم : الملائكة بنات اللّه . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار فى « مريم » و « الأنبياء » .

وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وهكذا حتى لا يظن أحد أن الكون سبح لله مرة واحدة وسكت . نقول : إن الكون سبح لله وما زال مسبحًا وسيظل مسبحًا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس : ٦٨] .

وهكذا يعطينا الحق جل جلاله الرد الحاسم : لماذا له ولد ؟ وله ما فى السموات والأرض ، فما حاجته إلى الولد وكل ما في الكون ملكه ؟! ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ ﴾ [يونس : ٦٨] .

يعنى هل عندكم دليل على ما تقولون ؟ « إن » تأتى للنفى ، وسلطان يعنى : حجة . فما هى حجتكم على أن لله سبحانه وتعالى ولدًا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] .
ولا يعلم أحد عن الله جل جلاله إلا ما أخبرنا به الله ، علمنا عن الله لابد أن يأتى من الله ، وما دام الله لم يخبركم بذلك ، فمن أين جاءكم هذا الكلام ؟!

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس : ٦٩] .

والافتراء هو الكذب المتعمد ؛ بأن تعرف الحقيقة وتقول كذبًا ، وهؤلاء يعلمون أن كل ما يتعلق بالله لا نعلمه إلا بإخبار الله لنا به ، ومع علمهم بهذه الحقيقة فإنهم يكذبون . فالذى يريد أن يحقق لنفسه نفعًا بأن يصبح له مستقبل مرموق فى المجتمع وأخذ بالأسباب فى ذلك ، والذى لا يصحو من

النوم ولا يذهب إلى المدرسة يريد أن يحقق لنفسه نفعًا أيضًا ؛ بألا يتعب نفسه فى شىء . إذن ... فكلاهما يريد نفعًا والذى تعب واستيقظ مبكرًا لم ينظر إلى النفع السريع ، ولكنه نظر إلى النفع المستقبلى بعد خمس أو ست سنوات يصبح إنسانًا له كيان فى المجتمع ، والذى نام كما يشتهى فلم يستيقظ مبكرًا ، وأمضى يومه يتسكع ؛ نظرًا إلى النفع العاجل فلم يتعب ، ولكنه أصبح صعلوكًا فى المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا لماذا اختاروا الكذب فيقول : ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾

إذن ... فالذى حملهم على هذا الافتراء أنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطاتهم وبسيادتهم فى الحياة الدنيا ، ولذلك لم يقل الحق تبارك وتعالى متاع فقط بل ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس : ٧٠] وحدها ، وما دام المتاع فى الدنيا محدود القدرات ، فهم قد اختاروا عدم الفلاح ؛ لأنهم اشتروا الدنيا بمتاعها المحدود القليل ، وباعوا الآخرة بمتاعها الأبدى ، الذى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1] .

والذين يفترون على اللّه الكذب لا يظنون أنهم ملاقوه ولا أن هناك يومًا للبعث يحاسبون فيه ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم هى أن يأخذوا كل ما يستطيعون من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبكل الوسائل ؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك شىء بعد ذلك ، فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويخبرهم بالحقيقة : ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس : ٧٠] .

---

(١) أخرج البخارى [٧٤٩٨] ، ومسلم [٢٨٢٤] . عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه ، عن النبى ﷺ قال : « قال اللّه : أعددت لعبادى الصالحين : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [البقرة : ١١٦] .

إن من ضعف البصيرة أن تتخيل أن الخلاق له ابن ، وقد بين الحق هذه القضية فى سورة الكهف حين قال : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥ ﴾ [الكهف] .

إن الحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون له ولد ، إنه منزه عن ذلك ، وكانت البداية هى أن المشركين من كفار مكة قد توهموا أن الملائكة بنات اللّٰه ، ومضوا يتصورون ذلك ، وكان ذلك قمة الشرك باللّٰه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخذ من الخلق أبناء أو بنات .

ثم جاء بعد ذلك مثل هذا الضلال فى التصور من بعض اليهود فقالوا ما بينه لنا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

وعزير هو كاهن من نسل هارون ، وكان يكتب التوراة وعندما تصور اليهود أنه ابن اللّٰه خرجوا عن الوحدانية للّٰه جل وعلا ، وابتدع البعض من أتباع المسيح أيضًا تصورًا بأن المسيح ابن اللّٰه ، وهذا قول لم يأت به كتاب أو رسول ولا حجة عليه ولا برهان ، فكيف يقع فى ذلك أهل الكتاب الذين أنزلت إليهم كتب من السماء وجاءت إليهم رسل من الحق جل وعلا ؟! إن قول الحق عن ذاته : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾ تعنى التنزيه المطلق عن ذلك ، فقال جل وعلا

في كتابه الكريم : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم] .

إن المشركين واليهود والنصارى قد وقعوا فى ضلال التصور أن لله أبناء من الملائكة أو البشر ، وذلك قول شديد منكر تكاد الجبال تسقط قطعًا مفتتة منه وتكاد الأرض تنخسف ، وتكاد السموات يتشققن منه ، كأن المخلوقات التى لا تملك قدرة التفكير كالإنسان تكاد تنهار من فرط الإنكار لمثل ذلك القول . إن ضلال ذلك التصور تسلل من عجز الفهم عن طلاقة قدرة الحق عندما يقول للشىء : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ إن المسيح كلمة من الله هى ﴿ كُن ﴾ فكان مثلما خلق آدم عليه السلام ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] إن شأن عيسى عليه السلام مثلما أوضح الحق كيف خلق آدم ، وكان الأجدر أن يفتن الناس بخلق آدم عليه السلام ؛ لأن عنصر الأبوة والأمومة فى إيجاده ممتنع ، أما عيسى عليه السلام فعنصر الأبوة وحده الممتنع وبذلك يعلم الحق جل وعلا رسوله الله محمدًا لو كان لله ولد لكان الرسول أول العابدين له فيقول تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] .

إن الحق يعلم رسوله أن يبلغ المشركين إنه لو صح بالبرهان أن للرحمن ولدًا لكان الرسول أول العابدين لهذا الولد ، لكن البرهان لا يستقيم ؛ فكيف يكون لله الخالق البارىء على غير مثال سابق ، الذى ليس كمثله شىء ، الباقى سبحانه الذى لا نهاية لوجوده - ولد من البشر ؟!

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : ١١١] .

فكأن عدم اتخاذ اللّه سبحانه وتعالى ، ولدًا نعمة كبيرة يجب أن يحمد عليها (١) لأن سبحانه لو كان له ولد - وتعالى اللّه عن ذلك علوًا كبيرًا - فخصه بالرعاية وترك بقية الخلق ، فكأن الحق يقول أنا ليس لى ولد حتى تكونوا كلكم سواء ، فالخلق كله سواسية عند اللّه ، وهذه نعمة للخلق جميعًا ، لأن رحمة اللّه وحنانه سيكونان لنا جميعًا ؛ كما أن اتخاذ الولد يجعل الوالد مذكورًا بعد موته ، واللّه تعالى منزه عن الموت ، فلا حاجة له فى ذلك تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ، بينما الإنسان عكس ذلك فهو يحب الذرية ، حتى يمتد ذكره بعد موته ويفرح بولده ؛ لأنه سيخلفه ويحمل اسمه كما يفرح بحفيده لهذا السبب أيضًا ، ولأن الأبناء عزوة وقوة وزينة الحياة الدنيا لكن اللّه هو القهار ، وهو الجبار ، وهو القوى ، فهو سبحانه منزه عن الصاحبة والولد .

وأنت إذا نظرت فى الكون وجدت أن الفساد يأتى إما من الصاحبة ، وإما من الولد ، كذلك لو كان للّه شريك فى الملك فمن فيهما الذى ترضيه ؟ ومن الذى تعبده ؟ وكيف يسير الكون ؟ إنها عملية غير مقبولة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر : ٢٩] .

فهذا عبد مملوك لعدد من الأسياد المختلفين ، لهذا يأمره أحدهم بشىء والآخر يأمره بعكسه فلابد أنه سيتعب جدًا ، ولكن العبد الآخر له سيد واحد

---

(١) عن يعلى العامرى أنه جاء حسن وحسين رضى اللّه تعالى عنهما يستبقان إلى رسول اللّه ﷺ وضمهما إليه ، وقال : « إن الولد مبخله مجبنه ... » الحديث .
رواه أحمد فى المسند [١٧٢/٤] ، وابن ماجه [٣٦٦٦] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٩٥٧] ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك [١٦٤/٣] وزاد : « محزنه » . وصححه ، ووافقه الذهبى .

فهذا لا شك أنه سيكون مرتاحًا عن الآخر ، فكذلك الإنسان الذى يعبد اللَّه وحده والذى يعبد آلهه متعددة ، فما دام اللَّه ليس له شريك فى الملك فأوامره نافذة بدون معقب ، وتطمئن إن أمرت بشىء منه أنه ليس هناك قوة أخرى تمنعك من تنفيذه .

فمعنى ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ : أن تقدم أوامره ونواهيه على كل أمر أو كل نهى ؛ لأنك إن كبرت الحق سبحانه وتعالى أعززت نفسك ولذلك فعزة اللَّه لخلقه تأتى لمن يخلص العبودية وكلمة العبودية مكروهة إلا إذا كانت للَّه ، لأن العبودية للَّه عزة . ولكن عبودية الإنسان للإنسان هى المكروهة والمذمومة وتقوم بسببها معارك وحروب فى العالم كله ؛ وذلك لأن فى هذه العبودية السيد يأخذ خير العبد ، ولكن عبوديتنا للَّه نأخذ نحن العبيد خير السيد وهو اللَّه ، فهذه عزة وليست ذله ؛ فأن يكون الإنسان عبدًا ذليلاً للَّه ففى ذلك كمال عزته ، كما يقول أحد الصالحين :

حسب نفسى عزًا بأنى عبد ... يحتفى بى بلا مواعيد رب
هو فى قدسه الأعز لكن ... أنا ألقى متى وأين أحب

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

علينا أن نعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق سبحانه تعالى وعيسى ابن مريم يوم يجمع الحق سبحانه الرسل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١٠٩] .

قد يقول قائل : لماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟! للإجابة عن ذلك علينا أن نتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ .

فيجب أن نعرف أن لكل حدث زمانًا ومكانًا ، وزمان هذا الحدث يوم القيامة ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر .

والحق سبحانه عندما يذكر عيسى عليه السلام فى أى موضع فإنه ينسبه لأمه : ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائمًا على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله ، فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلانًا أمس ؟ وإما ليقر المسئول بما يعلمه السائل . ومثال ذلك أن يسأل الأستاذ التلميذ ليقر بما يعلمه .

وكذلك يكون سؤال اللّٰه لعيسى عليه السلام . إنه لتقريع من قالوا عن عيسى عليه السلام ما لم يبلغهم إياه . إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون اللّٰه ؛ لأن عيسى ابن مريم عليه السلام إنما بلغ ما أوحى له به ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى عليه السلام ردًا على هذه الافتراءات من الأتباع : ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ .

وحين نسمع ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ لنعرف أنها إجمال التنزيه للّٰه عز وجل وخالقه وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه . إنه عليه السلام يعلم أن الرسول المصطفى من اللّٰه سبحانه ليس له أن يقول : إنه إله ، وفى هذا القول تقريع لمن أدعى على عيسى عليه السلام مثل هذا القول ورد عيسى عليه السلام على ذلك بقضيه متفق عليها فقال لربه : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

إن الكل متفق على أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما بدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال والكل يعلم تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يخفى عليه شيء والكل يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعلم خفايا الصدور ؛ يخبرنا عيسى عليه السلام بذلك : ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

إن عيسى عليه السلام يقرر أن الحق سبحانه وتعالى العليم بكل شيء يعرف أن ذلك لم يخطر له على بال . وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية :

الصورة الأولى : تنزيه عيسى عليه السلام لربه عز وجل : ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

الصورة الثانية : هي قول عيسى لربه : ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ ﴾ .

الصورة الثالثة : هي قوله لربه : ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾

إذن ... فلا شيء من جانب عيسى عليه السلام ولم يقل ذلك ، وإنما هو تقريع من الله عز وجل لمن قالوا في عيسى عليه السلام وأمه غير الحق ، ويختم عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله : ﴿ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ وكلمة ﴿ عَلَّٰمُ ﴾ هي مبالغة في ذات الحدث ، ومبالغة في تكرار الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه يعلم كل ما كان وما يكون سبحانه لأن الكون كله ملك له [١] .

(١) قال القاسمي في قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ ﴾ استئناف مقرر لدعم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهاني ؛ فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعًا ، فحيث التقى علمه تعالى ، التقى صدوره عنه حتمًا ، ضرورة ، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم . قاله أبو السعود . =

ويقول الحق تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

إن عيسى عليه السلام يقرر أنه لم يبلغ قومه إلا ما أمره اللّٰه ببلاغه ، وأنه دعاهم إلى عبادة اللّٰه كرب له ورب لهم جميعًا ، وعيسى شاهد عليهم فى تصرفاتهم وهو موجود بينهم ، والشهيد كما نعلم هو الذى يشهد السلوك ولا يقدر أن يمنع الناس المشهود عليهم عن فعل ما يفعلونه .

وبعد أن يتوفاه اللّٰه يكون الحق سبحانه وتعالى وهو الرقيب عليهم ، والرقيب الشاهد الذى يقدر أن يمنع الحدث ، والحق رقيب ويقدر أن يمنع الناس عما ارتكبوا من المخالفات ، كأن يبعث لهم من يذكرهم ، ليهديهم أو يكف أيديهم ، وهكذا نعرف أن هناك فرقًا بين مشهدية الخلق ورقابة الحق ، ولذلك قال اللّٰه تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

= ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه فى نفسى . فكيف بما أعلنه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ ﴾ بيان للواقع ، وإظهار لقصوره ، أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك . أفاده أبو السعود ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

تفسير القاسمى [٦/٢٢٢٢] .

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ يعنى فى الدنيا بالتوحيد . ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ « أن » لا موضع لها من الإعراب وهى مفسرة مثل : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ ﴾ [ص : ٦] . =

إنه لا يترك المسألة لشهادة الخلق فقط ، ولكن لرقابته أيضًا ، ويؤكد ذلك بتذييل الآية ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

إن الحق الذى يشهد يقدر أن يفعل ما يريد ، ومسألة الرفع كما نعلم هى الأخذ كاملاً دون نقص فى البنية بالقتل أو الموت . ونحن المسلمين نعرف أن الحق رفع محمدًا صلى اللّٰه عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السماوات وعاد

= ويجوز أن تكون فى موضع نصب ، أى ما ذكرت لهم إلا عبادة اللّٰه ، ويجوز أن تكون فى موضع خفض ؛ أى بأن اعبدوا اللّٰه ؛ وضم النون أولى ؛ لأنهم يستقلون كسرة بعدها ضمة ، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى حفيظًا بما أمرتهم ﴿ مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ « ما » فى موضع نصب أى وقت دوامى فيهم ، ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هذا يدل على أن اللّٰه عز وجل توفاه قبل أن يرفعه ؛ وليس بشىء ؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه ، وأنه فى السماء حى ، وأنه ينزل ويقتل الدجال وإنما المعنى فلما رفعتنى إلى السماء .

قال الحسن : الوفاة فى كتاب اللّٰه عز وجل على ثلاثة أوجه :

وفاة الموت : وذلك قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] . يعنى وقت انقضاء أجلها .

ووفاة النوم : قال تعالى : ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : ٥٥] وقوله : ﴿ كُنتَ أَنتَ ﴾ أنت هنا توكيد ﴿ ٱلرَّقِيبَ ﴾ خبر ﴿ كُنتَ ﴾ ومعناه الحافظ عليهم ، والعالم بهم والشاهد على أفعالهم ؛ وأصله المراقبة أى المراعاة ؛ ومنه المراقبة لأنها فى موضع الرقيب من علو المكان ، ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى من مقالتى ومقالتهم . وقيل : على من عصى وأطاع .

تفسير القرطبى [٦/٣٧٦،٣٧٧] .

إلينا مرة أخرى ؛ ليكمل رسالته ، فنحن نصدق أمر رفع عيسى وأنه سوف يعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ .

إن أمر الرفع فى الإسلام مقبول ؛ فقد رفع الله رسول الله ﷺ ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار الحوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وفرض الحق الصلاة على المسلمين فى تلك الرحلة . وهكذا تعرف أن مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء أمر وارد ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ . إن الحق سبحانه أراد بالقرآن رحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام . فإن الله يأتى به فى أسلوب لا يسبب الفتنة ، فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد علينا حكمًا ولن ينقض حكمًا .

وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة : ﴿ تَوَفَّيْتَنِي ﴾ فنجد أن الوفاة تعنى : « إماتة » والحق يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] .

أى : أماتته . والحق تعالى يقول : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : ١١] .

والله سبحانه وتعالى يقول أيضًا : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

إنه يسمى النوم : وفاة ، وسماه موتًا ، وهو أمر فيه قبض ، ومعنى الموت فى بعض مظاهره : غياب حس الحياة ، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة .

إذن .. فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم ، ويقال أيضًا عن الدين : توفيت دينى عند فلان : أى اخذت دينى كاملاً غير منقوص ، وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق تعالى القول الفصل : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ .

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضًا ، فقد قال الحق : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ . إن الموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح . وقد قال المسيح ابن مريم كما بين لنا ربنا : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أى أخذتنى كاملا غير منقوص . وهذه مسألة تنقض الرفع ، ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالًا للحوار بين عيسى ابن مريم وبين الحق سبحانه يوم المشهد الأعظم . وعيسى ابن مريم عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فإن الرقابة على القوم تكون لله . ولقد قسم المسألة بينه وبين ربه فالحق سبحانه شهيد دائمًا ورقيب دائمًا ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير فسبحانه الذى يغير ولا يتغير .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٥٥] .

لقد نقضوا كل المواثيق ، ونقض الميثاق هو حله ؛ لقد كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير حق ، وادعوا أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية .

إذن ... قدم الحق سبحانه وتعالى حيثيات ، وهذه الحيثيات هى :

أولا : نقضوا الميثاق ، وذلك يستوجب ما يتوعدهم الله به .

ثانيا : كفروا بآيات الله التى أنزلها ؛ لتؤيد موسى .

ثالثا : قتلوا الأنبياء بغير حق .

وقالوا تعليلا : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ؛ أى قلوبهم مغلقة ، ومعنى ذلك أنها قلوب مختوم عليها ختم كالغلاف بحيث لا يخرج منها ما فيها ، ولا يدخل فيها ما هو خارج منها ، إنهم بذلك يريدون الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ، ولا يدخل فيها إيمان .

نقول لهم : هل القلوب خلقت غلفًا ، أو خلقت مختومًا عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ؟ إن الحق سبحانه الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ؛ فالختم على القلب حتى لايتعرف على الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد والختم على السمع والبصر هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق سبحانه ، فمقر العقائد مختوم عليه ، وهو القلب ، ضربت غشاوة على الآذان وعلى البصر ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ، لأنه كان هذا بطبيعة التكوين ، فلماذا خصهم الله بذلك التكوين دون غيرهم ؟ والذين أهتدوا لم يكن مختومًا لا على قلوبهم ، ولا على أسماعهم ؛ ولا على أبصارهم . لماذا ؟

وللرد على هؤلاء نقول : إن الواحد منهم يريد أن يبرر انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول بأن الله خلقه هكذا ؛ ولكن هذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن الواحد منهم إنما يكفر أولاً فلما كفر ، وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ، لماذا ؟ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكًا تركه الله وشركه (١) .

---

(١) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشريكه » .

أخرجه مسلم [٤٦/٢٩٨٥] واللفظ له ، وابن ماجه [٤٢٠٢] .

إذن .. الختم جاء كنتيجة للكفر والآيتان قدمتا الحيثية ، وهى أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وكذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

إذن ... فالكفر هو الذى أتى أولاً ، ولذلك فالرد على أى إنسان يقول : إن الله لا يهدينى ، هو أن الله لا يهدى من كفر به ، فإن كفر الإنسان مانع لهدايته .

وبعد ذلك يذكر الحق جريمة أخرى من جرائمهم يقول تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦] .

إن الحق قد ساوى بين قولهم البهتان(١) على مريم وبين كل الأفعال السابقة لماذا ؟ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة نبى من أولى العزم من الرسل إنه نبى خصه الله بأشياء ، وهذه الأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه ، إنه عيسى ابن مريم عليه السلام الذى خلقه الله خلقًا خاصًا ، فالله

---

(١) قال ابن كثير : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أنهم رموها بالزنا ، وكذلك قال السدى وجويبر ومحمد بن إسحاق وغير واحد ، وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية ، وقد حملت بولدها من ذلك .

ابن كثير [١/٥٤٣] .

وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول ، فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

أخرجه مسلم [٢٥٨٩/٧٠] ، والنسائى فى الكبرى [١١٥١٨] .

تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه من روحه ، فجاء من غير أصول ، ولا أب ولا أم ، وخلق حواء من أصل واحد هو آدم عليه السلام ، بدون أم ، وخلق البشر وجعل نسلهم من سلالة من ماء مهين ، أما عيسى عليه السلام ، فقد خلقه اللّه ، فجاء من أم بدون أب ، فكيف تكفرون به ؟!!

وأيضًا أمه مريم البتول عليهما السلام ، التى عاشت فى كفالة نبى اللّه زكريا عليه السلام وكانت خادمه بيت المقدس ، وتربت تربيه دينية عظيمة ، كيف تتهمونها بالفاحشة ؟!! إن هذا الاتهام الباطل من أعظم البهتان . إن الحق سبحانه هنا يحدد سبيلين لكفرهم .

الأول : قولهم البهتان على مريم ، وهو كفر باللّه .

الثانى : كفرهم بعيسى عليه السلام ، الذى ولد بغير طريقة الميلاد العادية ؛ رغم أن هذا تكريم له ، وتقريع لليهود الذين غرقوا فى المادية ، حتى إنهم قالوا : ﴿ أرنا اللّه جهرة ﴾ .

وعندما رزقهم اللّه برزق غيبى لايعرفون أسبابه ، كما رزقهم بالمن والسلوى ، ع نباتًا لينموا من الأرض ولا ننتظر ذلك قوله تعالى : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ ، الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : ٦١] إنهم لا يثقون بما فى يد اللّه ويريدون الأمر المادى .

لذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى بلفته قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ، وهو ميلاد عيسى عليه السلام ؛ إن البشر فى مجيئهم المادى إلى الدنيا يأتى الواحد منهم من أب وأم ، ولكن الحق سبحانه وتعالى فى خلق

عيسى عليه السلام جاء به من أم دون أب ، وبذلك أنتقضت المادية ، ذلك أنهم ماديون ، وغفلوا عن الخلق الأول .

إذن ... فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟ لقد صنع ميلاد عيسى ابن مريم هزة لليهود الماديين ، ونقض أمامهم الأساس التقليدى لمجيء الإنسان إلى الدنيا بأصل واحد وهو الأم فاللَّه سبحانه وتعالى يثبت بذلك طلاقة القدرة ، الحق سبحانه وتعالى إنما جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر شيئًا فعليهم أن يأخذوا بالأسباب ، ولكنه سبحانه وتعالى حين يريد شيئًا فإنه يكون بلا أسباب فهو سبحانه الذى خلق كل الأسباب .

ولذلك قلنا قديمًا : إن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء :

إما أن ينشأ الشيء من وجود الشيئين ، هذه هى الصورة الأولى .

وإما أن ينشأ الشيء من غير وجود الشيئين ، وهذه هى الصورة الثانية .

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول ، وعدم وجود الشيء الثانى وهذه هى الصورة الثالثة .

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثانى وعدم وجود الشيء الأول وهذه هى الصورة الرابعة .

تلك هى الصور الأربع لوجود شيء ما ، ولم يشأ اللَّه أن يجعل الخلق وهو الإنسان المكرم الذى سخر له الحق كل الكون على نحو واحد ، لماذا ؟ حتى لايقولن أحد أن السببية مشروطة الوجود ، ولكن لنعرف أن إرادة اللَّه هى الشرط فى الوجود بدليل أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من غير أب ، ولا أم ، وخلقنا نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم ، هذه هى القسمة العقلية الواضحة ،

فليست المسألة توفر الأسباب للوجود ، ولكن المسألة إرادة الخالق جل وعلا .

ونحن نرى أيضًا قدرة الحق حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم ، ولكن يشاء الحق أن يكون الاثنان عقيمين .

وذلك قول الحق سبحانه : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى] .

إذن .. فليست المسألة مدار أسباب توجد ؛ بل مسبب يريد أن يوجد ، ولقد أراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ؛ ليلفت بنى إسرائيل لعلهم يخرجون من ماديتهم ، ويثبت لهم طلاقة قدرته . ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير ما كان يجب عليهم .

○ ○ ○

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٨٢٤١/٩٩
الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977-08-0900-4

